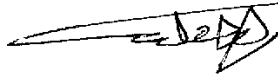


تم التصديق عليه من قِبل الأستاذ في المناقشة .



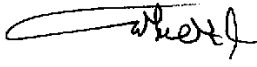
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي



د. م. إبراهيم محمد العلي

وزارة التعليم العالي

كلية اللغة العربية



د. م. عبد اللطيف فهد

قسم الدراسات العليا العربية

فرع الأدب

خطاب الأنبياء في القرآن الكريم خطأه التركيبية وصوره البيانية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد



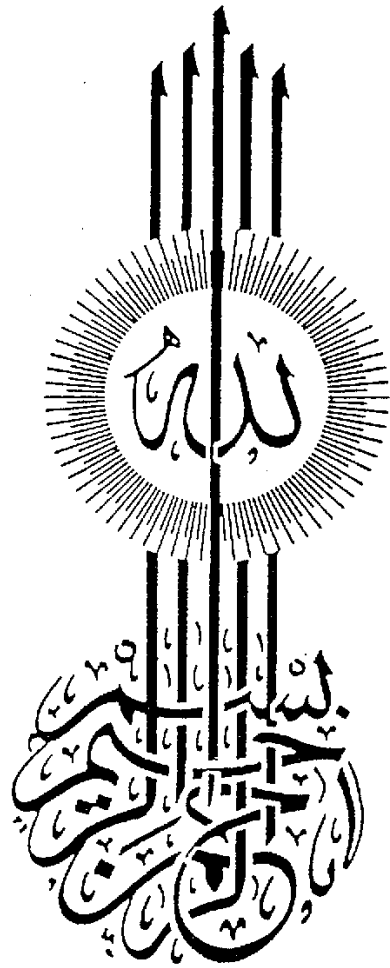
٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٦٣٤٨

اعداد الطالب

عبد الصمد عبد الله محمد

اشراف

الأستاذ الدكتور/عبد اللطيف خليف



" بسم الله الرحمن الرحيم "

" ملخص رسالة "

عنوان الرسالة: " خطاب الأنبياء في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية "

رسالة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد .

وتشتمل الرسالة على بابين ، تناول الباب الأول منهما خطاب الأنبياء في القرآن الكريم وانقسم فصلين ، تناول الفصل

الأول الدعوة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق ، وتناول الفصل الثاني مواقف الأتوام من دعوة الأنبياء .

أما الباب الثاني فتناول الخصائص التركيبية والصور البيانية ، وانقسم فصلين كذلك ، تناول الفصل الأول منه مسائل

علم المعاني الوازنة في خطاب الأنبياء ، وتناول الفصل الثاني ، مسائل علم البيان ، ثم انتهى البحث إلى النتائج التالية:

أنّ الأنبياء أو الرسل جميعاً دعوا إلى الإسلام الذي هو توحيد الله .

وأنّ الكفرة المعاندين تشابه أفكارهم وتتوارد خواطيرهم في رفضهم الدعوة وتكذيب الدعوة .

وأنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يتركوا منفذاً من منافذ التأثير على المخاطب إلا سلكوا فيه .

وأنّ القصة لما تتكرر في القرآن غالباً ما تحمل في التكرار إضافات جديدة .

وأنّ أكثر شواهد التقدير مرتبط بالفاصلة وأنّ رعايتها مقرون برعاية الجانب المعنوي .

وأنّ مقامات القصر قد اقتضت كثرة مجيئه بالنفي والاستثناء ، وأنّ القصر في خطابهم لا يصرار إليه إلا لتصحيح خطأ وقع فيه

المخاطب .

وأنّ أكثر أدوات الاستفهام ورودها هي الهمزة ومرد ذلك إلى مرونتها .

وأنّ مقامات الدعوة قد اقتضت كثرة مجيء فعل الأمر وتابعه ومرد ذلك إلى مقامات الدعوة التي تقتضي المعاودة والإصرار

والإلحاح لمواجهة عناد الأتوام وإصرارهم على الشرك ورفض الدعوة .

والحمد لله رب العالمين . . .

عيد كلية اللغة العربية

المشرف

الطالب

عندنا
١٤٦١هـ
أ.د. حسن بن محمد باجودة

المشرف
أ.د. عبداللطيف خليف

الطالب
عبدالصمد عبد الله محمد

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله المنعم المتفضل ، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم الى يوم الدين ، وبعد :

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لا يشكر الناس لا يشكر الله" ، وعليه فاني أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأستاذي الجليل الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف الذي تعلمت منه الكثير الكثير قبل أن آخذ من علمه الغزير وخلقه الكريم وملاحظاته الدقيقة وتوجيهاته الصائبة الشيء الكثير في جو مفعم بجرية الرأي والاستقلال في التفكير .. وقد استفدت من علمه أيما استفادة وأخذت من وقته مايفوق العادة ، فاليه أقدم خالص شكرى ووافر امتنانى ، والى الله أضرع أن ينسأ في عمره ويكسيه حلل الصحة والعافية .

وأتقدم بجزيل الشكر والعرفان بالجميل الى معالى مدير جامعة أم القرى الدكتور راشد الراجح ، تلك الجامعة الفتية التي هيأت لطلابها سبل التحصيل العلمى ، كما أتقدم بالشكر والتقدير الى ادارة كلية اللغة العربية ممثلة في عميدها السابق الدكتور محمد بن مريسي الحارثى وخلفه الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة ، ووكيلها السابق الدكتور صالح جمال بدوى وخلفه الدكتور سعد الغامدى ، ورئيس قسم الدراسات العليا العربية الأستاذ الدكتور سليمان بن ابراهيم العايد الذى لقيت منه كل تشجيع وعناية ، والذى لا يألو جهدا في توفير كل التسهيلات الممكنة لطلبة الكلية ، كما أشكر مدير ادارة الكلية الأخ العزيز محمد زين العارفين جاها ومن معه من الموظفين . وأشكر المشرفين على معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامى بالجامعة ومنسوبى المكتبة المركزية .

ولأنسى ذوى الفضل على وخاصة الأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى الذى حبب الى علم البلاغة وشجعنى على تحصيله فجزاه الله عنى كل خير .

كما لأنسى زميلى العزيزين الدكتور دخيل الله الصحفى والدكتور يوسف الأنصارى اللذين فتحا لى مكتبتيهما للاستفادة من مراجعتهما فلهما الشكر والتقدير .

فالى هؤلاء جميعا والى كل من قدم الى يد العون أو المشورة أقدم شكرى وتقديرى ، وأسأل الله العلى القدير أن يجزيهم عنى خير الجزاء والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله المنعم المتفضل ، الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ، الذى أعطى جوامع الكلم وملك نواصى البيان وزمام الحكم وجعلت معجزته القرآن بيانا وتشريعا ، وعلى آله وأصحابه أرباب البيان وفرسان الكلام ومن سار على نهجهم واستن بسنتهم الى يوم الدين . وبعد : فقد وقع اختيارى على موضوع "خطاب الأنبياء فى القرآن الكريم ، خصائصه التركيبية وصوره البيانية" لأتقدم به الى قسم الدراسات العليا العربية فرع الأدب ، وذلك لنيل درجة الدكتوراه فى البلاغة والنقد بهذا الفرع .

وقد دفعنى الى هذا الاختيار عدة عوامل أهمها :

(أ) الرغبة الأكيدة فى المشاركة فى مجال الدراسات القرآنية البلاغية والأدبية ، لشعورى بأن ميدان هذا اللون من الدراسات القرآنية لا يزال فى أمس الحاجة الى مزيد من الجهود والعناية والاهتمام ، اذ لاتزال هناك مجاهيل فى هذا المجال لما تكتشف ، وخاصة مايتعلق من أسلوب القرآن بالنواحي الوجدانية ، فمعين القرآن فى هذا الجانب بحاجة الى جهود الدارسين لتفجر نبعه ليتدفق تدفقا صالحا ، ولكون هذه المجاهيل وتلك المغاليق فيما يتصل باعجاز القرآن باقية بقاء الناس على هذه البسيطة ليكتشف كل جيل مجاهيله بحسب ماأوتى من قدرة واستعداد ومواهب ، مستمدا العون والمدد من الله الكريم المنان مسترشدا بتراث السالفين ومستأنسا بآراء السابقين ، رجوت أن أكون فى عداد خدمة هذا الكتاب المعجز ، فأشارك فى استكشاف مجاهيله واستفتاح مغاليقه بقدر ماأستطيع .

(ج)

(ب) ان الجهود المشكورة التي قام بها علماء البلاغة الأجلاء على ما بها من ثاقب النظر ودقة الفهم وسلامة الذوق وسموه ، ورهافة الحس وصفاء الفطر ، قد استنفدت في بحوث جزئية طابعها تتبع الألوان البلاغية في القرآن للكشف عن جمالها وروعيتها وأسرار نظمها واعجاز بلاغتها ، وبيان سمو منزلتها ، وعلو مكانتها عن غيرها مما في كلام البشر من ألوان البلاغة والبيان ، وقليل من خرج من هذا الاطار .

ولما كان القرآن كتاب دعوة ، وهذه الدعوة لها أساس فكري يمثل العقيدة ، وتشريع عملي يمثل ضوابط السلوك ويحدد الحقوق والواجبات ، كان لابد من داعية يؤمن بهذه العقيدة وهذا التشريع ايمانا يملك عليه نفسه ويحجم عليه من جميع أقطاره ، بحيث يخاطب كيانه كله ويملاً حسه ويدفعه الى نقل ما يؤمن به الى الآخرين ويدعوهم الى الايمان به مستمدا من حرارة ايمانه والتهاب مشاعره ما يعينه على عرض رسالته وجميع أفكاره في أسلوب أخذ يسير أعماق قلوب المخاطبين ويتغلغل الى مغاليق عقولهم ويلامس وجدانهم ليستقر في نفوسهم ويتمكن منهم تمكنه من صاحبه أو قريبا من ذلك ، ليصبح ايمانا راسخا ويقينا صادقا يوجه سلوك أصحابه ويحدد اتجاههم ويوجههم في كل ما يأتون ويذرون ، ويصبغ حياتهم بصبغته الخاصة .

وقد كان الأنبياء والرسل على هذه الشاكلة ، ويظهر ذلك جليا واضحا في مخاطباتهم المختلفة في القرآن الكريم ، وهو الجانب الذي لم يحظ بعناية كبيرة من الدارسين .

وقد رأيت أن أدلى بدلوى في هذا المجال وأمضى في طريقه مستعينا بالله مستنيرا بتراث علمائنا السلف الأفاضل ، متوكلا على الله ، مستلهما منه الرشد والصواب طالبا منه الوقاية من الزلل والخطل ، راجيا منه العصمة من الزيغ وفساد الرأي والقول عليه بما ليس بحق ، مستمدا منه القوة والصبر والعزم على العمل رغم وعورة الطريق وقلة الزاد ، مستأنسا بقوله تعالى : {واتقوا الله ويعلمكم الله} .

(د)

(ج) وإيماننا منى بقلة جدوى النظرة الجزئية الى مايتضمنه القرآن الكريم من ألوان البلاغة ، ولابتلك التي تتجه الى نص في موضوع بعيدا عن النصوص التي تتكامل معه في الموضوع ذاته ، ومن ثم تمثل في مجموعها دعوة القرآن الى هذا الموضوع ، ويقينا منى بضرورة النظرة الكلية الشاملة التي يتسع اطارها ويرحب نطاقها ليشمل مجموع النصوص التي تدعو الى غرض واحد وهدف موحد ، وقع اختياري على موضوع "خطاب الأنبياء في القرآن الكريم" لما فيه من وحدة الغرض واتحاد الأهداف مما يفسح المجال لدراسة موازنة بين خطاب الأنبياء وجمع بين الأشباه والنظائر والمؤتلف والمختلف .. وهو المنهج الذى أراه قادرا على الوفاء بحق القرآن الكريم كتاب دعوة ودستور حياة ، وقد وضع أساس هذا النوع من الدراسة سلف هذه الأمة في الكتب المعنية بدراسة متشابه النظم في القرآن الكريم ، وآن للخالفين أن يضيفوا الى تراث السالفين .

وطمعا في تحقيق ماسبق ، قصرت الدراسة على ماكان متصلا من خطاب الأنبياء بالدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق ومواقف الأقسام منها ، تاركا ماعدا ذلك من خطابهم لفرصة تالية اذا أذن الله تبارك وتعالى . وقد اقتضت طبيعة البحث الذى تسير فيه الدراسة فى اتجاهين أحدهما تاريخى والآخر وصفى تحليلى ، أن أقسم الرسالة الى باين رئيسين وخاتمة . أما الباب الأول : فيتناول الجانب التاريخى والوصفى التحليلى عن : خطاب الأنبياء ، وانقسم هذا الباب فصلين :

يتناول الفصل الأول منه "دعوة الأنبياء الى التوحيد ومكارم الأخلاق" .

معالجا أساليب الأنبياء ووسائلهم فى الدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق مع موازنة مايتكرر من خطابهم فى ذلك .

(ه)

ويتناول الفصل الثاني منه "مواقف الأقسام من دعوة الأنبياء" .
معالجا أساليب الأقسام في رفضهم وتكذيبهم لدعوة الأنبياء مع موازنة
ما يتكرر من هذه المواقف المتعنتة .
أما الباب الثاني ، فيتناول "الخصائص التركيبية والصور البيانية في
خطاب الأنبياء" .

ويقع هذا الباب في فصلين كذلك :
يتناول الفصل الأول منه "مسائل علم المعاني الواردة في خطاب
الأنبياء" .

معالجا مسائل التقديم والايجاز والقصر والاستفهام والأمر والنهي
والفصل والوصل .

ويتناول الفصل الثاني منه "مسائل علم البيان الواردة في خطاب
الأنبياء" .

معالجا مسائل التشبيه والمجاز العقلي والمرسل والاستعارة والكناية
والتعريض .

ثم ينتهى البحث بخاتمة أسجل فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .
والحمد لله في الأولى والآخرة .

(١)

الباب الأول

خطاب الأنبياء

الفصل الأول : الدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق .

الفصل الثانى : مواقف الأقسام من دعوة الأنبياء .

(٢)

الفصل الأول

الدعوة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق

دعوة نوح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

أعرض هنا دعوة نوح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق في ست سور من القرآن هي : الأعراف ، ويونس ، وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، ونوح . وسأرتبها حسب النزول حتى يكون هذا الترتيب بمثابة دليل كاشف يبين لنا مضامين الدعوة وأحوالها وما يعتورها من لين مرة ومخاشنة مرة ، ومن بسط مرة ومن ايجاز مرة ، وماتكرر من معان وما أضيف الى آخر ما يكشف عنه هذا الترتيب ، وسأتبع كل سورة باشارات مختصرة تاركاً البحث المستفيض لنهاية العرض حيث تكون حقائق الموقف قد اكتملت .

تبدأ دعوة نوح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق في معرض قصته في سورة الأعراف عند قوله تعالى : { لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } الأعراف : ٥٩

وتدور سورة الأعراف حول "الانذار" وترمى الى مقاصد أهمها ، تقرير رسالة الاسلام وبيان أصوله وهي توحيد الله في العبادة والتشريع وتقرير البعث والجزاء وتقرير الوحي والرسالة بوجه عام ، وتقرير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بوجه خاص ، وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت من أجلها جميع الرسالات السماوية ، وفي سبيل تحقيق هذه المقاصد والأهداف اتخذت السورة الانذار والتخويف من العذاب والنقم وسوء العاقبة ثم التذكير بالنعم ولفت الأنظار الى آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق اطارا لها ، الا أن جو الانذار هو الغالب على السورة اذ لا تكاد تخطئه العين من بداية السورة الى نهايتها حتى حين يكون الحديث دائراً حول التذكير بنعم الله العميمة وآلائه الجسيمة ، وان كان الانذار ساعتئذ تخف حدته حيث يكون مشرباً بنوع من اللين والاستمالة كما نجد في دعوة نوح الى التوحيد ومكارم الأخلاق في هذه السورة .

على أن قصص الأنبياء في هذه السورة سيقى لتحقىق الانذار الذى ترمى اليه السورة ، وقد جاءت قصة نوح فيها بعد الحديث عن الكتاب الذى فصله الله على علم وذكر فيه الرسل وخلق السموات والأرض والاستواء على العرش وتسخير الملك ومظاهر القدرة ومشاهد القيامة ، ثم الأمر لعباده بدعائه سبحانه تضرعا وخفية ، ثم ذكر حكمة جامعة كانت باب الدخول المباشر على هذه القصة وهى قوله تعالى : {والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون} .
الأعراف: ٥٨

وكأن الملاينة فى دعوة نوح هنا انما هى ناظرة الى اقتراب الحق من خلقه فى الآيات السابقة ، {ان ربكم الذى خلق السموات والأرض ...} وأعظم اقتراب من الله لخلقهم حين يقول لهم {ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين} ومادام ربكم فهو يعطىكم ماتطلبون ويكون هذا بعد قوله : {ولاتفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمت الله قريب من المحسنين} . وأحسب أن ملاينة نوح عليه السلام انما هى منبثقة من سياق السورة فى هذه الآية الكريمة {وادعوه خوفا وطمعا ان رحمت الله قريب من المحسنين} فقد جاء نوح بالخوف والطمع ، حيث اتسمت دعوته فى هذه السورة بطابع اللين والاستمالة والنصح ، فهو يستميلهم بأواصر القرى التى تحتم عليه الحرص الشديد على ما يصلحهم والخوف عليهم مما يهلكهم ، وقد حمله ذلك على تأكيد خوفه عليهم مغبة عدم الاستجابة لدعوته والتمادى فى الشرك والضلال مما يستوجب العذاب العظيم فى الدنيا والآخرة . انه يدعوهم الى توحيد الله وينذرهم عذابه فى اطار المحبة التى عبر عنها باضافة القوم اليه "ياقوم" وتأكيد الخوف عليهم "انى أخاف عليكم" تماما كمن يحس بالهلع اذا انطلق من يجب نحو هاوية الهلاك .

والأمر فى قوله : {اعبدوا الله} للارشاد ، وقصر الألوهية على الله فى قوله : {مالكم من اله غيره} قصر صفة على الموصوف قصر حقيقيا ،

وفصلت جملة {مالكم من اله غيره} لأنها بيان أو تعليل للعبادة التي أمرهم بها أو استئناف بياني للأمر بالاقلاع عن عبادة غير الله (١).

وفصلت جملة "انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" لكونها تعليلاً لمضمون {مالكم من اله غيره} كأنه قيل اتركوا عبادة غير الله خوفاً من عذاب يوم عظيم أو مستأنفة ثانية بعد جملة اعبدوا الله ، لقصد الارهاب والانذار .

أما دعوة نوح في سورة يونس فقد أخذت منحى آخر اقتضاه السياق وأهداف السورة ومقاصدها حيث لم يصرح فيها بدعوته الى التوحيد بصورة مباشرة كما سبق ، وإنما كانت الدعوة الى التوحيد فيها عن طريق بيان صفات القدرة والكمال المطلق الثابتة لله وحده مقرونة بتحدى الآلهة المزعومة وأنها على النقيض من ذلك ، وقد جاءت قصة نوح في هذه السورة بعد ذكر الكتاب وحكمة ارسال البشر رسلا الى الناس ثم الحديث عن مظاهر قدرة الله الغالبة فدلائل وجوده ووحدانيته ثم تجريد الآلهة المزعومة من أى ضرر أو نفع واثبات صفات القهر والاحاطة لله وتحقيق الأمن والسرور لأولياءه والبشرى لهم في الدنيا والآخرة وان العزة كلها لله وكل شىء في الوجود يخضع لقهره وسلطانه ، وأن المكذبين لا يفلحون ولا يفلتون من عذاب الله ، ثم جاءت قصة نوح لتؤكد المعانى السابقة وهى قدرة الله الغالبة وكماله المطلق وعجز الآلهة المزعومة وأن العزة والغلبة والأمن لأولياء الله في الدنيا والآخرة وأن المكذبين لا يفلتون من عذاب الله ولا يعجزون .. قال تعالى :

{واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون . فان توليتم فما سألتكم من أجر

(١) راجع التحرير والتنوير ١٨٩/٨ .

ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين} . يونس : ٧١-٧٣

ونلاحظ هنا أن الحلقة التى تعرض هنا من قصة نوح هى الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدى الأخير بعد الانذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل .. لأن الهدف هو ابراز التحدى والاستعانة بالله وحده ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة كأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وهلاك المكذبين لنوح عليه السلام وهم كثرة وقوة ككفار قريش ، وفى ذلك تسلية وتشجيع للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من القلة المؤمنة ، كما أن فيه انذارا لكفار قريش وهم كثرة وقوة بعاقبة كعاقبة قوم نوح الذين لم تنفعهم آلهتهم وكثرتهم وقوتهم ساعة العذاب والهلاك لما أصروا على الكفر والتكذيب .. ولذا اختصر السياق هنا تفصيلات القصة الى حلقة واحدة ، واختصر تفصيلات الحلقة الواحدة الى نتائجها الأخيرة لأن هذا مقتضى السياق فى هذا الموضوع (١).

على أنا نلاحظ نفى الطمع فيما بأيدي الناس مقابل دعوتهم الى الهداية حيث يقول :

{فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله} مظهرا بذلك عدم اكترائه بموقفهم الراض حيث ان ذلك لايفوت عليه مصلحة ولايجلب عليه مضرة فسيان عنده فى أجره عند الله ايمانهم أو توليهم .
على أن فى افتتاحه خطاب قومه بالنداء ايذانا بأهمية ماسيلقى عليهم عن طريق طلب الاقبال المعنوى توجيهها لأذهانهم الى فهم ماسيقوله واشعارا بأنهم قد ابتعدوا عنه بكفرهم ، وكان النداء عليهم بلفظ "قوم" دون ماعداه من الألفاظ ، لما فيه من تعطيْفهم واستشارة شفقتهم .
وفى قوله "مقامى" كناية عن شؤنه وأحواله فيهم ، وعطف "تذكيرى" على "مقامى" من عطف الخاص على العام اذ أن التذكير بآيات الله من جملة

(١) راجع فى ظلال القرآن م ٣ ، ١١/١٨١٠ بتصرف .

أحواله عليه السلام وخص بالذكر لأنه أشق أحواله على القوم . وفي تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله {فعلى الله توكلت} قصر توكله على الله لا يجاوزه الى غيره وهو تأكيد اقتضاه المقام لأن المقام مقام انكار ووصلت جملة {فعلى الله توكلت} بالفاء لأنها جواب الشرط في قوله : {إن كان كبير عليكم مقامى} ووصلت جملة {فأجمعوا أمركم ...} بالفاء لكونها مفرعة على جملة الجواب ، وقيل : {فأجمعوا أمركم} عطف على الجواب والفاء لترتيب الأمر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أو هو الجواب وماسبق جملة معترضة (١).

واقامة جملة {فعلى الله توكلت} مقام الجزاء من اطلاق السبب الذى هو التوكل على المسبب الذى هو انتفاء الخوف مجازا مرسلا ، اعلاما لهم بعظمة الله وحقارتهم بسبب أنهم أعرضوا عن الآيات وهم يعرفونها بما دل عليه التعبير بالتذكير ، فدل ذلك على عنادهم بالباطل " (٢).

وعطفت جملة {ثم لا يكن أمركم عليكم غمة} بثم التى تفيد التراخى فى الزمان والرتبة أى لا يكن أمركم بعد التأبى وطول زمان المجاوزة فى المشاورة خفيا يستتر عليكم شىء منه بسبب ستر ذلك عنى لئلا أسعى فى معارضتكم ، فلا تفعلوا ذلك بل جاهرونى به مجاهرة فانه لامعارضة لى بغير الله الذى يستوى عنده السر والعلانية ، والتعبير بثم اشارة الى التأبى واتقان الأمر للأمان من معارضته بشىء من حول منه أو قوة (٣).

ووصلت جملة {ثم اقضوا الى ...} بثم للتراخى فى الرتبة ، فان رتبة انفاذ الرأى بما يزمعون عليه من أذاه أقوى من تدبير ذلك ومن رتبة اجماع الرأى عليه فهو ارتقاء من الشىء الى أعلى منه وهذا سر العطف بثم التى تفيد التراخى فى الرتبة فى عطفها على الجمل (٤).

(١) ارشاد العقل السليم ٦٩١/٢ .

(٢) نظم الدر ١٦٣/١١ ، م ٩ .

(٣) راجع المصدر السابق .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٤٠/١١ .

وعظفت جملتا الشرط وجوابه {فان توليتم فما سألتكم من أجر...} بالفاء لأنهما مفرعتان على الجملتين السابقتين وفيهما قطع لوجود أى مسوغ لهذا التولى أو سبب له ، فما عندى ماينفركم عنى وتتهمونى لأجله من طمع فى أموالكم أو طلب أجر على عظتكم .

وفصلت جملة {ان أجرى الا على الله} لأنها تأكيد أو تعليل لجملة {فما سألتكم من أجر} التى فيها تعميم لنفى تطلبه أجرا ما على دعوتهم وفى جملة القصر تأكيد لما قبلها وتعليل لاستغنائاه عليه السلام عن ذلك بما عند الله الذى لا يخلفه وعده ، ولأن المقام مقام انكار جىء بجملة القصر التى فيها تأكيدان ، تأكيد بالنفى وآخر بالاثبات .

وجملة {وأمرت أن أكون من المسلمين} تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، أى وأمرت أن أكون منتظما فى عداد المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا ، أو من المنقادين لحكمه تعالى لأخالف أمره ولا أرجو غيره ، وفيها على المعنيين من تأكيد ما تقدم وتقرير مضمونه ما لا يخفى (١).

ونلاحظ هنا وصل الجملتين برغم وجود دواعى الفصل لتآخى المعانى الداخلية للجمل وتضامنها .

أما دعوة نوح الى التوحيد ومكارم الأخلاق فى سورة هود فتتسم بلهجة الانذار والتهديد والعنف فى المخاشنة حيث نجد فى مدخل القصة تغليظا شديدا وكأنه ناظر الى ماسبق القصة فى بداية السورة من تغليظ ، فقد ذكر الكتاب ولكن ذكر معه موقف كفار قريش منه ، هذا الموقف الذى ضاق به صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم {فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، انما أنت نذير والله على كل شىء وكيل} . هود : ١٢

(١) انظر روح المعانى ١١/١٥٩ ، م ٦ .

ويبلغ الغضب قمته والتهديد ذروته في قوله تعالى في تصوير الموقف المعاند الذى يستوجب الغضب والعقاب : {ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلاتك فى مرية منه انه الحق من ربك} . هود : ١٧

وقوله : {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا...} الى قوله تعالى : {أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وماكان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون . لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} هود : ٢٠-٢٣ ، ثم انتقل الكلام الى قصة نوح عليه السلام بعد تمهيد بقوله : {مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون} . هود : ٢٤ ، وهذا المدخل مغاير تماما لما مضى فى سورة الأعراف ، ولهذا بادأ نوح عليه السلام قومه بقوله : {انى لكم نذير مبين} وقد جاءت قصة نوح منسجمة مع مقاصد السورة وأهدافها التى تتمثل فى عرضها حقائق العقيدة من خلال تاريخ مواكب الرسل وهى تحمل مشاعل النور والهداية الى البشرية وقصتها فى مواجهة الجاهلين بحقائق العقيدة ومواقف الرسل صلوات الله عليهم جميعا وهم يتلقون الاعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء والتهديد والايذاء بالصبر والثقة بما معهم من الحق ، وبأن نصر الله لاحالة آت وعقابه الشديد الذى لاشك لاحق بالمكذبين .. كل ذلك تسلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم فيما يلقى من قريش وصناديدها من التعنت والأذية والسخرية والاستهزاء الى غير ذلك ، ولهذا الغرض نجد فى قصة نوح هنا تطويلا وبسطا لانكاد نجدهما فى غير هذه السورة ، كما نجد تشابها أكيدا فى المواقف بين كفار قريش والكفار من قوم نوح عليه السلام فى طريقة الاعراض والتفكير ، من مثل قوله تعالى : {فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك...} وهو نفس ما نلمسه من تفكير قوم نوح عندما أجابهم بقوله {ولأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك...} .

وفي السخرية والاستهزاء والتحدى في مثل قول كفار قريش استعجالا للعذاب {مايحبسه} ، وهو كقول قوم نوح {فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} الى غير ذلك من وجوه التشابه التي لا تخفى على الناظر في السورة .. ولهذا كله اشتدت لهجة المخاشنة في خطاب نوح لقومه في هذه السورة حيث بادأهم نوح بالترهيب كما قال تعالى : {ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم} . هود : ٢٦-٢٥

فدعوته هنا مكونة من أربع جمل تواترت هكذا أرسلنا نوحا .. ثم استؤنفت بجملة حالية {انى لكم نذير مبين} أى قائلًا {انى لكم نذير مبين} بكسر ان على ارادة القول أى قائلًا أو فقال وبالفتح على اضمار حرف الجر أى متلبسا بذلك الكلام . ثم استؤنفت بجملة أخرى {ألا تعبدوا الا الله} بدل من قوله {انى لكم نذير مبين} أو تفسيرية لجملة أرسلنا لأن الارسال فيه معنى القول دون حروفه كما يجوز أن تكون مفسرة لجملة انى لكم نذير مبين لما في "نذير" من معنى القول وهذا سر الفصل في الجملة ، ثم استؤنفت بجملة رابعة تعليلية للانذار ، فالموجب النهى عن عبادة غير الله ، وفي وصف اليوم "باليم" اسناد مجازى ، فاذا كان اليوم مؤلما فما الظن بما فيه من العذاب؟ (١)

ونلاحظ مخاشنة الخطاب هنا بطى ندائه القوم المشعر بالتلطف والاستمالة والاستعطاف ، وفي وصف وقع العذاب على المعذبين حيث يصف هنا احساس المعذب به ويذكر ألمه ووقعه وفي ذلك مزيد من التخويف ، وهذا مناسب لطى جملة {فقال يا قوم} وانتقال الكلام من خير الارسال الى مشهد نوح مباشرة وهو ينذر قومه {انى لكم نذير مبين} من ماذا تنذر؟ من عذاب أليم .. وهذا غير ما فى الأعراف التى وفّت الكلام وأشبعته فذكرت الجملة {فقال

(١) راجع : الكشف ٢/٢٦٤ ، ارشاد العقل السليم ٣/٣٠ .

ياقوم اعبدوا الله ... { ثم قال : {انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} فذكر هول اليوم ولم يذكر احساس من يلامسهم هذا العذاب وهو الألم وهذه وحدها فارقة تربط آية هود بحالات الغضب في السورة التي شبيبت من غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر .

ونوح عليه السلام في هذه السورة يظهر للقوم وظيفته الأساسية قبل مضمون دعوته وهى الانذار ، فهو نذير مبين يخوفهم العاقبة الوخيمة لاصرارهم على الكفر والعناد ، ورغم هذا الانذار فهو لم يزل مشفقاً عليهم من عذاب الله الأليم .. ومن الجدير بالملاحظة أن نوحاً حدد وظيفته هنا بأنها الانذار .

أما دعوته في سورة "المؤمنون" فقد زواج فيها بين الاستعطاف والتهديد وتدور هذه السورة حول دلائل الايمان في الأنفس والآفاق ، وتتناول حقيقة الايمان كما عرضها موكب رسل الله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، من لدن نوح عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف واجههم الجاهلون بما أثاروا حول الدعوة والداعية من شبهات وأباطيل وكيف وقفوا حجر عثرة في طريق الدعوة الى الله حتى استنصر الرسل ربهم فأهلك المكذبين ونجى المؤمنين .

وقد جاءت قصة نوح عليه السلام متناسقة في منظومة أهداف السورة فمن آيات الوحداية في الأنفس النعم العميمة التي أغدقها الله على خلقه ورحمته الواسعة التي شملهم بها ، ومن جملتها ارسال الرسل اليهم يبينون لهم أسباب الفلاح ويحذرونهم سبل الهلاك ، وأول هؤلاء الرسل الكرام نوح عليه السلام الذى بعثه الله الى قومه فدعاهم الى التوحيد فلم يستجيبوا له بحجة بشريته ، وأنه يريد التفضل فيما يدعيه من الرسالة اذ أنها لا تحق لبشر وإنما هى تجدر بملك . وأنه ادعى ما ادعاه بدافع الجنون الذى ألم به ، على أن مضمون دعوة نوح عليه السلام يتفق مع مضمون دعوات الأنبياء جميعاً في السورة ، كما أن شبهات قومه تتفق مع شبهات أقوام الرسل جميعاً في السورة .. قال تعالى :

{ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره
أفلا تتقون} المؤمنون : ٢٣

وقد تكونت دعوته في هذه السورة من ثلاث جمل تتابعت على النحو
التالى :

{أرسلنا نوحا الى قومه} ثم عطفت بالفاء جملة {فقال يا قوم} لافادة
التعقيب ثم فرع بجملة انشائية بنيت على استفهام فى شوب من المعاتبه
والتوبيخ والانكار ، بمعنى ماكان ينبغي أن تدعوا أمر التقوى . وقد دخلت
همزة الاستفهام على الفاء العاطفة {أفلا تتقون} وهذا يعنى أن ثمة كلاما
مخوفا قال فيه المفسرون :

"والهمزة لانكار الواقع واستقباحه ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه
المقام ، أى تعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى : {مالكم من اله غيره}
فلاتتقون عذابه بسبب اشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا ايجاد
الله تعالى اياه فضلا عن استحقاقه العبادة"^(١).

ونلاحظ هنا موافقة الجملة التمهيدية وماترتب عليها بما فى سورة
الأعراف مع اختلاف هائل فى التعقيب حيث كان مبنى جملة التعقيب فى
الأعراف على التوكيد والاستئناف {انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} ليؤكد
حرصه عليهم وأنه يعلم من أمر الانكار مالا يعلمون ، فوراء الانكار ورفض
عبادة الله وحده الذى ليس لكم اله غيره عذاب عظيم ، ومثلها فى البناء
تعقيب سورة هود فى دعوة نوح عليه السلام : {ألا تعبدوا الا الله انى أخاف
عليكم عذاب يوم أليم} فوراء عدم الاستجابة والانقياد لله وحده عذاب أليم
وهو المشار اليه فى سورة المؤمنون التى نزلت بعد هود فقد قال أولا عذاب
يوم عظيم فى الأعراف ، ثم قال عذاب يوم أليم فى هود ، ثم قال ثالثا أفلا
تتقون ، أعنى هذا العذاب الأليم الذى ذكرت به .

(١) ارشاد العقل السليم ٥٧/٤ .

"فألان لهم أولا المقال من حيث انه أوهم أن العظم الموصوف به اليوم لاسبب العذاب بل لأمر آخر ، فيصير العذاب مطلقا يتناول أى عذاب كان ولو قل ، فلما تمادى تكذيبهم بين لهم أن عظمه انما هو من جهة ايلام العذاب الواقع فيه ، فلما لجوا فى عتوهم قال لهم قول القادر اذا هدد عند مخالفة غيره له : ألا تفعل ما أقول لك؟ أى متى خالفت بعد هذا عاجلتك بالعقاب وأنت تعرف قدرتي" (١).

ومن الجدير بالملاحظة - فيما سبق - أن دعوة نوح عليه السلام الى التوحيد كما حكاها القرآن الكريم كانت بتعبيرات مباشرة ومحددة باستثناء سورة يونس {اعبدوا الله مالكم من اله غيره} ألا تعبدوا الا الله ، فهى واضحة وضوح الحقيقة الكبرى التى يدعو اليها وهى عبادة الله وحده دون شريك ، لأنه هو الاله وهو الرب وغيره مربوب له ، وقوله {مالكم من اله غيره} لتعليل للأمر بعبادة الله وحده ، واذا كان الأمر مشفوعا بعلته والسبب الداعى اليه كان ذلك أدعى الى قبوله والمبادرة الى امثاله وهذا سر الفصل فى الجملة .

أما أسلوب دعوة نوح عليه السلام فى سورة "الشعراء" فيختلف اختلافا كبيرا عما هو فى السور السابقة ، فليس فيها هذا النسق الغالب على دعوة نوح عليه السلام {ولقد أرسلنا نوحا ...} الذى وجدناه فى كل من سورة الأعراف وهود والمؤمنون وانما بدأت القصة بنهايتها {كذبت قوم نوح المرسلين} أعنى لا ذكر للارسال ، وقول نوح لم يكن فى أنف الكلام كما كان هناك وانما بدأت هنا بالنتيجة والاعلام بالموقف الأخير للقوم وهو التكذيب وعدم الايمان ، ثم استرجعت الزمن فكأنها أدارت الأحداث من بدايتها بعدما ذكرت آخرها وكان هذا الاسترجاع بواسطة هذه الكلمة الموجزة "اذ" قال لهم أخوهم " ، كما يلاحظ أن ذكر قصة نوح فى الشعراء رجعة الى الوراء وكأن ترتيب الأنبياء فيها ترتيب عكس الزمن حيث بدأ بالمتأخر موسى عليه

السلام ، ثم بالمتقدم ابراهيم عليه السلام ، ثم بأبى البشر الثانى نوح عليه السلام ، وهكذا نجد هذه المناسبة اللطيفة فى القصة نفسها ، حيث بدأت بالتأخر {كذبت قوم نوح المرسلين} ، ثم رجعت الى المتقدم {اذ قال لهم أخوهم نوح} ، ثم ان خطاب نوح هنا مختلف أيضا {انى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون} ، وقد بدأ كلامه بما ختم به كلامه فى سورة المؤمنون هناك قال : {اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون} ، وهنا أول كلامه {اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون} ، ثم رجع بعد هذا العرض {ألا تتقون} ليحدثهم عن رسالته وكان قد سبق الحديث عنها فى السور السابقة لأن هذه السورة فى ترتيب النزول متأخرة عن السور السابقة . قال تعالى :

{كذبت قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون} . الشعراء : ١٠٥-١١٠

فدعوته هنا تبدأ بالتهديد المشار اليه بقوله {ألا تتقون} مبينا صفته فى التبليغ عن ربه بأنه لهم رسول أمين وقدم الجار والمجرور للاهتمام أى أمين على الوحي لأزيد ولأنقص لاشتهارى بينكم بصفة الأمانة وعدم الخيانة ، ومن شأن من كان أمينا فى نقله أن يصدق فيما يقول ويتبع فيما يأمر به ، وأكد جملة {انى لكم} لأن المقام مقام توقع حدوث انكار من القوم ، وفصلت هذه الجملة لأنها تعليل للانكار أو التحضيض فى قوله : ألا تتقون ، ووصلت جملة {فاتقوا الله وأطيعون} بالفاء لترتيب مابعداها على ما قبلها وهى أمانته عليه السلام ، وجملة {وما أسألكم عليه من أجر} عطف على جملة {انى لكم رسول أمين} أى علمتم أنى أمين لكم وتعلمون أنى لا أطلب من دعوتكم نفعا لنفسى {ان أجرى الا على رب العالمين} تعليل لنفى الطمع فيما بأيديهم أو لسؤاله الأجر على دعوته ، وهذا سر الفصل فى الجملة . والفاء فى قوله : {فاتقوا الله وأطيعون} لترتيب مابعداها على ما قبلها من تزهره عليه السلام عن الطمع وتكرير الجملة لزيادة التأكيد والتنبيه على أن

كلا منهما مستقل في ايجاب التقوى والطاعة فكيف اذا اجتمعا (١).
على أنا نلاحظ في افتتاح القصة في سورة الشعراء وحدة الرسل وأن
من كذب رسولا منهم فكأنما كذب المرسلين جميعا لأنهم جميعا يأخذون من
مشكاة واحدة ويدعون الى رب واحد .

وإذا كانت سورة المؤمنون لم تصرح بالمتقى حيث يقول نوح عليه
السلام {أفلا تتقون} ، والمعنى والله أعلم بمراده - أتغافلتم فلاتخافون عقاب
الله ان لم تؤمنوا - فان سورة الشعراء قد جمعت بين التلميح والتصريح فقد
قال نوح فيها : {ألا تتقون} ثم حدد المتقى بعد ذلك بقوله {فاتقوا الله
وأطيعون} ، والمراد على ما يبدو عذابه ، ونلاحظ هنا تكرار الأمر بالتقوى
وهو تهديد أيضا .

ثم يلفت نوح عليه السلام النظر الى حقيقة غائبة عن أذهان القوم
وهى ابتغاؤه الأجر والثواب في الدعوة من مالك الأشياء كلها دون غيره ،
ولعله يرد على شبهة قد حاكت في أنفسهم أنه يهدف الى غرض أو مصلحة
ديوية أيا كانت وراء دعوته اياهم . والشأن فيمن لا يطلب أجرا على دعوته
الا من الله أن يكون مخلصا في دعوته صادقا فيما يبلغ عن ربه .. وتلك
قضية نسمعها من جميع الرسل وهى جديرة بالعناية ومقياس صدق الداعى
وبرهان على أن دعوته تتصل بالقلب والوجدان .

أما دعوة نوح عليه السلام في سورة نوح ، فتطالعنا للنظرة الأولى
خمس مقاطع ، منها ما هو مختصر جدا الا أنه يمثل مسلكا في بناء السورة
ومنعظفا في سياق معانيها ، الأول خير الحق سبحانه وتعالى عن ارسال نوح
نذيرا لقومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، والثاني امتثال نوح لأمر ربه
فخطابه لقومه من الآية الثانية الى الآية الرابعة ، مضمونه الدعوة الى عبادة
الله وتقواه وطاعة الرسول . ثم ذكر المرجو وراء هذه التقوى والطاعة
وهو المغفرة وتأخير الأجل وعدم نزول عذاب الاستئصال . قال تعالى :

{أنا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال يا قوم انى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى . ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون} . نوح : ١-٤

ويلاحظ أن الدعوة هنا ملخص دعوات سابقة لنوح عليه السلام فقوله : {اعبدوا الله} هو ماجاء في الأعراف ، وقوله : {واتقوه} هو ماجاء في المؤمنون من الآية الخاتمة {أفلا تتقون} ، وقوله : {وأطيعون} هو ماجاء في سورة الشعراء {فاتقوا الله وأطيعون} .. ولعل السر وراء هذه الاحاطة بالوسائل السابقة هو أن هذه السورة بمثابة الحساب الأخير الذى يقدمه نوح عليه السلام الى ربه فى صورة تقرير شامل ودقيق .

ثم ينتقل الكلام انتقالا ثالثا ، يخاطب فيه نوح ربه ويذكر بين يديه - وهو سبحانه أعلم - قصة الدعوة مع هؤلاء القوم العتاة ، وفى ذلك شكوى الانسان الذى تتمثل فيه معانى البشرية من ضعف وقلة حيلة الى القوى العزيز المدبر القادر القهار .

ونوح اذ يقدم هذه الشكوى ليعلم أن الله أعلم منه بأحوال القوم معه ولكنها نفثة محزون يبين نوح عليه السلام خلالها بلوغ الجهد منه غايته ونفاد مافى يديه من الوسائل دون جدوى وآن لعدالة السماء أن تتدخل لتحسم الموقف المرير الطويل .

وقد بدأ نوح قصة دعوته بمجملات ذكر فيها أحواله مع القوم : {قال رب انى دعوت قومی ليلا ونهارا . فلم يزد هم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا} . (٥-٧) . ويبدأ هنا يدخل فى التفاصيل وأولها جعل الأصابع فى الآذان وأنهم استغشوا ثيابهم ، اصرارا على التكبر والعناد . ثم يكرر الحاحه معهم {ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا .

ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا } .

وفيما سبق ذكر لوسائل نوح عليه السلام وأساليبه في الدعوة مع القوم من لين ومخاشنة وترغيب وترهيب وتذكير بنعم الله المستوجبة لشكر المنعم بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم لفت الأنظار الى الآيات الدالة على الوحدانية في الأنفس والآفاق وعلى كمال الله المطلق في الخلق والتدبير والتربية وخضوع كل شئ لقهره وسلطانه .. ثم انتقل الكلام والقائل في هذه النقلة هو نوح أيضا وهو مخلص لله فيما يشكوه اليه إقال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده الا خسارا . ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا } . (٢٢-٢٤) . فهم قد عصوني واتبعوا صاحب المال والولد ، وأصحاب الدنيا وأعلنوا الاصرار على الكفر والعناد والتمسك الأكيد بالوثنية {وقالوا لاتذرن ...} وكأنه يقدم الأسباب التي انتهت به الى هذا الدعاء {ولاتزد الظالمين الا ضلالا} .

ثم انتقل الكلام نقلة أخرى ترك نوحا وصار مخبرا عن رب نوح عليه السلام بعد سماع كل الذي قاله نوح فجاء قول الحق تبارك وتعالى : {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا} (٢٥) اعلانا بنهاية القوم وعاقبة الاصرار على الكفر والعناد .

ثم انتقل الكلام الى نوح تاركا قومه ومعبرا عن عمق التجربة في نفسه ومظهرها غضبه وسخطه على كل كافر ، سائلا الله أن يطهر الأرض منهم لأنهم موبوءون بالكفر والضلال فيخشى أن ينتقل العدوى منهم الى غيرهم ، كما أنهم - لوباء الكفر الذي بهم - لا يخرج من أصلابهم الا ذرية موبوءة مثلهم .

{وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم
يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا} . (٢٦-٢٧)

ثم دعا نوح دعوة تكريم له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا
وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة التي من نتائجها الانجاء ساعة وقوع العذاب ،
كما دعا على الظالمين بالألا يزيدهم الا هلاكا {رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل
بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا} . نوح : ٢٨ .
هذا ، وقد تعرض نوح عليه السلام من خلال دعوة قومه للساءة
والأذى الذى تمثل فى أمور ، تدل فى مجملها على النقائص الأخلاقية التى
كانت عند القوم والتى كان نوح يدعو الى مقابليها من مكارم الأخلاق بجانب
دعوته الى التوحيد .. وستظهر تلك النقائص لدى القوم جلية عندما نتناول
موقفهم من دعوة نوح عليه السلام بشىء من التفصيل ، على أنى أشير الى
مجملها هنا ، ويتلخص فى :

* اسراف الملاء من قومه فى الطعن والزراية به ، فيقولون بصيغة
التأكيد : {انا لنراك فى ضلال مبين} (الأعراف : ٦) .

* ازدراؤهم لأتباعه واحتقارهم بسبب قلة ذات اليد وخلوهم من
الجاه والرياسة وكونهم من طبقة الصناع وأصحاب الحرف . {وما نراك اتبعك
الا الذين هم أراذلنا} . (هود : ٢٧)

* تكذيبهم نوحا فى دعوى الرسالة احتكاما الى القيم المادية فى موازنة
الأمور {وما لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} . (هود : ٢٧)

* السخرية والاستهزاء بنى الله وأتباعه {ويصنع الفلك وكلما مر عليه
ملا من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون} .
(هود : ٣٨)

وقد تبين لنا فيما سبق من دعوة نوح عليه السلام قومه الى التوحيد
ومكارم الأخلاق استفاده جميع الوسائل والأساليب المتاحة له طمعا فى
استجابتهم وإيمانهم بالله ، فتارة يزاوج بين الأساليب وأخرى يكرر ..

وحيثما زواج بين الأساليب فيمكن القول ان السر في ذلك اختلاف المقامات فلكل مقام مقال ، وحيثما كرر فلا بد من مقتض استلزم التكرار ، كتقرير الأمر وتأكيده ، وقد بدأت دعوة نوح عليه السلام في سورة الأعراف بقوله {قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} . (الأعراف : ٥٩)

وبدأت في سورة هود بقوله : {انى لكم نذير مبين ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم} . (هود : ٢٦) .
وفي سورة المؤمنون بدأت بقوله : {فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون} . (المؤمنون : ٢٣) .

وفي سورة الشعراء بدأت بقوله : {اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين} . (الشعراء : ١٠٦-١٠٧)

وفي سورة نوح بدأت بقوله : {قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون} . (نوح : ٢-٤)
ومن مجموع ماسبق نلاحظ أن النداء كله يتفق في أن نوحا دعا قومه الى التوحيد وحذرهم عاقبة الاصرار على الكفر والعناد .

ورغم وحدة المضمون في جميع النداءات الا أننا نلاحظ اختلافا في العرض كما نلمس بعض الاضافات التى تساعد على تجلية المواقف ، ففي سورة الأعراف مثلا ، نجد انذار نوح قومه يكتنفه جو من اللين في صورة نصح ، فتقوله : {انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} انذار مستأنف جاء تعليلا للأمر بعبادة الله وحده^(١) . وفيه كشف عن المنذر به وهو العذاب وبيان هوله وشدته عن طريق الاسناد المجازى ، فالיום لم يوصف بالعظم الا لتزول العذاب فيه واذا كان اليوم قد وصف بالعظيم لتزول العذاب فيه فما

(١) راجع : الكشاف ٨٩/٢ ، تفسير المنار ٤٣٧/٨ .

بالك بالعذاب نفسه وفيه تهويل للعذاب وتكميل الانذار به (١).
 ونجد مثل ذلك في سورة هود ومع ذلك نلمس فرقا في وصف العذاب
 حيث وصف بالألم ، فالمعنى والله أعلم شديد ألمه وهو هنا بيان أيضا لمدى
 درجة العذاب غير أن فيه معنى احساس من يلامسهم هذا العذاب وهو الألم
 فهو أشد تهويلا وتفظيلا من الوصف بالعظم ، وهذا منظور فيه الى لهجة
 الغضب والمخاشنة التي تتسم بها سورة هود التي شبيت المصطفى عليه الصلاة
 والسلام ... أما سورة الأعراف فقد وصف فيه العذاب بأنه عظيم ليدل على
 عظم الأهوال فيه الى جانب مدى درجة العذاب وبينهما فرق لا يخفى وهو
 يناسب الملاينة التي طبع بها الانذار في السورة ، ولما كان الانذار في سورة
 هود مشوبا بالتهديد ناسبه ذكر احساس المعذب بالعذاب كما ناسبه بيان نوح
 وظيفته بأنها الانذار من أول وهلة {انى لكم نذير مبين} ثم نهى عن عبادة
 غير الله مرهبا بقوله {انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم} ، واذا كان مضمون
 الدعوة في سورة الأعراف بصيغة الأمر لما فيه من ملاينة : {اعبدوا الله} فانه
 في سورة هود جاء بصيغة النهى {ألا تعبدوا الا الله} وهو بالتهديد والمخاشنة
 أليق ، ولعله أيضا ناظر الى قول النبي صلى الله عليه وسلم لكفار قريش
 منذرا ببيان وظيفته من الله فيهم بقوله : {اننى لكم منه نذير وبشير} (هود :
 ٢) ونهيه اياهم عن الشرك بالترهيب {وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم
 كبير} . (هود : ٣) .

وقد ناسب وصف العذاب في سورة الأعراف بالعظم في قول نوح {انى
 أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} ماسبقه من ذكر مشاهد القيامة وأهوال ذلك
 اليوم في آيات من أول سورة الأعراف (٢).

(١) راجع : ارشاد العقل السليم ٣٥٣/٢ ، روح المعاني ١٥٠/٨ .

(٢) راجع : ملاك التأويل ٥١٦/١ ، الآيات : ٤١،٤٠،٣٩،٣٨،٨ .

فلما تقدم من أهوال القيامة ومشاهدها ما لم يتقدم في سورة هود ناسب السياق وصف العذاب بالعظيم ، وناسب وصفه بالأليم في سورة هود لما سبق في أول السورة من ذكر تعنت كفار قريش واستعجالهم نزول العذاب وذكر وعد الله لهم بالنار ومضاعفة العذاب^(١) لأن في وصف العذاب بالألم - كما قلنا - بيانا لمدى احساس المعذب به وهو حالة المتعنت المستعجل بالعذاب أليق وأنسب .

ثم تطالعنا سورة المؤمنون فلانرى فيها تصريحاً بالمهدد به أو المخوف منه فقد قال نوح فيها بعد ذكر مضمون الدعوة : {أفلا تتقون} وهو تهديد - ومعناه - والله أعلم - أجهلتم أو أغفلتم فلا تخافون عقاب الله ان لم تؤمنوا؟ وعندى أن سبب عدم التصريح ربما يرجع الى ما سبق من ذكر مظاهر قدرة الله الغالبة التي تتمثل في الخلق أطوارا والاحياء والاماتة والبعث ، وخلق السموات وانزال المطر لاحياء الأرض الموت لتصبح معطاء بالخيرات العميمة وتسخير الأنعام للناس والحمل على الفلك ، ففى كل ذلك ما يردع العاقل عن الاشرار بالله ويدفعه الى الخوف من بطشه واتقاء غضبه وعذابه لأنه قادر قهار ، أضف الى ذلك أن القصة في المؤمنون جاءت في سياق امتنان وبيان نعمة لا يقتضى الاكثار من ذكر العذاب والهلاك ولذلك اكتفى بالتلميح وقد يكون التلميح في بعض المقامات أبلغ من التصريح .

وتأتى سورة الشعراء لتجمع بين التصريح بالمهدد به والتلميح اليه ، فقد قال نوح ملمحا : {ألا تتقون} ثم حدد المتقى منه بعد ذلك مصرحا فقال {فاتقوا الله وأطيعون} والمراد كما يبدو عقابه بالعذاب وهو انذار في صورة تهديد .

ثم تأتى سورة نوح فنرى هذا التهديد في الأمر بالتقوى ملحوظا عليه شىء جديد هو مجيء التهديد مصرحا فيه بالمتقى منه من أول الأمر وهو الله سبحانه وتعالى والمراد - والله أعلم بمراده - بطشه وعقابه ولكن لا يظهر فيه

(١) راجع : ملك التأويل ٥١٦/١ بتصرف ، والآيات : ٢٠،١٧،٨

مدى درجة العذاب ، ولعل السر راجع الى أن بيان مدى درجة العذاب قد سبق في أمر الله لنوح بانذار قومه حيث يقول : {أنا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم} .

وإذا تذكرنا أننا قلنا ان دعوة نوح عليه السلام في هذه السورة قد اشتملت على جميع أساليبه في السور السابقة عليها وأنها بمثابة تقرير يقدم نوح فيه حسابه الأخير مع قومه واعتذاره الى الله ، ألفينا السر في تشابه نظم بعض آياتها بما ورد في دعوته في السور السابقة .

دعوة هود عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

ويبدأ هود عليه السلام دعوة قومه الى التوحيد ومكارم الأخلاق في سورة الأعراف بقوله تعالى :

{والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون} . (الأعراف : ٦٥)

فهو يدعو قومه بمثل مادعا نوح قومه الى التوحيد مستغلا وشائج القرى التي تربطه بهم والتي تقتضى حرصه الشديد على ماينفعهم وخوفه الشديد عليهم ما يضرهم ويسوءهم - "يا قوم" - خوفا اياهم ومنذرا بعذاب الله وبطشه لمن يشرك به ويعصى أمره في أسلوب انكارى توبيخى ، فقد عقب جوهر دعوته الى التوحيد بجملة انشائية بنيت على استفهام فيه معاتبة وتوبيخ مشيرا بذلك الى أنهم في اصرارهم على الشرك والعناد خارجون عن مقتضى العقل السليم والتفكير الرزين ، ولعله بادرهم بالتخويف الموجز لأن القوم كانوا قريبي عهد بقوم نوح عليه السلام الذين استؤصلوا بعذاب الغرق جزاء كفرهم ، وعقاب تكذيبهم لنبي الله نوح عليه السلام ، فكان عندهم مالو فكروا فيه لرجعوا عن غيهم وضلالهم ، ولكنهم تغافلوا فعصوا الله وأشركوا به مالم يزل به سلطانا . فكان انذار نبي الله هود عليه السلام لهم في بداية الأمر أنسب لقرع آذانهم وتنبيه عقولهم الغافلة فقال اثر دعوتهم الى التوحيد {أفلا تتقون} .

أما دعوته في سورة هود الى التوحيد فتبدأ عند قوله تعالى :

{والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان أنتم
الا مفترون . يا قوم لأسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرني أفلا
تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا
ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين} .

ونجد الأسلوب هنا يتسم بالشدة فى المصارحة بما هم عليه من الشرك
والاصرار على الكفر والعصيان أكثر منه فى سورة الأعراف ، وهذا يتفق مع
ماقلنا من لهجة الغضب والمخاشنة التى تطبع السورة بطابعها الخاص .. فبعد
دعوته الى التوحيد فى تلك الصورة المباشرة الواضحة ، صارحهم بأنهم بكل
تأكيد مفترون على الله الكذب باقتادهم الأوثان شركاء له أو عبادتهم من
دون الله وهو ما أفادته جملة القصر فى قوله {ان أنتم الا مفترون} لأن المقام
مقام توقع الانكار ، ثم وضع لهم تلك الحقيقة الغائبة عن أذهانهم ، ومن
قبل كانت غائبة عن أذهان قوم نوح عليه السلام ، وهى أنه فى دعوته
لا يريد أية مصلحة دنيوية مادية يفرضها على المدعوين لقاء دعوتهم الى الحق
والهداية - وهو ما أكد عليه بالتنكير المفيد للتوكيد "أجرا" فأفاد بذلك
التعميم أى أجراما - وانما يبتغى الأجر على الدعوة من الذى خلقه من
العدم . وفصلت جملة {ان أجرى الا على الذى فطرني} لأن الجملة التى
سبققتها مثار تساؤل للسامع فكأنه قيل : ان كنت لاتسأل أجرا على الدعوة
من المدعوين فمن ذا الذى يؤجرك على هذا العمل الشاق ، فأجاب {ان
أجرى الا على الذى فطرني} ومادامت دعوته خالية من المطامع و متمخضة
لارضاء الله والرغبة فيما عنده فحرى بكل ذى مسكة من العقل أن يقبل
عليها ويؤمن بما تدعو اليه ، وهذا سر الاتيان بجملة انشائية مبنية على
استفهام فيه شوب من التوبيخ والانكار {أفلا تعقلون} اذ تغفلون وتردون
نصيحة من لا يطلب أجرا الا من الله وتعبدون من لا يستطيع أن يخلق ذبابة .
وبعد اظهارة هذه الحقيقة الغائبة التى تبرىء ساحته من كل تهمة بدأ
يدعوهم بأسلوب الترغيب والاستمالة حيث رغبتهم فيما عند الله من

الخيرات التي يطمعون فيها ان هم آمنوا واستغفروا ربهم لشركهم ، فوعدهم بكثرة الأمطار التي انقطعت عنهم والتي تأتي معها كثرة الرزق والزيادة في القوة التي امتازوا بها فكانت سبب بغيهم واستكبارهم في الأرض . قال تعالى {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} . (فصلت : ١٥) فوعدهم هود بوعد الله له - ووعد الحق - أنهم ان استغفروا وداوموا على الايمان ازدادوا قوة الى قوتهم ثم نهاهم عن الاعراض عما يدعو اليه والعودة الى الشرك اصرارا على الاجرام والآثام .

وتطالعنا دعوة هود الى التوحيد في سورة الأحقاف عند قول الحق تبارك وتعالى :

{واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} . (الأحقاف : ٢١)

فهو يدعو قومه الى التوحيد منذرا اياهم عاقبة الاصرار على الشرك والعصيان مؤكدا اشفاقه عليهم - وهم قومه الأعراء عليه - من عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ان هم تادوا في الغى والعناد . {انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} وأكد بان لتوقع حدوث انكار .

ثم تأتي سورة الشعراء لتجمع - في دعوة هود - الوسائل والأساليب السابقة مضافا اليها دعوته اياهم الى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ونبذ سىء الأخلاق وقبيح العادات حيث يقول تعالى :

{كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتهم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمركم بما تعلمون . أمركم بأنعام وبنين وجنات وعيون . انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} . (الشعراء : ١٢٣-١٣٥)

الجديد في هذه السورة أن هودا عليه السلام - وهو يدعو القوم - ذكر لهم صفتيه اللتين تحتمان على كل ذى عقل قبول دعوته ، وهما صفة الرسالة التي تدل على أنه مبلغ عن ربه ، وصفة الأمانة التي تجعله لا ينقص ولا يزيد فيما أمر بتبليغه عن رب العالمين .. وقد أخرج هذا الكلام مخرج التوكيد الذى يناسب المقام المقتضى للتأكيد وزيادة التقرير {انى لكم رسول أمين} ثم نفى عن دعوته دنس الطمع ليقوى تأثيرها فى النفوس ، وذلك بعد انذارهم بالعذاب ان لم يطيعوا أمره ويستجيبوا لدعوته الى التوحيد لأن طاعته هى السبيل الوحيد لهم لاتقاء عذاب الله الأليم ولذلك نجد يكرر طلب الاطاعة هذه .

ثم بدأ فى انكار جملة من المساوىء الأخلاقية فى جمل انشائية بنيت على استفهام انكارى توييخى داعيا لهم فى الوقت نفسه الى مقابلهما من الأخلاق الحميدة الفاضلة من اعتدال فى المعيشة وعدم الاسراف والبطر الذى تمثل فى اتخاذ بناء شاخ لافى النظر مباهاة وفخرا وعبثا ، ثم أنكر عليهم اتخاذ ماخذ الماء أو القصور المشيدة والحصون بغية الخلود فى الدنيا الفانية أو أن حالهم يشبه حال من يخلد اذا اعتبرنا لعل هنا حرفا للتشبيه .. ولعل السبب فى انكار هذه الأشياء عليهم يرجع الى كونها تدل على السرف والخيلاء والبطر والأمل الطويل مع الغفلة عن أن الدنيا دار ممر لادار مقر الأمر الذى يجعل صاحبها لا يعبأ بحقوق الله عليه وواجباته نحو الآخرين ، وقد ساعد ذلك على قساوة قلوبهم وغلظتها اذا سلطوا على من دونهم فى القوة ، اذ تظهر فيهم عندئذ شنشنة الجارية العتاة فى البطش بالآخرين ، وهذا دليل على خلو قلوبهم من الرحمة لبعدهم عن الله .

ثم دعاهم أيضا الى التوحيد عن طريق التذكير بنعم الله التى يتقبلون فيها والتي جبلت النفوس على حب اقتنائها والحرص على هذه النعم التى تتمثل فى كثرة الأموال ووفرة الرزق ونعمة البنين التى تمثل المستند والقوة ، ونعمة البساتين والأنهار التى تمثل منتهى الرخاء والرفاهية .. وقد بسط

القول فى ذلك ففصل بعد الاجمال {أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين} لأن المقام يقتضى البسط فى القول لأنه مقام امتنان .. وهذا الأسلوب الذى تراه من تذكير القوم بما غمرهم الله به من فضله وعمهم به من احسانه وجعلهم أجلاء عظماء فى شئون الحياة ووسائل العمران ، فيه تنبيه الى أنه ماكان ينبغى لمن كرمهم الله ذلك التكريم أن يلوثوا أنفسهم بالمعاصى ويدنسوها بالجرائم ، وهو أسلوب غاية فى البيان والزمام الحجة والبرهان واثارة المشاعر والعواطف ، اذ يشعر الانسان المخاطب به بكرامته وعلو نفسه وكبر منزلته ، ثم يطالبه بحقوق هذه العزة ومطالب تلك الكرامة وماتستلزمه تلك المنزلة ، ويعرفه أن عصيانه لخالقه ومكرمه ورب نعمته هو امتهان للنفس ونزول عن المكان اللائق بها وتعريضها لما يوردها موارد الهلاك العاجل والآجل (١).

وهكذا نجد هودا عليه السلام لم يدخر وسعا فى دعوة قومه الى التوحيد ومكارم الأخلاق حيث اتخذ كل الوسائل والأساليب المتاحة فى دعوتهم الى الهدى والرشاد فزواج فى الأساليب ، بين لين وشدة وترغيب وترهيب ، الى اشفاق فيه استمالة واستعطاف ، الى تكرار يحمل كثيرا من المعانى التى من شأنها أن تحمل القوم على الاستجابة ، ولنميط اللثام على تلك المعانى المكررة لنكشف القناع عما اشتملت عليه من الاضافات راجين من الله العون والسداد والوقاية من الزلل والشطط .

فى سورة الأعراف وردت الدعوة بقوله تعالى على لسان هود :
 {والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره
 أفلاتتقون} .

وفى سورة هود وردت بقوله تعالى :
 {والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره . ان
 أنتم الا مفترون} .

(١) راجع معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم بتصرف ٢٥٨/١ .

وفي سورة الأحقاف وردت دعوة التوحيد على لسان هود على النحو التالي :

{واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} .
فالدعوة في هذه السور الثلاثة ترمى كلها الى مقصد واحد وجوهر واحد هو التوحيد وبتعبيرات واحدة تتفق الا في بعض الاختلافات التي تتفرد بها كل سورة عن أختيها ، ففي سورة الأعراف عقببت الدعوة بقوله {أفلا تتقون} وهو انذار وتخويف لهم بما حدث لقوم نوح قبلهم من عذاب الغرق بالطوفان وكان العهد قريبا والواقعة معروفة ومشهورة لديهم ، فاكتفى هود عليه السلام بتذكيرهم بالتلميح الى هذه الواقعة وكفى به تخويفا وانذارا .. يقول الرازى في تفسير هذه الآية :

"{أفلا تتقون} تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله ولم يطيعوه نزل بهم ذلك العذاب الذى اشتهر خبره فى الدنيا .. فكان قول هود {أفلا تتقون} اشارة الى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة فى الدنيا"^(١) على أن المخوف منه لم يذكر بالتصريح ، ورب تلميح أبلغ من التصريح .
وتفردت آية سورة هود بقوله {ان أنتم الا مفترون} حيث أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة من دون الله افتراء وبهتاناً ، وبذلك تكون الآية هنا أضافت ذمما وتوبيخا مؤكدا بصيغة القصر رعيًا لمقام الانكار بعد الدعوة الى التوحيد على أننا نلاحظ أن دعوة هود عليه السلام الى التوحيد فى سورتي الأعراف وهود ، كانت بصيغة الأمر الموصول بعلته {اعبدوا الله مالكم من اله غيره} فتأتى الأحقاف لتختلف فيها الصيغة فيدعو الى التوحيد فيها بصيغة النهى الموصول بالأمر عن طريق القصر {ألا تعبدوا الا الله} فان النهى عن الشيء انذار عن مضرتة^(٢) .

(١) التفسير الكبير ١٤/١٥٥ .

(٢) راجع روح المعاني ٢٦/٢٥ .

ولعل سر العدول عن صيغة الأمر الى النهى لتأكيد قوله تعالى :
 {واذكر أبا عاد اذا أنذر قومه بالأحقاف} اذ أن النهى بالانذار أنسب -
 والله أعلم - وكأنه قيل : "واذكر زمان انذار هود قومه بما أنذر به الرسل
 قبله وبعده وهو {ألا تعبدوا الا الله} تنبيها على أنه انذار ثابت قديما وحديثا
 اتفقت عليه الرسل عليهم السلام عن آخرهم" (١).

وقد خلت آية الأحقاف من التعليل الذى ذيلت به الدعوة الى
 التوحيد فى سورتي الأعراف وهود وهو قوله {مالكم من اله غيره} غير أنها
 أضافت تعليلا آخر للنهى ناسب مقام الانذار وهو قوله : {انى أخاف عليكم
 عذاب يوم عظيم} أى انى أخاف عليكم ذلك بسبب شرككم ولذلك نهيتكم
 عن الشرك وهو تخويف فى صورة اشفاق حدد فيه المخوف منه صريحا وهو
 العذاب وكشف عن مدى درجته {عذاب يوم عظيم} فالיום كان مهولا باعتبار
 هول مافيه من العذاب .

على أننا نلاحظ أن تكرار الدعوة الى التوحيد بلفظ واحد أو بتعبيرات
 واحدة لدى هود عليه السلام جاء متفقا مع ماكان من نوح عليه السلام مع
 قومه ، وهو ماسنجده كذلك عند بقية الرسل والأنبياء ، وهو ماأشار اليه
 رب العزة فى آية الأحقاف بقوله تعالى : {وقد خلت النذر من بين يديه ومن
 خلفه ألا تعبدوا الا الله} ، فكلهم يقول لقومه : {اعبدوا الله مالكم من اله
 غيره} ، [فهى حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ويتعاقب بها الرسل
 جميعا على مدار التاريخ . فكل رسول يجىء انما يقول هذه الكلمة لقومه
 الذين احتالتهم الشياطين عنها ، ففسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله
 آلهة أخرى - على اختلاف هذه الآلهة فى الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها
 تدور المعركة بين الحق والباطل ، وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها
 وينجى المؤمنين . والسياق القرآنى يوحد الألفاظ التى عبر بها جميع الرسل
 صلوات الله عليهم مع اختلاف لغاتهم .. يوحد حكاية ماقالوه ، ويوحد

ترجمته في نص واحد : {يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره} وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية على مدار التاريخ حتى في صورتها اللفظية ، لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة ، ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويرا حسيا (ومعنويا) .. ولهذا كله دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة^(١).

كما نجد تكرارا آخر بين نوح وهود عليهما السلام في سورة الشعراء حيث حكى الحق سبحانه وتعالى قول نوح بقوله : {كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون} . وحكى مثل ذلك عن هود عليه السلام {كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين} .

وبمثل هاتين حكى عن صالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

[وحكاية الأمر بالتقوى والاطاعة ونفى سؤال الأجر في القصص الخمس وتصديرها بذلك للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى الثواب ويبعده من العقاب ، وأن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وان اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار وأنهم عليهم السلام متزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية]^(٢) ، وذلك لأن الدعوة الى الله تعالى اذا كانت مطهرة عن دنس الطمع قوى تأثيرها في النفس^(٣) . كما أن صفة الأمانة التي أثبتتها كل

(١) في ظلال القرآن ٨/١٣٠٤ .

(٢) روح المعاني ١٩/١٠٩ .

(٣) التفسير الكبير ١٧/١٠ .

رسول لنفسه مقرونة بصفة الرسالة بصيغة التأكيد وتقديم الجار والمجرور "لكم" تشعر بأن من أخص صفات الرسول أن يكون أميناً لأنه مبلغ عن رب العزة وواسطة بينه وبين خلقه فهو رسول من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو أمين على الوحي يجب ألا يزيد فيه ولا ينقص ، وهذا يعني ان هذه الصفة لازمة للرسالة ، واذا كانت كذلك ففيم الاعراض والتكذيب؟ {وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً} . (النمل : ٢٧)

دعوة صالح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

تبدأ دعوة صالح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق في سورة الأعراف عند قوله تعالى :

{والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب أليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين} . (الأعراف : ٧٣-٧٤)

فهو يدعوهم الى التوحيد بمثل مادعا به نوح وهود قومهما {ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره} مستعملا نفس الأسلوب الذى فيه من الاستعطاف واثارة مشاعر الأخوة والاستمالة ما يحمل على سرعة الاستجابة للدعوة والطاعة "ياقوم" فاضافة القوم اليه تشع بكل المعانى السابقة زائدا عليها حرصه الشديد على مافيه صلاحهم ، وخوفه الشديد عليهم مما فيه هلاكهم ، وان الرائد لا يكذب أهله .

وقد علل دعوته بجملة قصرية ، مفادها اختصاص الألوهية بالله عز وجل لا تتعداه الى غيره من المعبودات {مالكم من اله غيره} .

ثم علل ثانيا لاستحقاق الله للعبادة وحده ، لاتصافه بصفات الكمال المطلق والقدرة التى من مظاهرها هذه الناقة المعجزة البينة ، والظاهرة جدا فى الدلالة على صدق نبوته ودعوته اياهم الى ترك عبادة الأصنام مع التوجه بالعبادة كلها الى الله وحده خالقهم وخالق هذه الناقة التى هى من مظاهر احسانه اليهم حيث خصهم بها دالة على وحدانيته وصدق رسوله ، وهو ماتدل عليه اضافة الرب اليهم وتقديم الجار والمجرور "لكم" على الحال "آية" .. ثم أمرهم مرشدا وموجها بأن يدعوها ترعى فى أرض الله خالقها ورازقها ، وفى اضافة الأرض الى لفظ الجلالة "فى أرض الله" دلالة على

استحقاقها الرعى فيها لأن الأرض والنبات الذى عليها كله لله لاغيره ، ثم نهاهم ناصحا بعدم التعرض لها بالاساءة حتى لاينتج عن ذلك تعرضهم لعذاب أليم فيه ابادتهم واستئصالهم ، ثم أخذ يرشدهم ويوجههم عن طريق التذكير بنعم الله عليهم ، المتمثلة فى استخلافهم بعد عاد قوم هود - الذين أهلکوا بسبب تكذيبهم رسول الله واصرارهم على الشرك - فى تلك الحضارة والعمران والقوة .

وبسط القول فى مظاهر الانعام هذه لمقام الامتنان ثم أجمل بعد ذلك بتكرار التذكير بنعم الله مفرعا الأعم على الأخص ، وحيث أن تذكر الآلاء يبعث على شكر المنعم بها وطاعته وترك الفساد عطف عليه نهيم عن الفساد فى الأرض .

وفى التذكير بنعم الله المتمثلة فى الاستخلاف والذى وجدناه عند هود وصالح عليهما السلام أسلوب من أساليب التربية غاية فى التأثير على النفس وضرب من ضروب العظة غاية فى اثاره المشاعر النبيلة فى النفس ، اذ يذكرها بانعام الله واحسانه الجم عليها ، وهذا تكريم من الله لها ، ولاينبغى لمن كرمه الله ذلك التكريم أن يعصى المنعم عليه بالشرك ، الذى هو اعطاء حق لمن ليس له وصرفه عن الذى يستحقه ، بل اللائق به أن يكون ممن يكرم نفسه حيث أكرمه الله ولاينبغى له أن يعمل على بخس نفسه حقها ونقصها قيمتها يجعلها حيث لايريد لها الله أن تكون ، وذلك بالاشراك الذى هو تلطيخ للنفس وتنجيس لها وهو ينافى كرامتها وعزها ، كما أنه مناف لمقتضى الانعام من شكر المنعم سبحانه وتعالى عما يشركون . وفى سورة هود دعا الى التوحيد بمثل دعوته اليه فى سورة الأعراف مضيفا الى أسلوب التذكير بنعم الله التى تستوجب شكر المنعم بها بامثال أوامره واجتناب نواهيه وطاعة رسوله فيما يبلغ عنه وتصديقه فى ذلك ، أسلوب الترغيب فى مغفرة الله وقبوله التوبة الصادقة ، وذلك بترك الشرك والمعاصى والرجوع الى الطاعة ، والعزم الأكيد على عدم العودة الى المعصية والاشراك .. قال تعالى :

{والى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب} .

وقد ذكرهم هنا نعمة الله عليهم من اليجاد والاستعمار فى الأرض عن طريق جملة القصر التى تفيد الاختصاص معللا بها الأمر بالعبادة ، فاذا كان الله هو المنعم عليهم اذ لم ينشئهم من الأرض الا هو ولم يستعمرهم فيها غيره فليس من العقل التسوية بين من يخلق ومن لا يخلق .

ثم فرع على التذكير بهذه النعم استغفاره والتوبة اليه ، ثم استأنف بجملة : {ان ربي قريب مجيب} وكأن القوم استعظموا أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار عنه مما ألجأهم الى اليأس من رحمة الله ، فأجيبوا بأن الله قريب مجيب ، ["قريب" من كل من أقبل اليه (مهما كان جرمه) من غير حاجة الى معاناة مشى ولاحركة جارحة ، "مجيب" لكل من ناداه ، لاكمعبوداتهم فى الأمرين معا]^(١). وفى ذلك تعريض بعجز آلهتهم المزعومة التى لاتسمع ولاتحس ولاتجيب .

أما دعوة صالح عليه السلام فى سورة الشعراء ، فقد جاءت فى منظومة دعوة الأنبياء السابقين الى التقوى والاطاعة مع ذكر صفتى الرسالة والأمانة ونفى الطمع فيما بأيدي الناس أجرا على الدعوة ، ثم أضافت السورة أسلوبا آخر تمثل فى التذكير بنعم الله المشوب بالتهديد المتمثل فى سلب هذه النعم ان استمروا على الكفر والعناد والشرك والفساد .. قال تعالى :

{كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وماأسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . أتتركون فيما هاهنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولاتطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون} . (الشعراء :

فهو يذكرهم بنعم الله في تخليتهم وما يتمتعون به من جنات وعيون في أمن ودعة متخذين البيوت من الجبال في حذق وبراعة .. ويجوز أن يكون انكارا من صالح عليه السلام على قومه أن يعتقدوا أنهم متروكون في هذه النعم آمنين على أنفسهم من حلول عذاب الله بهم - ان ظلوا على الشرك والعصيان - فيبدل من نعيمهم شقاء وأمنهم خوفا ، لأن موقفهم من صاحب النعم وواهبها موقف كفر لا شكر .. أو أنه انكار أن يفهموا أنهم يتركون على هذه النعم بدون حساب وجزاء عليها وأن ليس لهم حياة وراء هذه الحياة يحاسبون فيها على كل صغيرة وكبيرة ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا.. فالاستفهام فيه انكار وتوبيخ على ظنهم ذلك ، وسلط الانكار على فعل الترك لأن تركهم على تلك النعم لا يكون فكان انكار حصوله مستلزما انكار اعتقاده ، وفي ذلك حث على العمل لاستبقاء تلك النعم بشكر الله عليها الذي يستلزم امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وعطف جملة "ولا يصلحون" على جملة "يفسدون في الأرض" ليؤكد فسادهم ببيان خلوصه عن مخالطة الاصلاح ، وهذا تأكيد لوقوع الشيء بنفى ضده ، وفي نهيهم عن اطاعة أمر المفسدين اشارة الى أن كفرهم انما هو بوازع من أئمة الكفر والضلال ودعاة الشرك والهلاك وهم الملاء من قوم صالح عليه السلام ، وهذا من الجديد المضاف الى دعوة صالح في هذه السورة . أما دعوة صالح عليه السلام في سورة النمل ، فالجديد فيها ذكر انقسام قومه اثر دعوته الى التوحيد الى فريقين مختصمين ، فريق مؤمن به وفريق كافر يدعو الى الكفر بكل تعصب وعناد ويتعنت باستعجال العذاب . قال تعالى :

{ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون} . (النمل : ٤٥-٤٦)

ثم أنكر عليهم صالح استعجالهم العذاب وأخذهم جانب العذاب دون جانب الرحمة ، اذ جعلوا تأخير العذاب أمانة على كذب الوعيد به ، فأرشدتهم بأن يجعلوا امتداد السلامة أمانة امهال الله اياهم فينتقوا حلول العذاب بالتوبة الصادقة الى الله وتصديقه فيما يبلغ عن الله ، وألا يؤخروا التوبة الى وقت حلول العذاب حتى لا تقبل .

والاستفهام هنا للسؤال عن المعلول (تستعجلون) كناية عن انتفاء ماحقه أن يكون سببا لاستعجال العذاب وليس الاستفهام سؤالا عن علة استعجالهم كما هو ظاهر في الاستفهام بـ"لم" الدالة على السؤال عن العلة أو السبب . وإنما الانكار هنا متوجه للاستعجال لالعلته^(١) . وفي حضه على التوبة الذي أعقب الانكار ، دليل حرص النبي صالح عليه السلام على مصلحة قومه واشفاقه عليهم رغم موقفهم العنيد حياله ، اذ ترك لهم باب الأمل في النجاة من عذاب الله مفتوحا على مصراعيه لأن رحمة الله واسعة وهي سابقة لغضبه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .. على أن صالحا لم يدخر وسعا في دعوة قومه حيث اتخذ جميع الوسائل المتاحة من لين وشدّة وترغيب وترهيب واستمالة واستعطاف وتذكير بنعم الله وتكرار فيه تنبيه للعقل واثارة للعواطف والمشاعر على أن ما كان مكررا على لسان صالح عليه السلام واتفق فيه مع الأنبياء من قبله من دعوة الى عبادة الله وحده والأمر بالتقوى والاطاعة وذكر صفتي الرسالة والأمانة ونفى شائبة الطمع وطلب الأجر على الدعوة من غير الله ، قد بينت سره وعلة توارد الأنبياء على هذه المعاني الواحدة ، فيما سبق من الدراسة .

وقد تكرر ذكر معجزة صالح عليه السلام - وهي الناقة - في أكثر من سورة ، ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى :

{قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم} . (٧٣)

(١) راجع التحرير والتنوير ٢٨٠/١٩ بتصرف .

وقال في سورة هود : {وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب} . (٦٤)

وقال في سورة الشعراء : {قال هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم} . (١٥٥-١٥٦)

على أن آية صالح عليه السلام تحمل في كل مرة تذكر فيها اتفاقا وبعض الاختلاف عن المرات الأخرى ، ففي سورة الأعراف مثلا ، نلاحظ اسناد المجيء الى البيئنة اسنادا مجازيا لأن البيئنة لا تجيء بنفسها وإنما يجيء بها الرسول تصديقا لدعواه ، كما نلاحظ التفسير بعد الإبهام حيث فسر البيئنة بالناقة المشار إليها باسم الإشارة هذه ، وفصل جملة "هذه ناقة الله" لأنها بمثابة عطف بيان للتي قبلها ، لأن البيئنة هي الناقة .

وقد خلت سورة هود من هذا التمهيد المتمثل في التفسير بعد الإبهام واسناد المجيء المؤكد للبيئنة، واشتركت مع الأعراف في الإشارة الى الآية وتخصيصها للقوم {هذه ناقة الله لكم آية} بدلالة تقديم الجار والمجرور "لكم" على "آية" التي هي حال للناقة . ومع ذلك أضافت جديدا تمثل في وصف العذاب بالقرب وهو ما اختلفت فيه مع الأعراف التي وصف العذاب فيها بالألم ليتفق مع جو الإنذار الغالب على السورة ، كما أن وصف العذاب بالقرب في سورة هود يتفق مع لهجة الغضب التي اتسمت بها السورة ولمناسبة قول صالح فيه {تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب} .

(٦٥)

وقد اتفقت سورة الشعراء مع الأعراف وهود في الإشارة الى الناقة فحسب ، وأضافت جديدا في أمر الناقة المعجزة وهو بيان مقاسمتها القوم في الماء وهو ما خلت منه آيتا الأعراف وهود ، أضف الى ذلك وصفها العذاب عن طريق المجاز الاسنادى تهويلا به وتفظيحا وذلك إشارة اشتركت فيها مع الأعراف وخلت منها سورة هود .

دعوة ابراهيم عليه السلام :

وتبدأ دعوة ابراهيم عليه السلام الى التوحيد في سورة مريم بدعوته أباه في تल्प شديد واستمالة أكيدة مقرونا بهما مراعاة الأدب وحق الأبوة فالمدعو والده وأحب الناس اليه ، فهو يحرص أشد الحرص على هدايته وحمائته من وقوع عذاب الله عليه ، فينتقل به من حجة الى حجة لعل ذلك يثير بصيرته ويهديه الى سواء السبيل فيترك عبادة الأصنام وصناعتها ، ويعبد الله وحده ، قال تعالى :

{واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . اذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا . ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . ياأبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا . ياأبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا } .

فهو يدعو والده الغالى الى التوحيد مثيرا فيه عاطفة الأبوة ، ومبينا حرصه الشديد على ماينفعه كل مرة بقوله "ياأبت" الدال على الأدب الجم والموجب للحنان والعطف ، ثم ينكر عليه متعجبا لعبادته {لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا} ، فابراهيم ينكر عليه عبادة هذه الأصنام لعدم وجود علة أو سبب موجب لعبادتها ، فهى لاتسمعه اذا ناداها ولاتبصره اذا عاينها ، ولاتغنى عنه شيئا اذا احتاج اليها فى شىء ، أو حل به مكروه . وفى الاستفهام انكار مع ارشاد وتوجيه لأبيه ، واثارة له الى التفكير السليم عله يدرك خطأه ويشوب الى رشده ، وأوجز فى الكلام فلم يذكر مفعولى ، يسمع ويبصر افادة للعموم ليتناول كل مايتأتى عليه هذان الفعلان من المسموعات والمبصرات ، أو قصدا الى نفى الفعل عن الفاعل على الاطلاق من غير تعرض لذكر المفعول وذلك بتزليل الفعل المتعدى منزلة اللازم فيكون المعنى : ليس به استماع ولاابصار ، وفى ذلك من المبالغة فى نفى حقيقة الاستماع والابصار عن الأصنام مالايجزى .. وهذا الأسلوب فيه

اظهار لعجز الأصنام بنفى النفع والضرر عنها ، واثبات لوحداية الله عن طريق اثبات قدرته القاهرة وكماله المطلق ، والمعنى أن العبادة قرينة ووسيلة الى من يملك النفع والضرر ويتصف بصفات الكمال والجلال ، وهذه الآلهة التي تعبدها من دون الله لانرى لها شيئا من هذه الخصائص فهي لاتسمعك ان دعوتها ، ولاتبصرك ان قربت اليها شيئا وأظهرت لها ذل العبودية ، وهي لاتملك لأنفسها ضرا ولانفعا ومن باب أولى ألا تملكه لغيرها ، بل ان مظاهر الكمال والنفع والضرر فيك أظهر منها لأنك تسمع وتبصر وتتحرك فأنت أشرف درجة منها ، وهل يصح في ديدن العقل أن يكون العابد أشرف وأكمل من المعبود؟ ولم يكتف ابراهيم بسلبها هاتين الصفتين حتى عمم في سلبها جميع القدرات {ولا يغنى عنك شيئا} .

ثم انتقل ابراهيم في دعوة أبيه الى أسلوب آخر غاية في التواضع والأدب مع أبيه ، حيث تواضع في تزكية نفسه ، ولابن أباه بتكرير النداء "ياأبت" فلم يصفه بالجهل المفرط ولانفسه بالعلم الفائق : {ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا} . وأكد الكلام بان وقد لأن المقام مقام توقع انكار لما يظهر من انقلاب الموازين ، حيث يدعى الابن - بعد ابطاله عبادة أبيه - أنه قد جاءه من العلم مالم يأت أباه ، ويدعو أباه الى اتباعه والاقتراء به ، وهذا مثير لانكار الأب ، ولذا أكد بأكثر من مؤكد ، وفي التعبير "بجاءنى" ، "ولم يأتك" اشارة الى أن هذا العلم جاءه ولم يطلبه فهو وحى من الله الذى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، وليس من قبيل التحصيل الذى يتصل بتعب ومثابرة وجد ومجاهدة ، مما ترى نفسك عليه ، ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنه كان كبير ديانة قومه ، ولذا قال له مالم "يأتك" لأن المقصود بالعلم هو الوحي والنبوة .

"وفي تفريع أمره بأن يتبعه على الاخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالم بأن يتبع مركوزة في غريزة العقول لم يزل البشر يتقصون مظان المعرفة والعلم لجلب ماينفع واتقاء ما يضر" (١).

وفي مجيء النظم على طريق الأمر المقرون بجوابه من غير فاصل اشارة الى حصول الفائدة وسرعتها ، فبمجرد اتباعه تكون الهداية الى الصراط المستقيم . وفي تنكير "صراطا" ووصفه "سويا" تفخيم وتعظيم بالتنكير والوصف معا ، والمراد بالصراط هنا الدين الحق ، وأصله الطريق المستقيم ، فاستعمل بمعنى الدين على سبيل الاستعارة التصريحية لأن الدين يصل بالانسان الى سعادتي الدنيا والآخرة ، كما أن الطريق المستقيم يوصل الى المقصود في أسرع وقت .

ثم نهى ابراهيم أباه في تल्प واستعطاف عن عبادة الشيطان ، والمراد عبادة الأصنام التي هي من وساوس الشيطان وتسويله ، وأمره ، فعبادتها اذن عبادة للشيطان لأنها طاعة لأمره {ياأبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا} .

ولما كان النهى يستدعى علة تستوجه وتحث على الكف عن المنهى عنه علل ابراهيم نهيه عن عبادة الشيطان ، بأنه شديد العصيان للرب الواسع النعمة والرحمة ، وفي الوصف بصيغة المبالغة مع فعل "كان" اشارة الى تمكن العصيان في الشيطان وعدم مفارقتة لهذه الصفة التي اقتصر عليها بين سائر جنائياته لأنها ملاكها وانها نتيجة معاداته لآدم وذريته ، فهو لا يأمر الا بما ينافي الرحمة ويفضي الى النقمة ، هذا سر اختيار وصف الرحمن من بين صفات الله تعالى تنبيهها على بشاعة عصيانه ، لأنه قد استعصى على من عمت رحمته جميع العالمين-، فلا يليق بك أن تعبد من عصى ربه وخالف أمر خالقه ، لأن عبادته توجب غضب الله فتفضي الى الحرمان من رحمته ، ومن كان هذا حاله فهو جدير بالأ يتبع (١).

وفي اظهار الشيطان في موضع الاضمار تنفير منه واستبشاع لعبادته حيث ان استبشاع صورة الشيطان مركزوز في طبائع البشر ، فاذا ذكر اسمه صريحا استنفّر منه .

وبعد هذا النهى لأبيه عن عبادة الشيطان بدأ يحذر أباه وينذره عذاب الرحمن الذى لا يصيب عذابه الا من وصلت فظاعة جرمه حدا بلغ به أن يحرم من رحمة من شأنه سعة الرحمة ، ولعل هذا أيضا سر الوصف بالرحمن وايثاره من بين أسماء الذات العلية هنا ، وللدلالة على أن امهاله من عصاه انما هو عن رحمة لاعن عجز .. قال تعالى :

{ياأبت انى أخاف أن يمسخ عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا} .
فهو مشفق على أبيه من عذاب الله حتى لا يكون قرينا للشيطان فى العذاب ، وغير بالحوف المشعر بالظن دون القطع تأدبا مع أبيه ومجاملة له ، وابقاء لبصيص الأمل والرجاء فى نفس أبيه ليعمل على الافلات من قبضة ذلك العذاب بترك الشرك بالله والتمسك بجبل التوحيد المتين ، ولا يخفى ما فى ذلك أيضا من الأدب مع الله بعدم القطع فى أمر هو من تصرف الله الذى يفعل ما يشاء ، ان شاء عذبه وان شاء تركه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

أما دعوة ابراهيم الى التوحيد فى سورة الشعراء فقد وردت فى سياق تسليية النبي صلى الله عليه وسلم الذى يكاد يهلك نفسه أسى على تكذيب قومه وعدم ايمانهم بالاله الواحد ، فأورد عليه رب العزة قصص من مضى من رسل الله وتكذيب أقوامهم رغم ظهور الأدلة والبراهين والآيات المتعددة الدالة على صدقهم فى تبليغهم عن الله ، تسرية للرسول صلى الله عليه وسلم وتبكييتا للعرب الذين يفتخرون بانتسابهم الى ابراهيم عليه السلام وأنهم على ملته وهم فى ذلك مجانبون للصواب ، فهاهو ذا ابراهيم عليه السلام ينكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام ويدعو الى عبادة الله وحده وهى دعوتك التى كذب بها قومك ، فاصبر على تكذيبهم كما صبر أولو العزم على التكذيب من قبلك ، ولينصرك الله كما نصرهم على أقوامهم .. قال تعالى :

{واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} . (الشعراء : ٦٩-٧٤)

فابراهيم عليه السلام يدعو قومه الى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام باثبات عجزها واثبات الكمال المطلق لله ، وذلك عن طريق جمل استفهامية عن أوصاف ، لا تجد أسلوباً أنصف منها في الجاء قومه الى الاعتراف بسلب تلك الأوصاف الكمالية عن الأصنام ، مع علم كل عاقل اذا تعقل أنه لا تصح رتبة الألوهية مع فقد واحدة منها ، فكيف مع فقدها كلها؟

واستفهام ابراهيم للسؤال عن الجنس وليس ابراهيم فيه مستعلما وإنما هو منبه للقوم على ضلالهم اذ كان عالما بحقيقة حالهم ، "فأراد بالاستفهام افتتاح المجادلة معهم فألقى عليهم هذا السؤال ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم ، فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد ، لأن الذى يتصدى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه ، ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه مايريده من الاحتجاج على فساد دينهم" (١).

وقد أطنب القوم في جوابهم ابتهاجا لسؤاله وافتخارا لعبادة الأصنام ظنا منهم أنهم على طائل كبير {نعبد أصناما فنظل لها عاكفين} وهو جواب يعنى عنه كلمة واحدة "أصناما" ولكن القوم عدلوا عن سنة الجواب الى تكرير الفعل الواقع فى السؤال "تعبدون" ابتهاجا بهذا الفعل وافتخارا به ، ثم أكدوا هذه العبادة بعطف جملة "فنظل لها عاكفين" على قولهم "نعبد أصناما" فالدوام مفرع عن عبادة الأصنام وقد أكدوا هذا الدوام أيضا بالتخصيص الذى يشعر به تقديم الجار والمجرور "لها" على عامله "عاكفين" ، وضمنوا "عاكفين" معنى "عابدين" فعدى اليه الفعل باللام دون "على" وهذا

كله من جملة اطنابهم^(١)، ونكروا "أصناما" تعظيما لشأنها وافتخارا بها .
ولما كانت العبادة وسيلة الى من يملك النفع والضرر ، استأنف ابراهيم
عليه السلام كلامه بسؤالهم بقوله : "هل يسمعونكم اذ تدعون . أو
ينفعونكم أو يضرون" والاستفهام هنا كسابقه مراد ابراهيم منه فتح باب
المجادلة القائمة على استنطاق العقل والفطرة ، ليعجزوا عن اثبات أنها تسمع
أو تنفع أو تضر ، فيبطل بذلك استحقاقها للألوهية ، ويتجه الاستحقاق الى
ذو القدرة والهيمنة الذى يتصف بكل صفات الكمال والجلال وهو البارى
جل وعز . وفى الكلام ايجاز بحذف مضاف تقديره "دعاءكم" أى هل
يسمعون دعاءكم ، وقد دل عليه الظرف فى قوله "اذ تدعون" وحذف
معمول "يضرون" رعيًا للفاصلة ، ولما رجع القوم الى أنفسهم وخاطبوا
عقولهم وفطرتهم اعترفوا بأنها بمعزل عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة
وأن صنيعهم بها ليس الا تقليدا لديدن الآباء الذين كانوا يعبدونها فاقتدوا
بهم ، {بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} ، وفى قولهم "كذلك يفعلون" تشبيه
فعل الآباء بفعلهم وهو نعت لمصدر محذوف والتقدير : يفعلون فعلا كذلك
الفعل ، وقدم الجار والمجرور على "يفعلون" للاهتمام بمدلول اسم
الاشارة^(٢).

ثم استأنف ابراهيم عليه السلام كلامه بجملة استفهامية فيها تعجب
وتنبيه على عدم اكترائه بتلك الأصنام لكونها لا تسمع ولا تضر ولا تنفع ،
فأعلن عداوته لها حتى يثبت للقوم تجردها من أى نفع أو ضرر وذلك
بالبرهان المادى ، اذ لو كانت غير ذلك لعاقبته على معاداته لها ، واذ لم
تفعل شيئا من ذلك فهى - عند العقلاء - غير جديرة بصرف أى نوع من
أنواع العبادات اليها ، قال تعالى :

(١) راجع المصدر السابق وتفسير أبى السعود ٢١٧/٤ بتصرف .

(٢) راجع التحرير والتنوير ١٤٠/١٩ .

{أقرأيتم ماكنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقن . واذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين} . (الشعراء : ٧٥-٨٢)

ولما أعلن عداوته لمعبوداتهم استثنى من جملة ذلك رب العالمين الذى يتصف بكل صفات الكمال المطلق التى منها الخلق والهداية والاطعام والسقاية والشفاء من كل مرض ، والاماتة والاحياء وغفران الذنوب .. وقد سرد ابراهيم هذه الصفات فى جمل تسع معطوفة بعضها على بعض ، وقد كرر الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ماوقع فى حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الأول ايذانا بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل مستقل فى اثبات أحقيته للألوهية وحده دون غيره ، لأن غيره لا يستطيع أن يقوم بشىء من هذه الصفات ، ولاشئ منها قائم بأحد غيره ، وفى تقديم المسند اليه الضمير "هو" على الخبر الفعلى فى قوله "فهو يهدين" ، وقوله "هو يطعمنى ويسقن" ، وقوله "فهو يشفين" اشارة الى تخصيصه سبحانه وتعالى بالهداية والاطعام والسقاية والشفاء دون غيره من مخلوقاته .
وفى هذا القصر قلب لما يعتقدون من أن أصنامهم تفعل ذلك كله ، فالقصر اضافى اذن .

والفاء فى قوله "فهو يهدين" تفيد معاقبة الهداية للخلق ، فانه تعالى يهدى كل ماخلق الى معاشه ومعاده ، وعبر بالمضارع فى قوله "يهدين" ، وكذا فى "يطعمنى ويسقن" لافادة تجدد الحدوث ، وأسند احداث فعل المرض الى نفسه تأدبا مع الله ، ولأنه متسبب فيه بتناول طعام فاسد أو تعرض للحر أو البرد أو ماشابه ذلك من الأشياء المسببة للمرض ، ولم يأت بما يقتضى التخصيص فى قوله "والذى يميتنى ثم يحيين" لأن أحدا لا يدعى ذلك وعطف جملة "يحيين" على "يميتنى" بضم لافادة التراخى الزمنى بين الاماتة والاحياء الذى هو البعث .

أما دعوته في سورة الأنعام فقد أخذت نمطا آخر حيث سلك ابراهيم مع قومه مسلك المجارى لهم في النحلة لكي تلين عريكتهم وتفتح صدورهم لسماع مايدلى به من براهين قاطعة في الدلالة على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة وحده ، وسلب أصنامهم ومعبوداتهم من أى صفة تؤهلهم للألوهية ، وكان عليه السلام طويل النفس هادىء البال في نقاشه ، يرخى لخصمه العنان ويوافقه في زعمه الباطل - جدلا - ويصير عليه ، ثم يكر بالحجة الدامغة على باطله فتدمغه ، ويظهر الحق جليا ويلجم لسان الخصم حتى لايجير جوابا ، قال تعالى :

{واذ قال ابراهيم لأبيه أزر أتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين} . (الأنعام : ٧٤)

بدأ بدعوة أبيه صانع الأصنام وسادن معابدها وزعيم القوم في عبادتها الى التوحيد عن طريق انكار اتخاذها آلهة وهى التى لاتتصف بشىء من صفات الألوهية ، بل لاتتصف بأدى صفة من صفات الحيوان فضلا عن صفات الألوهية ، الأمر الذى يجعل العاقل البصير يستنكف عبادتها من دون الله ، اللهم الا اذا كان مطموس البصيرة ، مشمولا بالضلال الواضح ، ولذا أكد ابراهيم ضلال أبيه وقومه فى ذلك عقيب انكاره بقوله : {انى أراك وقومك فى ضلال مبين} أى ضلال واضح بكم وضوحا وصل الى حد اظهار نفسه للعيان وأكد كلامه لاقتضاء المقام الانكار من جهة القوم .

وبعد هذا الانكار المشوب بشائبة التوييح على عبادتهم للأشخاص بدأ يدعوهم الى التوحيد عن طريق ابطال مذهب عبدة الهياكل والأفلاك ، قال تعالى :

{فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى . فلما أفل قال لأحب الأفلين} . (الأنعام : ٧٦)

وكان هذا الكلام من ابراهيم عليه السلام على سبيل الفرض وارخاء العنان للخصم ، وليس على سبيل الاعتراف والاعتقاد - حاشاه أن يفعل ذلك - فقد قال هذا القول مجازاة لعباد الأصنام والكواكب حتى يصغوا الى

حديثه ، ثم كر على هذا الباطل وأثبت لهم أن هذا الكوكب غير ثابت الوجود بل هو متغير ومنتقل والرب الحقيقي لا بد أن يكون ثابت الوجود ، ليقوم دائماً على شئون عابديه ومربوبيه - فلا يتغير ولا ينتقل ، فلا يصلح اذن هذا الكوكب أن يعبد من دون الله .

ثم انتقل ابراهيم الى حالة ثانية للاستدلال على وحدانية الله وربوبيته وابطال ربوبية الكواكب والأصنام :

{ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين } . (الأنعام : ٧٧)

وكيف أعبد الها يضىء بعض الوقت ثم يغيب البعض الآخر فمن ذا الذى يهديني من الضلال ويقوم على شئوني اذا هو غاب؟ فقد أدرك ابراهيم نقص الكواكب وعيبيها لأن الأفول تغير والتغير حدوث والكامل لا يجوز عليه الحدوث لأنه صانع الحدوث . وطرد ابراهيم القياس فى الاثبات والنفى مستدلاً على بقية الكواكب^(١).

وبعد هذا الاستدلال العقلى القوى يؤكد ابراهيم على وجود اله حقيقى غير هذه الكواكب ، وهو اله لا يعتريه هذا النقص بل هو كامل فى صفاته لأنه الاله الحق ، فهو الذى يلجأ اليه ابراهيم طلباً للهداية حتى لا يكون من جملة الضالين ، وفى تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد فى قوله {لئن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين} تقرير وتحقيق أن مصدر الهداية هو الله رب ابراهيم ورب العالمين .. وفى الآية تعريض ظاهر بضلال قومه فى اتخاذهم القمر ربا والها من دون الله رغم ما يعتريه من النقص المنافى للربوبية والألوهية .

ثم انتقل ابراهيم الى حالة ثالثة ، قال تعالى :

{ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر } . (الأنعام : ٧٨)

(١) راجع مناهج الجدل فى القرآن الكريم ص ١٨٢ .

وهذه مبالغة عظيمة في ارخاء العنان للخصم ، "فان الموافقة في العبارة على طريق الزام الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج ، وعن هذا قال {فلما رأى الشمس}... الخ لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الأفلاك وهو رب الأرباب الذى يقتبسون منه الأنوار ويقبلون منه الآثار" (١).

وبعد أن أقام عليهم الحجة ، بانتقاله من كوكب الى كوكب وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفا لا يصلح واحد منها أن يكون ربا أو الها معبودا لأنها تغيب وتحضر ، أعلن عليهم عقيدته الصحيحة التى جعلته يسجل عليهم الضلال المبين من أول وهلة ، فأراهم أنه برىء مما يشركون بالله وأكد ذلك لأن المقام مقام توقع حدوث انكار خاصة بعد مجاراته لهم على سبيل الجدل ، وأنه أقبل بعبادته على الذى فطر السموات والأرض ، واشار الموصول "الذى" على لفظ الجلالة "الله" للاشعار بجملة الصلة علة التوجه اليه وافراده بالعبادة ، فهو خالق السموات والأرض المدبر لهذا الكون ومافيه ، ثم أعلن براءته أيضا من المشركين بعد اعلان براءته مما يشرك به الله ، وفى قوله {وماأنا من المشركين} بالوصف دون "وماأنا منكم" تسجيل هذا الوصف عليهم وبيان علة براءته منهم وذمه لهم ولتعميم براءته من كل مشرك غيرهم .

وهكذا "استدل ابراهيم عليه السلام بالأفول والزوال والتغير والانتقال على أنه لا يصح أن يكون أحد من هذه الكواكب ربا الها ، فان الاله القويم لا يتغير واذا تغير احتاج الى مغير ، هذا لو اعتقدوه ربا قديما والها أزليا ، ولو اعتقدوه واسطة وقربة وشفيعا ووسيلة فان الأفول والزوال يخرجها أيضا عن حد الكمال" (٢). وقد أثبت ابراهيم بهذه المحاجة اللطيفة صفات العجز للأصنام وأثبت الكمال المطلق لله رب العالمين ، فوجب بذلك أن يعبد وحده دون شريك .

(١) الملل والنحل للشهرستانى ٥٣/١ .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ٥٣/١ .

وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد أثبت فيما سبق عجز الأصنام ونقص الكواكب عن طريق الاستدلال العقلي فإنه في سورة الصافات يثبت عجزها وعدم استحقاتها للألوهية بأدلة عملية مشاهدة حيث كسر تلك الأصنام تكسيرا ليثبت للقوم عجزها عن دفع الضر عن نفسها فضلا عن دفعه عن غيرها وجلب النفع له .. قال تعالى :

{وان من شيعته لإبراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم . اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أفكأ آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال انى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لاتنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا عليه يرفون . قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون} . (الصافات : ٨٣-٩٦)

فقد بدأ دعوته هنا فى جمل استفهامية مشوبة بالانكار والتوبيخ والذم وفى تتابع هذه الجمل الاستفهامية الانكارية محاشنة فى خطابه القوم وتخويف وانداز بعذاب الله ان استمروا على الكفر والعناد ، فقد أنكر عليهم ارادتهم اتخاذ آلهة من دون الله من أجل الافك والكذب ، أو آلهة مكذوبة فى ألوهيتها؟ آمنين من سوء العاقبة ، طانين أن الله سيترككم مع شرككم بلاعقاب ، كلا فأى شىء تظنون أنه يفعل بكم ان لقيتموه وقد عبدتم غيره^(١) ، واجترأتم على الافك عليه تعالى ولم تخافوا؟

ثم أراد بعد هذه التوبيخات أن يثبت لهم عجز أصنامهم وأنها لاتضر ولاتنفع ، وماكان ليتم له مايريد بحضرة القوم لامكان الحيلولة دون ذلك دفاعا عن آلهتهم المقدسة ، فاحتال للبقاء وعدم خروجه مع القوم الى عيدهم حتى يخلو بالأصنام فيكسرها ليبرهن على تمام عجزها حتى يسقط استحقاتها للعبادة ، فنظر فى النجوم على عادتهم حيث كانوا نجامين يعظمون الكواكب المعروفة ويعتقدون السعود والنحوس والخير والشر فى العالم منها ،

(١) تفسير القرطبي ٤٥/٢٣ ، تفسير الخازن ٢٤/٦ .

فتأمل نوعا من التأمل فى أحوالها وهو فى نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين فى خلق السموات والأرض وتفكرهم فى ذلك اذ هو اللائق به عليه السلام ، لكنه أوهم أنه تفكر فى أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التى تدل بزعمهم على الحوادث ليرتب عليه ما يتوصل به الى غرضه الذى يكون وسيلة الى انقاذهم مما هم فيه^(١) ، فأوهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غذا فقال "انى سقيم" مؤكدا دفعا لداعية الانكار فيهم ، فانصرفوا عنه ، اذ كان القوم شديدى الخوف من الطاعون لاعتقادهم العدوى فيه . ولما خلا لابراهيم الجو ذهب الى الأصنام فى سرعة واختفاء ، وكان القوم يضعون لها القرابين من طعام وغيره للتبرك والتقرب ، فسألها ابراهيم على سبيل الهزاء والتهكم "ألا تأكلون" هذا الطعام المقدم لكم ، وأنى لها الأكل وهى أحجار صماء ، ثم أعاد التهكم سائلا ساخرا ، "مالكم لاتنطقون" وأنى لها النطق والجواب وهى لاتسمع ولا ترى ؟ ولا يندن عنك ما فى هذا الأسلوب من دلالة واضحة على شدة انحطاط هذه الآلهة عن رتبة عابديها الغفل ، اذ هم يأكلون وينطقون بخلافها ، ثم أهال عليها ابراهيم عليه السلام الضرب بكل قوته فكسرها ، فهرع القوم اليه منكبين عليه صنيعه بالآلهة التى يعبدونها ويقدمونها فألقى عليهم ابراهيم باللائمة والتوبيخ وتسفيه أحلامهم عن طريق جملة انشائية مبنية على استفهام مشوب بالانكار والتوبيخ ، اذ بلغوا من السخافة وفساد الرأى أن يعبدوا أصناما أو صورا نحتوها بأيديهم وتركوا الذى خلقهم وخلق أعمالهم وخلق الذى يعملونه بأيديهم من الأصنام . والمعبود الحق ينبغى أن يكون الصانع لا المصنوع والله هو الصانع الوحيد الذى يستحق العبادة وحده وهذا دليل على سفاهة رأيتهم وتفاهة معبوداتهم .

(١) المصدر السابق ، روح المعانى ٣١/٢٣ .

وفي تكسير ابراهيم للآلهة دليل قاطع على ضعفها وعجزها المطلق ،
وأنها لا تحمل شيئاً من صفات الألوهية ، اذ الاله الحق يجب أن يكون قويا
قادرا له كل صفات الكمال وهو وحده الذى يستحق العبادة .

ولا يختلف أسلوب دعوة ابراهيم قومه الى التوحيد فى سورة الأنبياء عما
فى سورة الصافات الا فى بعض التفاصيل ، قال تعالى :

{ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه
ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد
كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين .
قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين .
وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلمهم
اليه يرجعون} . (الأنبياء : ٥١-٥٨)

فهذه السورة تتفق مع ما فى سورة الصافات فى أن الحلقة المعروضة من
قصة دعوة ابراهيم عليه السلام الى التوحيد ، هى حلقة التحدى واثبات
عجز الأصنام وتجريدها من أى ضر أو نفع وأنها لا تستطيع دفع الضر عن
نفسها أو جلب النفع لنفسها فضلا عن نفع غيرها أو دفع الضر عنه . وقد
جاءت هذه الحلقة فى سورة الأنبياء ناظرة الى ماسبقها من آيات بينات ،
جردت الآلهة من كل صفة تؤهلها للألوهية وأن اتخاذها آلهة ليس عن
برهان مقنع لعابديها ، ومن قبل ذلك دليل التمانع الذى يرفض وجود الهين
فى هذا الكون المتسق فضلا عن وجود آلهة متعددة ، وقد وردت هذه
الآيات على النحو التالى :

{أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة الا الله
لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .
أم اتخذوا من دونه آلهة . قل هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من
قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون} . (٢١-٢٤)

والجديد في سورة الأنبياء هو توجيه الإنكار الى ذات التماثيل أى الصور التى صنعوها على مثال ما فيه روح ، فسأل عن ماهيتها وحقيقتها تحقيرا لها وتصغيرا لشأنها وتجاهلا لها مع علمه بأنها أحجار أو أخشاب اتخذوها آلهة يعظمونها ، فسأل عنها "بما" التى يطلب بها بيان الحقيقة وشرح الاسم ، وفى ذلك تعريض واستخفاف بها وكشف عن انحطاطها عن رتبة الألوهية ، اذ أن التعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال الذاتى ، فلاملاءمة بين حقيقتها المعبر عنها بالتماثيل وبين وصفها بالمعبودية المعبر عنه بعكوفهم عليها . والاستفهام من قبيل تجاهل العارف ، استعمله ابراهيم عليه السلام تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنونهم مستعلما ولذلك أجابوه بقولهم {وجدنا آباءنا لها عابدين} مؤكداين على عبادة آباءهم ، بتخصيص عبادتهم لها دون غيرها ، وهذا سر تقديم "لها" الجار والمجرور على عامله "عابدين" ، وفى الإنكار المتسلط على الوصف ، مخاشنة فى الخطاب لا يخفى .

وإذا كانت الحلقة فى سورة الصافات قد طوى فيها جواب القوم عن الاستفهام الإنكارى التوبيخى {ماذا تعبدون . أفكأ آلهة دون الله تريدون} فإن الجواب هنا مذكور وهو قولهم {وجدنا آباءنا لها عابدين} وهذا يشعر بأن الاستفهام فى قوله تعالى : {ما هذه التماثيل} يتسلط على الوصف فى قوله تعالى : {التي أنتم لها عاكفون} فكأنه قال : "ما عبادتكم هذه التماثيل؟ ولكنه صيغ بأسلوب توجه الاستفهام الى ذات التماثيل ، لتحقيرها وإظهار عدم استحقاتها للألوهية^(١) . أضف الى ذلك ذكر نيته السيئة بالأصنام والتى أظهرها فى جملة من المؤكدات اهتماما بشأنها فى قوله {تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين} . وقد خلت سورة الصافات من كل ذلك .

(١) راجع : التحرير والتنوير ٩٤/١٧ ، البحر المحيط فى التفسير ٤٤٢/٧ .

ومن الجديد في سورة الأنبياء أيضا ، تشريكه آباءهم معهم في تسفيه أحلامهم وتسجيل الضلال عليهم في جملة من المؤكدات في قوله : {لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين} فأكد بالقسم الذى دخلت اللام على جوابه ثم "قد" وأكد الضمير في "كنتم" بـ"أنتم" وقد أتى بأكثر من مؤكد لأن المقام يقتضيه لتوقع حدوث الإنكار ، لابطاله دين الآباء ، وتسفيه أحلامهم وامتهان مقدساتهم ، وقد اختار صيغة "مبين" اسم فاعل بدل "بين" في وصف ضلالهم ، فكأنه يكشف عن نفسه ويظهر انحرافه لمن ينظره ، واختار حرف "في" لما فيها من معنى الظرفية لتفيد أنهم منغمسون في ضلال مطبق عليهم ومحيطهم من كل جانب ، فهم لا يستطيعون منه انفكاكا الا بالتوبة الصادقة ونبذ عبادة الأصنام والتوجه بالعبادة الى الله وحده .. وقد خلت سورة الصافات من هذه اللمحة ، كما أضافت سورة الأنبياء ما يكشف عما في نفوس القوم من شك فيما هم عليه وعدم الثقة فيه فهم مزعزو العقيدة لم يردوا على تأكيده عليه السلام بأنهم على ضلال بتأكيد مماثل بأنهم على الهدى ، بل تساءلوا أهو جاد فيما يقول أم هازل {قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين} وان ترجح عندهم كونه هازلا مداعبا لهم ، وهو مايفصح عنه التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات {أم أنت من اللاعبين} وفي انكارهم أيضا بالاستفهام انكار كون آباءهم على ضلال .

وإذا كانت سورة الصافات قد ذكرت وسيلته في احتياله للكيد بالأصنام بانتهاجه في الظاهر. مذهب القوم في النظر في النجوم والاستدلال بها على ما يصاب به الانسان من مكروه وأنه استدل بهذه النظرة بأنه موبوء فترتب على ذلك انصراف القوم عنه {فنظر نظرة فى النجوم . فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين} (٨٨-٩٠) وفصلت أيضا في عملية الكيد ، التى هى كسر الأصنام بذكر مقدماتها وممهدهاتها من مخاطبة الأصنام واعجامها عن الجواب ثم الضرب عليها بكل قوة^(١) ، فان سورة الأنبياء طوت ذلك كله ثم أضافت

نتيجة الكسر ، حيث جعل الأصنام قطعاً متناثرة ، وأضافت أيضاً استثناءه كبير الأصنام حتى يرجع إليه فيما أصاب صغارهم {فجعلهم جذاذاً كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون} وهذا تخصيص لعموم كسر الأصنام كلها المفهوم من آية الصافات {فراغ عليهم ضرباً باليمين} .

أضف إلى ماسبق جواب إبراهيم عليه السلام لسؤالهم المتضمن لصفات الكمال والجلال التي يتصف بها المعبود الحق ، وهي الهيمنة والتدبير والخلق {قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين} فالمستحق للربوبية هو خالق السموات والأرض وما فيهن ، وأنا أعلم ذلك على سبيل الحقيقة المؤيدة بالبرهان ، ولست مثلكم لا تملكون الدليل على عقيدتكم إلا تقليد الآباء . وفي إثبات خلق السموات والأرض وما فيهما لله إيماء إلى أنهم وما يعبدون من دون الله جزء من خلقه ، وفي هذا تقرير لهم وإظهار لشدة ضلالهم إذ كيف يصح في العقل عبادة المخلوق وترك الخالق .

وتتسم دعوة إبراهيم في سورة العنكبوت بطابع الترغيب والاستمالة وإثارة العواطف والوجدان ، يقول تعالى : {إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه . ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون أفاك . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون} . (العنكبوت : ١٦-١٧)

فهو يدعو قومه إلى التوحيد واتقاء عذاب الله ، وذلك بأفراده بجميع أنواع العبادات واجتناب ما نهى عنه من الشرك والمعاصي ، عن طريق أسلوب الترغيب ، فهو يحب إليهم هذه الحقيقة ويدعوهم إليها بما تضمنته من الخير لهم لو كانوا يعلمون مواطن الخير والسعادة . وفي تذييل الآية الأولى ، التي علل بها الأمر بعبادة الله وتقواه تحريض القوم إلى نفى الجهل عن أنفسهم واختيار الخير لها ، وهو في الوقت نفسه حقيقة عميقة لا مجرد تهيج خطابي ، وبعد هذه الدعوة إلى التوحيد بطريق الترغيب شرع إبراهيم في بيان فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه .

هم يعبدون أوثانا ، ، أى تماثيل من أخشاب وأحجار لاغير ، وتلك عبادة سخيفة تدل على سخف وبله ، وخاصة اذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله ، وهذا سر القصر بانما .

وهم فى هذه العبادة لا يستندون الى دليل أو برهان ، وانما يخلقون افكا وينشئون باطلا .

ثم ان هذه الأصنام أو الأوثان لاتقدم لهم نفعا ولا ترزقهم شيئا^(١). فعبادتها عبادة لمن لا طائل تحته وأن تسميتها آلهة تسمية باطلة ، لأنها أسماء ليس لها مسميات ، فعملهم هذا مجرد اختلاق وافك .

ثم بين ضعفها وعجزها حيث لا تمك ايصال النفع لعابديها أو دفع الضر عنهم فهى لا ترزقهم ان طلبوا منها الرزق أى رزق ، لمكان التنكير فى "رزقا" وهذا منه عليه السلام على جهة الاحتجاج عليهم بأمر تفهمه عامتهم وخاصتهم ، وهو أمر الرزق ، فقرر أن الأصنام لا ترزق ، وأمر بابتغاء الرزق والخير عند الله تعالى ، وخص الرزق من بين النعم لمكانته عند الخلق فهو جزء يدل على جنسه كله^(٢).

والرزق مشغلة النفوس وبخاصة تلك التى لم يستغرقها الايمان ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة فى النفوس وقد استغل ابراهيم عليه السلام هذا الميول فى الانسان فى دعوة قومه ، فدعاهم الى التوحيد عن طريق الترغيب فى هذا الرزق الذى يهتمهم ويس حاجتهم وتتوق اليه النفوس ، {ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واشكروا له اليه ترجعون} .

وفى الآية توجيه لهم الى عبادة الله الواحد الرزاق ، وأن ينصرفوا عن عبادة الأوثان التى لاتنفع ولا تضر ، ثم أمرهم ابراهيم عليه السلام بأمرين بعد أمرهم بطلب الرزق من الله تعالى وحده هما : عبادة الله التى

(١) راجع فى ظلال القرآن ٢٠/٢٧٢٨ .

(٢) راجع المحرر الوجيز لابن عطية ١٢/٢١٠ .

تضمن لهم وصول الرزق ، والشكر له ، المسبب لبقاء الرزق واستمراره وزيادته ودوام النعم عموما .

وفي التذييل بقوله "إليه ترجعون" تذكير بالبعث والحساب ، والجزاء من جنس العمل ان خيرا فخييرا وان شرا فشرا ، وفي هذا انذار للقوم وتحذير من قبضة الله وحسابه العسير ، وتأكيد على أنه لا مفر من الله الا اليه فمن الخير لهم أن يتوبوا اليه مؤمنين موحدين عابدين شاكرين .

أما دعوة ابراهيم في سورة البقرة فكانت في حاجته طاغية عصره الملك نمرود بن كنعان ، عندما عرف ابراهيم ربه بصفة الكمال والقدرة والهيمنة ، فادعى نمرود مثل تلك الصفات ليثبت الألوهية لنفسه زورا وبهتانا ، فأفحمه ابراهيم عليه السلام في المحاجة بالحجة القاطعة القاهرة .. قال تعالى :

{ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن أتاه الله الملك . اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين} . (البقرة : ٢٥٨)

فقد بدأ ابراهيم عليه السلام الدعوة الى التوحيد باظهار صفتين لربه لا يشاركة فيهما أحد وهما الاحياء والاماتة ، فاستحق بهما الألوهية والربوبية دون غيره ، وخلص له بهما الحكم والتشريع دون سواه ، ومقصود ابراهيم بالاحياء والاماتة هو انشاء هاتين الحقيقتين انشاء فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركة فيه أحد من خلقه ، ولكن الذي حاج ابراهيم ادعى لنفسه هاتين الصفتين ، وذلك بعفوه عن من أجرم فاستحق القتل وقتله البريء الذي لا يستحق القتل ، فقد رأى في كونه حاكما لقومه وقادرا على انفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية ، وكان الأجدر به أن يكون ذلك سببا لادعائه لله شكرا لانعامه عليه بالملك ، غير أن هذه النعمة أبطرت فلم يعمل بمقتضاها بل عارض ابراهيم عليه السلام بدليل مماثل على زعمه فقال :

"أنا أحيى وأميت" .

وعندما رأى ابراهيم ممارسة الملك وجداله بالباطل انتقل الى طريقة التحدى بعرض سنة كونية أخرى ظاهرة لا يمكن انتحالها ، وطلب تغيير سنة الله فيها لمن ينكر ويتعنت فقال : {فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب ، فبهت الذى كفر} .

فلما رأى عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام أخرس وأبلس ، لأن التحدى قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل الى سوء الفهم والجدل والمرء .

وقد استعمل ابراهيم عليه السلام فى اثبات الوحدانية هنا دليلين : الأول : دليل فى الأنفس تمثل فى تفرد سبحانه وتعالى بالاحياء والاماتة وهى حقيقة فى الأنفس نشاهدها كل حين .

الثانى : دليل فى الآفاق ، تمثل فى شروق الشمس من المشرق وغروبها الى المغرب كل يوم من غير تحلف وهذان الدليلان ظاهران كونيتان تدلان على مدبر حكيم وصانع بديع يتصف بكل معانى القدرة والكمال وعليه استحق العبادة وحده .

وفى عدول ابراهيم الى المقام الثانى مع عمده الى الشمس دون سائر الآيات الكونية وكونه على هذه الوتيرة دائماً ، دليل على بطلان اعتقاد القوم فيها بأنها الاله الأكبر وذلك لوقوع التدبير والتسيير عليها ، فالاله الأكبر والأوحد هو الذى يديرها ويسيرها ، وهو بذلك المستحق للعبادة وحده . على أن ابراهيم عليه السلام قد استنفذ كل وسائله فى دعوة أبيه وقومه الى التوحيد ، فاستعمل اللين ثم الشدة فالترغيب مع الترهيب ، فمخاطبة العقل والفطرة والوجدان بأدلة قولية وأخرى فعلية وعملية ، وكان فى ذلك كله ساطع البرهان قوى الحجة يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولاغرو فى ذلك ، فهو الذى قال فيه رب العزة : {وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه} .

دعوة لوط عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

وتبدأ دعوة لوط عليه السلام في سورة الأعراف على غير منوال دعوات الرسل قبله في هذه السورة ، حيث بدأ لوط عليه السلام دعوة قومه بانكار ما هم عليه من المساوية الخلقية داعيا لهم الى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، فهو بدأ بانكار فواحشهم قبل دعوتهم الى الايمان بالله وتوحيده بالعبادة لفظاعة ما هم عليه من سوء الأخلاق بجانب الكفر بالله الذى أنعم عليهم بالصحة والقوة والرزق .. حيث كانوا أهل فساد لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية قبلهم ، فقد كانوا يأتون من الفواحش أخسها مظهرا ومخبرا ، اذ فشى فيهم الشذوذ الجنسى الخبيث الى جانب رذائل أخرى تمثلت في قطع السبيل واتيان المنكر في تجمعاتهم ، فكانت رسالة لوط عليه السلام اليهم حربا على الشذوذ والاعراف وتقويما للاعوجاج الخلقى المدمر والسلوك القبيح الذى يأباه الحيوان الأعجم ، فأنكر عليهم لوط هذه الفاحشة النكراء قال تعالى :

{ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون} . (الأعراف ٨٠-٨١)

فهو ينكر عليهم فاحشتهم في جملة انشائية مبنية على استفهام مشوب بالانكار واللوم والتوبيخ ، مطنبا بالتفصيل أو التفسير بعد الابهام ، لتشويق نفوسهم الى الاستماع اليه بالابهام فاذا فرمتمكن الانكار في نفوسهم لأنه جاء بعد تطلع والحاح ، {أتأتون الفاحشة} ، {انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء} وأشار الى أن هذه الفاحشة من مبتدعاتهم {ما سبقكم بها من أحد من العالمين} ولتوقع حدوث انكار من القوم لتأصل الفاحشة فيهم وشدة استمرائهم لها ، أكد الكلام بأكثر من مؤكد ، "انكم لتأتون الرجال" وفي وصفه لهم في تذييل الآية "بل أنتم قوم مسرفون" يبان لمدى انغماسهم في هذه الفاحشة الشنعاء ، وقد وصفهم بالاسراف الذى يعنى وضع الشيء في

غير موضعه لينسجم ذلك مع اتيانهم الرجال من دون النساء اللواتي خلقن لهذا الغرض ، وفي هذا الفعل الشنيع خطورة على الحياة الاجتماعية ، لما فيه من ازهاق لمظهر الرجولة وجوهرها ولما يترتب على تفشيته وانتشاره من الارتكاس في حماة الخنوثة وامامة لمقتضى الفطرة التي بين الزوجين والذي تدعو اليه الشهوة ويقصد به النسل ، وناهيك بفضاعته ، أنه تهديد للجنس البشرى بالوبال والنكال والانتقراض .

ونلاحظ تميز دعوة لوط عليه السلام عن دعوات الأنبياء من قبل والتي تبدأ وتركز على توحيد الله وتقواه وطاعته أولاً ثم انكار ما عليه أقوامهم من العادات القبيحة المنكرة ، بينما نجد العكس تماماً عند لوط عليه السلام وقد علل الالوسى نقلاً عن البحر هذه الظاهرة عند لوط بقوله :

"ولم يأت في قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه الى عبادة الله تعالى كما جاء في قصة ابراهيم وكذا في قصة شعيب الآتية لأن لوطاً كان من قوم ابراهيم وفي زمانه وقد سبقه الى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده ، واشتهر أمره عند الخلق فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها .. وأما ابراهيم وشعيب عليهما السلام فجاءا بعد انتقراض من كان يعبد الله عز وجل ويدعو اليه سبحانه فلذلك دعا كل منهما قومه الى عبادته تعالى كذا في البحر" (١).

ورغم وجاهة ما ذكره الالوسى الا أنى أرى أنه لا بد أن يكون لوط عليه السلام قد دعا قومه الى عبادة الله وتقواه وطاعته ، فتلك مهمة الرسل الأولى جميعاً ، ومانهيه اياهم عن ارتكاب فاحشتهم النكراء الا من صميم الدعوة الى توحيد الله بالعبادة واتقاء عذابه بالطاعة ، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال ، ولو أنهم وحدوا الله واتقوه وعبدوه حق عبادته ، لما وقعوا في تلك الارتكاسة الأخلاقية البغيضة

(١) تفسير الالوسى (روح المعاني) ١٥٣/٢٠ .

ونهيهم عن تلك الفاحشة يقتضى أولاً دعوتهم الى الايمان بالله وتوحيده في العبادة وتقواه ثم طاعة رسوله وتصديقه فيما يبلغ عن الله .
 وأستأنس في هذا الرأى بآيات من سورة الشعراء لاحقة ، حيث وردت دعوة لوط فيها ضمن منظومة دعوات الأنبياء أقوامهم من قبله ، داعياً قومه بمثل مادعوا اليه أقوامهم ، من الأمر بالتقوى والاطاعة واثبات صفتى الرسالة والأمانة لنفسه ثم نفى الطمع فيما بأيدي الناس من وراء الدعوة ، أضف الى ماسبق ما ذكر في الذاريات من أن ملائكة العذاب لما أتت القرية لم تجد غير بيت من المسلمين .. { فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين } (الذاريات : ٣٥-٣٦)

مما يدل على أن القوم لم يكونوا على التوحيد ، الأمر الذى يحتم على لوط دعوتهم الى التوحيد أولاً ثم نهيهم عن الفاحشة تبعاً لذلك ، ولعل السر في الاقتصار على انكاره فواحش القوم في هذه السورة وغيرها ، هو التهويل والتفطيع ببشاعة جرمهم حتى كأنه أبشع وأفظع من كفرهم بالله ، لأنهم ابتدعوا هذه الفاحشة المهددة للوجود البشرى على غير منوال سابق ولا بد من انكارها على منوال غير مسبوق أيضاً ، والله أعلم .

أما دعوة لوط في سورة الشعراء فلا تختلف في مقدماتها عن دعوة الرسل قبله أقوامهم ، حيث التركيز على التقوى والعبادة والاطاعة ونفى الطمع فى الأجر على الدعوة من أيدي المدعويين ، ثم انكار ما كان القوم عليه من سوء الأخلاق وفساد السلوك ، قال تعالى :

{ كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون } . (الشعراء : ١٦٠-١٦٤)

الجديد فى هذه السورة هو تسليط الانكار على اتيان "الذكران" وقوله "وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم" ، وفى قوله فى تذييل الآية "بل أنتم قوم عادون" .

ففى تسليط الانكار هنا على اتيان "الذكران من العالمين" زيادة معنى خلقت منه آية الأعراف ، {انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء} فذكر الذكران هنا مع "من" الفصلية الدالة على الفصل بين متخالفين ، يشير الى أن هذا الجرم القبيح الذى ابتدعه القوم قد خالفوا به جميع العالمين من الأنواع التى فيها ذكور واناث ، حيث لا يوجد من بينها من يأتى الذكور ، وفى هذا بيان بأنهم بهذا الفعل الفظيع قد خالفوا الفطرة مخالفة لا يقع فيها أحد حتى الحيوان الأبهم . وأنهم اختصوا باتيان الذكران من بين الخلائق أجمعين .

وفى قوله {وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم} تقييد لما يتبادر الى الذهن من اطلاق الاباحية فى النساء عامة فى قوله فى سورة الأعراف {انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء} فقيده ذلك بما أباحه لهم الشرع من النساء وهن الأزواج الشرعيات . كما أن فى قوله {وتذرون ما خلق لكم ربكم} اشارة الى أن فعلهم هذا تغيير لخلق الله الى جانب كونه مخالفة للفطرة العالمية .

ثم أضرب عن الموعدة بطريق الاستدلال العقلى ومخاطبة الفطرة الى الذم تصعيدا للانكار ومخاشنة بعد ملاينة ، فوصفهم بالعدوان المتمكن المبالغ والذى يفيد الاتيان بالجملة الاسمية فى قوله : {بل أنتم قوم عادون} جاعلا الخير "قوم عادون" غير مقتصر على "عادون" اشارة الى أن العدوان سجية فيهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم^(١) ، وفى ذكر العدوان "عادون" هنا مزيد بيان على مجاوزة الحد ووضع الشئ فى غير محله الذى يفيد الاسراف فى قوله فى سورة الأعراف {بل أنتم قوم مسرفون} وهذه الزيادة هى أن القوم فى اسرافهم معتدون على حقوق الآخرين حيث أن فى اتيانهم الذكران من دون النساء هضمًا للنساء واعتداء على حقوقهن الفطرية وتعطيلا

(١) راجع التحرير والتنوير ١٨٠/١٩ .

لوظائفهن . وقد خلت سورة الأعراف في تذييلها من هذه المعاني الزائدة على الاسراف لأن الاسراف قد يكون في حق المسرف نفسه لا يتجاوزه الى غيره ، فجاء بالعدوان هنا الذي هو مجاوزة الحد في الشر .

وتأتى دعوته في سورة النمل على وتيرة انكار الفاحشة بالاستفهام الانكارى ، قال تعالى :

{ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون} . (النمل : ٥٤-٥٥) ولا نجد اختلافا هنا الا في تذييل الآية الأولى {وأنتم تبصرون} حيث سلط الانكار على اتيانهم الفاحشة حالة كونهم مدركين لفظاعتها مبصرين بقلوبهم أنها خاطئة ومنكرة ، وفي هذا دلالة على أن القوم معاندون ومتعمدون في اتيانهم الرجال في الأدبار استمتعا وشهوة تاركين النساء اللاتي أباحهن الله لهم بالنكاح الشرعى^(١).

وكذا في تذييل الآية الثانية : {بل أنتم قوم تجهلون} حيث وصفهم بالجهالة وهى اسم جامع لأحوال أفن الرأى وقساوة القلب^(٢)، وهو أنسب لوصف عملهم هنا بأنه تعمد وعناد بقوله : {وأنتم تبصرون} لأن التعمد والعناد مظهر من مظاهر اهمال العقل الذى رزقه الانسان ومغالة في الجهل والسفه .

أما دعوته في سورة العنكبوت ، فكانت أكثر تفصيلا لمنكرات القوم الأخلاقية ، حيث تشير الآيات فيها الى أن القوم كانوا على منكرات متعددة فقد كانوا سيئى الأخلاق والنوايا ، لا يتعففون عن معصية ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، وكانوا أفجر الناس وأقبحهم سيرة وأخبثهم سريرة ، يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ، ويتربصون بكل مار ليسلبوه ماله ويكرهوه على الفاحشة ، يجاهرون بالفواحش غير مستترين ، ويروجونها في ناديهم

(١) راجع : المحرر الوجيز ١/١٢١ ، تفسير الطبرى ٩/١٧٥ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ١٩/٢٨٨ .

لايستحون .. قال تعالى :

{ولوطا اذ قال لقومه ، انكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين . أننكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى نادىكم المنكر} .
(العنكبوت : ٢٨-٢٩)

فالجدید فى الدعوة هنا اذن هو تسليط الانكار على شيئين آخرين بجانب اتيان الرجال ، هما : قطع السبيل على الناس لاكراههم على تعاطى هذه الفعلة الشنيعة أو لسلبهم أموالهم ، والثانى المجاهرة بهذه الفاحشة واتيانها على أعين الناس ترويجا لها بلاحياء ، وهذه اللفتة اضافة جديدة فى حلقات القصة .. وهكذا دعا لوط عليه السلام قومه الى التوحيد والتخلق بالصفات الحميدة والسلوك السوى والتحلّى بمكارم الأخلاق مع التخلّى عن الرذائل الأخلاقية بترك ما نهى الله عنه واتيان أوامره وطاعة رسوله واتقاء عذابه بافراده بالعبادة .

وقد سلك لوط عليه السلام فى دعوته وانكاره مساوىء القوم طريق الشدة فى بداية الأمر نظرا لفضاعة جرمهم واستمر على المخاشنة فى معظم السور ثم لاين فى سورة الشعراء ملاينة مشوبة بانذار فى قوله {ألا تتقون} ، وقوله {فاتقوا الله وأطيعون} ثم عاد الى التشديد والمخاشنة فى بقية السور . وقد تكرر انكاره تكررا يحمل بعض الاختلافات فى كل مرة ، مما يدل على أن الخطاب كان فى مقامات متباينة وأزمان مختلفة .. ففى سورة الأعراف مثلا يقول لوط عليه السلام :

{أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون} .

وفى سورة النمل يقول :

{أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون} .

وتتفق السورتان في انكار الفاحشة بالاجمال أو الابهام الا أن سورة الأعراف تحمل مع هذا الانكار بيان تفرد القوم بهذه الرذيلة بين الخلائق ، فهم أول الخلق اقترافاً لهذا الجرم العظيم وارتكاباً لهذه الفاحشة الفظيعة . ثم تأتي النمل لتضيف جديداً الى جانب الانكار ، وهو أن القوم كانوا على علم بقبح مايتعاطون فهم يبصرون الحياة والأحياء في جميع أنواعها وأجناسها تجرى على نسق الفطرة في المناكحة ، وهم وحدهم النشاز في منظومة الحياة والشواذ في وسط الحياة والأحياء .

واتفقت السورتان أيضاً في الانكار المبين أو المفصل لطبيعة الجريمة غير أن الأعراف تضيف جديداً هو تجاوزهم لحدود المعقول والمألوف وحدود الشريعة والعرف ، بوضعهم الأشياء في غير مواضعها وهو مايفيده الاضراب الانتقالي في قوله : {بل أنتم قوم مسرفون} ، بينما نجد الاضراب الانتقالي في سورة النمل يضيف وصفاً آخر للقوم هو ضعف عقولهم وآرائهم وجهلهم بعظمة الله وشديد بطشه وعظم قدرته ، فالجاهل مسرف في أفعاله والمسرف يجهل بأسرافه ، ووصفهم بالجهل أنسب لسياق تعمدهم اتيان الرجال من دون النساء رغم علمهم بقبحه ومنافاته للفطرة .

وتأتي سورة الشعراء فيرد الانكار فيها مرة واحدة {أتأتون الذكور من العالمين . وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} فتتفق مع السورتين السابقتين في انكار الفاحشة ثم تضيف بيانا فيه تقييد للمطلق في السورتين ، وهذا البيان هو قوله "من أزواجكم" ففيه تقييد لما أطلق في سورتي الأعراف والنمل وهو قوله تعالى : {من دون النساء} ، وفي قوله : {ماخلق لكم ربكم من أزواجكم} إشارة الى أن النساء هن اللواتي خلقن للرجال لهذا الغرض ، وهو مايفيده تقديم الجار والمجرور "لكم" المفيد للاهتمام بالمخاطبين وجعل الأزواج من النساء كأنهن خلقن لهم . وفي قوله {من أزواجكم} بيان بأن الاستمتاع من النساء اللواتي خلقن لهذا الغرض ليس متروكا على عواهنه وإنما هو مقيد بزواج شرعي ، كما

يشم من وراء ذلك أن القوم كانت لديهم أزواج فتركوهن الى الرجال وهذا منتهى المجاهرة بالمعصية ، وغاية فساد الطبع وتلوث السلوك فيهم ، حيث تركوا الطريق الطبيعي لقضاء الشهوة وارواء غلة الغريزة فأصبحوا بذلك عادين متجاوزين لحدود الفطرة وحدود الشرع ، ومعتدين على النساء بهضم حقوقهن الفطرية ، وهذا سر التذليل بقوله : {بل أنتم قوم عادون} حيث وصفهم هنا بالعدوان بعد أن وصفهم في الأعراف بالاسراف الذي هو أنسب لطابع الانذار الذي يسرى في جو السورة وينتظم جميع قصصها . ثم تأتي سورة العنكبوت أخيرا لتضيف جديدا بعد اتفاقها مع سورتي الأعراف والنمل في اشتمالهما انكار الفاحشة جملة ومفصلة أو مبهمة ومبينة وهذا الجديد هو عدم اكتفاء القوم بارتكاب هذه الفاحشة النكراء مع بعضهم البعض ممن يشتركون في الرغبة والهواية معهم ، وانما يرغمون المارة عليها ويسلبونهم أموالهم ، وأضافت أيضا مجاهرتهم بهذه الفاحشة في مجالسهم بحيث ينظر بعضهم الى بعض وهم يتعاطون المنكر من غير استتار أو احتجاب ، فلأمانع لهم من حياء ومروءة ولأرداع لهم من دين ونصيحة ، فهم لا يراعون عن غيهم لوعظ واعظ ، ولا يصغون لنصيحة من عاقل . ومما سبق نلاحظ أن القصة لما تتكرر في القرآن ، غالبا ما تحمل في التكرار اضافات جديدة تكشف عن جوانب أخرى من القصة لم تذكر من قبل أو تفصل مجملات لم توضح من قبل أو تبين مبهمات لم تفسر فيما سبق على نحو ما رأينا في قصة لوط عليه السلام وقصص من سبقه من الأنبياء .. فالتكرار في القرآن اذن جاء تلبية لمقتضيات المقام ومتطلبات السياق .

وهناك ملحوظة مهمة في عرض قصة لوط عليه السلام في سورة الأعراف جديرة بالوقفة والتأمل حيث اختلف السياق عند بدء القصة عن أنماط السياق في بدء القصص السابقة عليها ، فقد بدأت قصة نوح عليه السلام بقوله تعالى : {أرسلنا نوحا الى قومه} ثم نسق من بعده عليه فقيل : {والى عاد أخاهم هودا} ، {والى ثمود أخاهم صالحا} ، {والى مدين أخاهم شعيبا} ، وعدل عن هذا الأسلوب في قصة لوط فلم يقل :

والى أدوما أو أهل سدوم أخاهم لوطا ، ولاصدر بأرسلنا كما فى قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى التى أتت بعد قصة لوط فى نفس السورة . واذا كان من مقاصد سرد هذه القصص فى القرآن تسليية النبى صلى الله عليه وسلم فى مخالفة قومه له وعدم استجابتهم لدعوته مع شدة أذاهم له وللمؤمنين ، واذا كان من مقاصدها أيضا انذار قومه عاقبة مثل عاقبة من كذبوا الرسل من قبلهم وآذوهم مع أتباعهم ، فان المشابهة بين هذه الأمم السابقة - ماعدا قوم لوط - وبين قريش فى الشرك بالله والتكذيب لرسوله والأذى لعباده المؤمنين جلية وقوية ، وهذا سر سوق هذه القصص على منوال واحد ونمط متقارب ، ولما تفرد قوم لوط عليه السلام بأمر فظيع عظيم الشناعة ، شديد العار والفحش ، عدل عن هذا النسق الذى انتظم القصص السابقة واللاحقة تهويلا للأمر وتشنيعا له ليكون فى التسليية أشد ، وفى استدعاء الحمد والشكر أتم ، فما حصل على لوط من قومه زائد على ما حصل للأنبياء قبله وبعده ، حيث رأى فيهم الى جانب الشرك هذا الأمر الذى لم يبق للشناعة موضعا ، ويكفيه شناعة أنه قرين الشرك فى عدم تحليله فى ملة من الملل وفى وقت من الأوقات . وبهذا المعنى يترجح أن يكون العامل فى "اذ" "اذكر" لا "أرسلنا"^(١).

(١) راجع نظم الدرر ٤٥٢/٧ بتصريف .

دعوة يوسف عليه السلام الى التوحيد :

وتبدأ دعوة يوسف عليه السلام الى التوحيد في السجن بعد حادثة مراودة امرأة العزيز له ، ومحاولتها تلويث أخلاقه وتلطيخه بالرديلة فأبطل الله كيدها وأثبت براءته وعصمته بالبرهان القاطع ، ثم زج الى السجن ظلما وبهتاناً ، وان كان ذلك تلبية لرغبته واستجابة لدعائه .

وقد كان نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام في سجنه حسن السيرة طيب السريرة ، لين الجانب لدى السجناء جميعا لرعايته لهم وقيامه على شؤونهم بالمواساة وتمحيض النصح ، فكان له بذلك في نفوس السجناء منزلة رفيعة ومكانة عليية وكل تقدير وعناية ، مما حدا بساقى الملك وخبازه المسجونين معه عليه السلام الى أن يطلبوا منه تأويل رؤياهما ، فانتهاز يوسف عليه السلام هذه الفرصة ، لنشر دعوته وبث عقيدته وهى عقيدة التوحيد الخالص من كل شرك بالله رب العالمين ، مستفيدا في ذلك من نعمة تأويل الرؤى التى أنعم الله به عليه ، فطمأن يوسف عليه السلام صاحبى السجن بادىء ذى بدء على أنه سيؤول لهما رؤياهما لأن التأويل مما علمه ربه ، واستعمل "من" للتبعيض للاشعار بأن تأويل الرؤيا جزء يسير مما علمه ربه وفى ذلك تشويق لهم الى معرفة مآلديه من علوم ، وأن علمه علم لدنى ليس فيه كسب ولا تحصيل فهو علم خاص علمه اياه ربه جزاء تجرده لعبادته وحده وتركه عبادة قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فهم يشركون معه في العبادة غيره ، ولا تباعه ملة آباءه ابراهيم واسحاق ويعقوب وهى ملة التوحيد التى لا يشرك فيها مع الله غيره لأن ذلك لا ينبغى لأهل هذه الملة لمنافاته مقتضى الشكر على المنعم المتفضل وما كان ينبغى للناس جميعا لو أنهم شكروا فضل الله عليهم بنعمة الابدان والتدبير ، قال تعالى :

{قال لاياتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون .
واتبعت ملة آباءى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون} . (يوسف :

وبهذا الأسلوب الذى يوحى بالثقة التامة على ألوهية مصدر علم يوسف عليه السلام بالمغيبات بفضل الله ، فىرى به مقبل الرزق وينبىء الناس بما يرى ، يدخل يوسف عليه السلام الى قلبى صاحبيه للدعوة الى ربه الأوحد معللا بأن ماأدهشهما من علمه وانبهرتا به من سلوكه انما هو هبة من ربه الذى ربه فأحسن تربيته وعلمه من تأويل الأحاديث وهو العلم الذى سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه ، وهذا سر فصل جملة {ذلكما مما علمنى ربى} ، ثم استأنف معللا لهذا التعليم وهذه الهبة بتأكيد كونه من أهل التوحيد الذين تركوا ملة الكفر والشرك ، وهى الملة التى يدين بها القوم الذين تربى يوسف فيهم وهم أهل بيت العزيز وحاشية الملك والملا من القوم والشعب الذى يتبعهم ، وهذا سر فصل الجملة ، وأكد للاهتمام بترك الكفر ولتوقع حدوث انكار . وهنا ملمح لطيف جدير بالوقوف والملاحظة ، وهو أدب النبوة الذى يتجلى فى عدم مواجهة الفتيين بشخصيهما رغم كونهما على ملة القوم ، وانما يواجه القوم عامة كى لا يخرجهما ولا ينفرهما ، وتلك كياسة وحكمة ولطافة وحسن مدخل ينبغى على الدعاة الى الله أن يتحلوا بها فى دعوتهم لأنها ميراث النبوة . ثم يمضى يوسف عليه السلام فى وصف ضلال القوم ، فهم لا يؤمنون بالبعث والحساب ، وهما مقومتان أساسيتان لصحوة النفس والضمير لمراقبة ربها وكبح جماح شهواتها ، ومحاسبة نفسها كل حين ، خوفا من سوء المصير ، وقصر الكفر بالآخرة عليهم دون غيرهم بزيادة ضمير الفصل "هم" لافراطهم فى الكفر .

وبعد هذه المقدمة التى هيا بها يوسف عليه السلام صاحبيه فى السجن لسماع دعوته ، يقف معهم وقفة متأملة متأنية ، مسترعيا انتباههما واهتمامهما للاستماع اليه بطريق النداء "يا" الموضوع لنداء البعيد ، طلبا لاقبالهما عليه بكل اهتمام وتركيز ، مثيرا فيهما دوافع التفكير المنطقى السليم الذى يزن الأمور بميزان العقل والعدل والفضيلة ، وذلك عن طريق الاستفهام التقريرى فى قوله :

{ياصاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار .
 ماتعدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان
 ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
 لا يعلمون} . (يوسف : ٣٩-٤٠)

فهو فى هذه الآيات لا يدعوها الى التوحيد دعوة مباشرة ، وإنما
 يعرض عليهما قضية موضوعية فيتساءل مقررا أعبادة أرباب متعددين متكثرين
 مختلفى الأهواء والمنازع ، متباينى الأجناس والطبائع ، مقهورين متأثرين من
 غيرهم غير مؤثرين ، خير أم عبادة الله الواحد القهار المتفرد بالألوهية ،
 الغالب الذى لا يغالبه أحد ولا ينازعه فى ملكه شريك ، الممسك بنواصى
 الخلق جميعا ، المالك لهذا الكون ، المسير له والمتصرف فيه والقاهر له
 بسلطانه؟

لاشك أن الفطر السليمة لاتعرف لها الا الها واحدا وربما أوجد
 يستحق وحده العبادة والطاعة لكماله ، ولأن سلطانه هو القاهر للوجود
 وتبعاً لذلك لابد أن يكون سلطانه هو القاهر فى حياة الناس أيضا ، ولأن
 غيره عاجز عن تسيير أمر هذا الكون فكيف يكون ربا للناس يقهرهم بحكمه
 وهو مقهور مع الناس تحت سلطان الواحد القهار .

وهنا نفى أن تكون معبوداتهم تستحق أدنى معنى من معانى الألوهية
 بل ماهى الا أسماء فارغة ليس تحتها حتى مسميات ، فهى لاحقيقة لها فى
 الوجود الا أسماؤها ، وهذا سر الاتيان بالقصر الاضافى هنا بمعنى القلب ،
 لأن فى التعبير قلبا لمعتقداتهم فى هذه الأوثان . فما عبادة الأصنام والأوثان
 الا محض افتراء منكم ما أنزل الله من حجة على عبادتها ، وفى ذكر آباؤهم
 معهم فى التسمية قطع لاعتذارهم بأن ذلك دين الآباء ، واذا كانت أسماء
 جوفاء ليس تحتها مسميات فهى لاطائل من وراء عبادتها فلاحكم لها ، وإنما
 الحكم للمتصف بصفات الكمال والجلال ، وقد أمر {ألا تعبدوا الا اياه} ،
 فالعبادة مقصورة عليه لاتتجاوزه الى غيره ، وهذا التوحيد فى العبادة هو

الذى يستقيم معه دين ولادين قيم سواه لأنه الذى دلت عليه البراهين العقلية والنقلية . وهذا سر القصر بطريق تعريف الطرفين فى الآية {ذلك الدين القيم [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] ، هذه الحقيقة لجهلهم تلك البراهين عقلا ونقلا أو أنهم لا يعلمون شيئا أصلا فيعبدون أسماء سموها من عند أنفسهم معرضين عما يقتضيه العقل ويسوق إليه سائق النقل ، ومنشأ هذا الاعراض الوقوف عند المؤلفات والتقييد بالحسيات وهو مركز في أكثر الطبائع^(١). وهكذا هز يوسف عليه السلام أركان الشرك فى قلبه صاحبيه وأتى على بنيانه من القواعد بمخاطبة عقلهما ونفض غبار الشرك الذى ران على قلبيهما .

ونلاحظ أن يوسف عليه السلام قد دعاهما الى التوحيد عن طريق الترغيب المتمثل فى تعليه للموهبة اللدنية التى وهبها الله اياه ، لترك ملة الكفر والشرك والتمسك بملة التوحيد الخالص من كل شرك كما استعمل التهيب فى دعوتهما بذكر الآخرة بما فيها من حساب والجزاء من جنس العمل ان خيرا فخير وان شرا فشر .. ثم دعاهما الى التوحيد عن طريق اثبات صفات الكمال والقدرة المطلقة لله وفيه اثبات عجز الأصنام المطلق ، المعبودة من دون الله افتراء وكذبا سواء أكانت من البشر أم الجمادات . أضف الى ذلك ما كان منه عليه السلام من سلوك طيب محمود وأخلاق كريمة عالية شهد له بها السجناء ، وأقر بها صاحبها السجن فى قولهما {انا نراك من المحسنين} .

ونلاحظ دعوته الى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات بصفة غير مباشرة عندما رفض اغراء امرأة العزيز له بمواقعتها {قال معاذ الله انه ربي أحسن مثنواى} (يوسف : ٣٦)

(١) يراجع : روح المعانى ٢٤٥/١٢ ، ارشاد العقل السليم ١٤٨/٣ .

فرفضه الفاحشة مستعيذا منها بالله ، تعليم لامرأة العزيز بأن ترفض
 هي الأخرى تلك الفاحشة ، لأنها تلوث الشرف وتورث صاحبها غضب
 الله ، ومن حل عليه غضب الله فانه لايفلح أبدا الا أن يتداركه الله
 برحمته فيغفر له .. وفي الرفض دعوة لها أيضا الى التخلي عن الرذائل
 والتخلي بالفضائل والأخلاق الكريمة التي تأبى على صاحبها الرذيلة وترضى
 له بالفضيلة .

وتصل الدعوة الى مكارم الأخلاق قممتها عند يوسف عليه السلام عن
 طريق سلوكه - وهي ما أطلق عليه الدعوة عن طريق اعطاء القدوة الحسنة -
 عندما يطلب من ربه الرحيم به ، أن يدخله السجن لأن ذلك أرحم له
 وأهون عليه من الصبوة الى النسوة والوقوع فى الفاحشة التى لاتألو النسوة
 جهدا فى طلب ايقاعه فيها فيقول : {رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه
 والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين} . (يوسف : ٣٣)
 فقد طلب السجن ورضى به وهو الذى تهدده به امرأة العزيز ان لم
 يمتثل لأمرها ويلبى رغبتها ، فالسجن أرحم عنده وأحسن من أن يلطخ جبينه
 بما يسىء الى أخلاقه الكريمة وسيرته الشريفة الطاهرة ، ووفائه لمن ائتمنه
 على عرضه وشرفه ، فليكن السجن فرارا بدينه ، وصونا لشرفه ، وطهارة
 لقلبه الطاهر ، كيف لا وهو النبى ابن النبى ابن النبى .

دعوة شعيب عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

تبدأ دعوة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف بمثل مابداً به الرسل من قبله من دعوة الى التوحيد أولاً ، ثم الدعوة الى مكارم الأخلاق عن طريق انكار مساوئ الأخلاق عند أقوامهم ، يقول تعالى :

{والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان . ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا اذ كنتم قليلاً فكثركم . وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين} . (الأعراف : ٨٥-٨٧)

الجديد في دعوة شعيب عليه السلام بعد الدعوة الى التوحيد الذى لم يختلف في الدعوة اليه عن سبقه من الأنبياء في هذه السورة ، هو الدعوة الى مكارم الأخلاق في المعاملات والمبايعات ، وذلك عن طريق انكار مساوئ القوم في المعاملات والمبايعات ، وتتمثل هذه المفاسد الأخلاقية في تطفيف الكيل والميزان وأنواع الظلم المتمثلة في البخس والمكس في كل شىء فهم ينتقصون حقوق الناس في المبايعات من الثمن والمبيع ويبخسون الناس حقوقهم من المعاملة والتوقير اللائق بهم ، وبيان فضلهم على ما هو عليه للسائل عنه (١).

فأمرهم شعيب عليه السلام بمقابلها من الأخلاق الفاضلة من الايفاء والعدل والاصلاح ، ثم نهاهم عن الافساد جملة بعد ذلك التفصيل المتناول لمنكراته عليهم فقال : {لا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها} ليعم النهى كل فساد بعد البخس ، من وضع شىء من حق الحق أو الخلق في غير موضعه ، بعد أن أصلحها الله بوضع كل شىء في موضعه اللائق به عن طريق الأنبياء

(١) راجع روح البيان ١٧٧/٨ بتصرف .

واتباعهم من قبل ، مبينا لهم في ترغيب أن في امتثالهم أوامره واجتنابهم نواهيه نفعا لهم وخيرا ان كانوا مصدقين أقواله ، أو أنه نافع لهم عند الله مكسب فوزه ورضوانه بشرط الايمان والتوحيد والا فلا ينفج عمل دون ايمان^(١) ، وأرجح هنا حذف جواب الشرط المقدر بـ "فهو خير لكم" لأن ذلك أنسب لمقام الدعوة الى الايمان والتوحيد ، لأن الايمان ينتج العمل الصالح [والمؤمن يثاب على فعله لبنائه له على أساس الايمان ، والكافر أعماله فاسدة فلا يكون فعله لهذه الأشياء خيرا له من جهة اسعاده في الآخرة لأنه لا ثواب له]^(٢).

ثم بدأ شعيب عليه السلام يفصل بعد الاجمال فينهاهم عن ترصد كل من يخالفهم في الدين والدنيا ، والحلال والحرام ، و الأوامر والنواهي وغير ذلك ، لمقام التعميم في قوله "بكل صراط" أى تتهددون من يسلك طريقا من هذه الطرق بكل شر ان لم يوافقكم على ماتريدون ، ثم خص طريق الدين بالذكر لأهميته القسوى ولكون الطرق الأخرى قائمة عليه ، فقال : {وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا} ، ولكون هذه الأعمال السيئة منافية لمقتضى النعمة التى يتقبلون فيها وهى من الله الذى يصدون الناس عن الايمان به ، وكان الأخرى بهم أن يعبدوه ويوحدوه لأنه واهب هذه النعم ، عطف على قوله "اعبدوا الله" ومابعده من الأوامر والنواهي ، جملة {واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم} اشارة الى أنه ماكان ينبغى في دين العقل مقابلة الاحسان بالاساءة ، والنعمة بالكفران . ثم عطف عليها أيضا جملة {وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين} انذارا باجتثاثهم عن وجه الأرض وقد علموا قصة من قبلهم من الأمم المكذبة للرسل حيث نزل عليهم من المثلات والنكبات مافيه مزدجر لهم ، ألم يهلك بعضهم بالغرق والطوفان ،

(١) راجع المحرر الوجيز ١٥٨/٧ بتصرف .

(٢) راجع نظم الدرر ٤٦١/٧ .

وبعضهم رجما بالحجارة وآخرون منهم بالصيحة ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، والانذار في هذه الآية متناسق مع لهجة الانذار الغالب على سورة الأعراف .

ثم تأتي أخيرا لهجة التهديد المناسب للانذار أيضا ، في قول شعيب عليه السلام : {وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين} .

فالأمر في قوله : "فاصبروا" يراد به التهديد ان كان موجها الى الكفار ويحتمل أن يكون موجها الى المؤمنين فيكون موعظة لهم وحثا على الصبر واحتمال ماكان يلحقهم من أذى المشركين الى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم (١).

ونلاحظ فيما سبق من خطاب شعيب قومه تعاقب الأمر مع النهى وهو أسلوب يسرى تقريبا في جميع خطابات الأنبياء شعيب عليه السلام فهاهو ذا في سورة هود يبدأ دعوته بعد الدعوة الى التوحيد بمثل مابدأ به في سورة الأعراف حيث الإنكار على مساوىء القوم الأخلاقية في المعاملات والمبيعات ، ولكن الصورة هنا تختلف عنها في سورة الأعراف ، فقد بدأ هنا بالنهى المناسب لجو المخاشنة ، والغضب في هذه السورة ، معللا نهيهم بعدم حاجتهم الى ذلك لكونهم على الخير الوفير الذى يغنيهم عن التطفيف فهم في "غنى وثروة طائلة وزينة الحياة الدنيا ورخص السعر" (٢) ، ولتخوفه عليهم عذاب يوم محيط ، قال تعالى :

{والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وماأنا عليكم بحفيظ} . (هود : ٨٤-٨٦)

(١) راجع روج البيان ١٧٩/٨ .

(٢) تفسير الطبرى ٩٩/١٢ .

فقد نهاهم هنا عن التطفيف لعدم وجود موجب له من حاجة أو فقر
ولما يترتب عليه من العذاب المحيط .

ولم يكتف بالنهي بل أتبعه بالأمر باصلاح ماأفسدوه وجعلوه معيارا
لظلمهم وقانونا لعداوتهم^(١).

وايفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصها لأنه هو العدل والقسط .
ثم نهاهم عن البخس ، وهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل
نوع ، كيلا أو وزنا، أو سعرا أو تقديرا، وتقويمها ماديا ومعنويا .

ثم نهاهم عن الافساد والقصد اليه قصدا متعمدا مفسدين بذلك دينهم
وآخرتهم ، فقد قيل انه تعليل للنهي كأنه قيل : "لا تفسدوا في الأرض فانه
مفسد لدينكم وآخرتكم"^(٢).

ثم أشار عليهم بما هو خير وأبقى من ذلك الكسب الدنس الحرام
المحصول من وراء التطفيف وبخس الناس فقال : {بقية الله خير لكم ان
كنتم مؤمنين} ، أى ماأبقاه الله لكم من الربح الحلال بعد الايفاء خير لكم
وأدوم مما تجمعون بالبخس والتطفيف ، أو ان ثواب الله في الآخرة على
الايفاء خير لكم بشرط الايمان اذ مع الكفر لاخير في شىء أصلا .. ثم بين
أنه ليس برقيب عليهم في أعمالهم ولا يحفيظ عليهم ، نعم الله ان لم يقلعوا
عن سوء صنيعهم وبذلك خلى بينهم وبين الله الذى دعاهم اليه وبين لهم
أنه لايملك لهم شيئا ، كما أنه ليس حفيظا عليهم من الضلال والامسئولا
عنهم ان ضلوا وانما عليه البلاغ وقد فعل .

ونلاحظ في أسلوب دعوة شعيب هنا مغايرة عما هو عليه في سورة
الأعراف ، فالدعوة هنا بعد التوحيد بالنهي عن التطفيف في المكيال والميزان ،
وعقبه بالأمر بايفاء المكيال والميزان بالقسط ليشعرهم بهذا التعاقب بين الأمر
والنهي ، بأنه لايكفى عدم التطفيف في الكيل والميزان ولكنه لابد من معاينة

(١) راجع : روح المعاني ٦/١١٥ ، تفسير ابن كثير ٢/٤٧٢ .

(٢) روح المعاني ١٢/١١٦ .

ذلك بايفاء المكيال والميزان بالعدل فلا ضرر ولا ضرار ، وبذلك يعالجون ما أفسدوه بظلمهم من التطفيف .

ونلاحظ أيضا تعدد الأوامر وتعاقبها في خطاب شعيب في السورتين ، ولعل السر في ذلك اقتضاء مقام الدعوة المراجعة والمعاودة واللاحاح والاصرار لمواجهة عناد الأقوام واصرارهم على الشرك والمعاصي ورفض الدعوة . كما أن السر في تعدد النواهي أيضا في خطابه يفصح عن التدرج في نهيه القوم عن المساوىء الأخلاقية المترسخة فيهم ، كما ينبىء عن مدى تمكن المنهى عنه في نفوسهم وتعدد مساوئهم وشيوعها .

أما دعوته في سورة الشعراء ، فجاءت في اطار دعوات الرسل من قبله التي اشتملت على دعوة الى التوحيد والتقوى والطاعة واثبات صفتى الرسالة والأمانة ونفى الطمع فيما عند المدعويين لقاء الدعوة . وقد جاءت الألفاظ في دعاء كل نبي من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها لتشير الى وحدة المدعو اليه وأنه معنى واحد بعينه مما يدل على وحدة الرسل والرسالات ، مما يجعل تكذيب واحد منهم تكذيبا للكل . قال تعالى :

{كذب أصحاب الأيكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب ألا تتقون انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين} . (الشعراء : ١٧٦-١٨٤)

الجديد في هذه السورة أنه بعد الدعوة الى التوحيد أمرهم بايفاء الكيل ونهاهم عن التطفيف بأسلوب جمع لهم فيه أنواع الكيل الثلاثة "فالكيل على ثلاثة أضرب ، واف وظيف وزائد . فأمرهم بالواجب الذى هو الايفاء بقوله : {أوفوا الكيل} ، ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف ، بقوله : {ولا تكونوا من المخسرين} ، ولم يذكر الزائد لأنه بحيث ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلاثم عليه" (١) . ولأنه أخذ بالأحوط فلم يجب .

ومن الجديد فيها أيضا ، تعليمهم كيفية الايفاء {وزنوا بالقسطاس المستقيم} .

وأخيرا دعاهم الى تقوى الله واتباعه بتذكيرهم بنعمة اليجاد بعد العدم ، وأن الله هو خالقهم الوحيد وخالق الأجيال كلها والسابقين جميعا ولهذا فهو وحده المستحق للعبادة ، وفي التذكير بنعمة اليجاد من العدم ، تهديد بنقمة الاهلاك بعد اليجاد ان استمروا على الكفر والعناد فمن قدر على اليجاد أو الخلق فهو على الاهلاك أقدر ، وفي هذا الأمر المفيد للتهديد استجاشة لمشاعر التقوى فيهم بتفضيل جانب السلامة على جانب الهلاك . أما دعوة شعيب عليه السلام في سورة العنكبوت ، فقد بدأت بالتوحيد ثم النصح بابتغاء حسن الجزاء في الآخرة ، ثم الانكار بشكل اجمالى لمنكرات القوم وفسادهم وذلك عن طريق نهيمهم عن تعمد الفساد عموما ، قال تعالى :

{والى مدين أخاهم شعيبا ، فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر . ولا تعثوا فى الأرض مفسدين} . (العنكبوت : ٣٦-٣٨)

وذكر الآخرة هنا من قصة شعيب مع قومه يناسب سياق القصة التى جىء بها لاقامة الأدلة على البعث والحساب ، وفى الدعوة الى الايمان بالبعث والحساب وحث القوم على التماس جانب السلامة فى ذلك اليوم بالعمل على الفوز بحسن الجزاء فيه ، حيث يجازى الناس على أعمالهم فيها والجزاء من جنس العمل ، نعم فى ذكر ذلك على سبيل الرجاء فيه والخوف منه ، تخويف وردع عن الفساد والشرك لأن الظالم المفسد اذا أيقن أنه لاحالة محاسب على أفعاله ومعاقب على جرمه ارعوى عن غيه ، وأقلع عن فساده وبغيه ان كان فيه مسحة من عقل .

ومما سبق يمكن القول بأن شعيبا لم يدخر وسعا فى دعوة قومه ، فقد استنفذ جميع الأساليب المتاحة له ، فلاين وشدد ، ورغب وهدد ، وذكر بنعم الله مرغبا ، كما هدد بنقمة منذرا .

وقد كرر بعض الأساليب تكرارا يضيف جديدا في الدعوة ويكشف أبعادا للدعوة لم تكن مكشوفة فيما سبق ، فرغم أن جميع السور التي وردت فيها دعوة شعيب عليه السلام قد تضمنت دعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق والنهي عن مساوئها التي تمثلت في تطيف المكيال والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ، وتعمد الافساد في الأرض بعد اصلاحها ، الا أن هناك جوانب تفردت بها كل سورة عن اخواتها تعتبر هذه الجوانب اضافات جديدة في المواضيع المشتركة ، وبذلك تتعاضد السور جميعا في النهاية لتعطي صورة كاملة غير منقوصة عن جميع أبعاد الدعوة .. ففى سورة الأعراف نجد ذكرا للبيئة التي أعطاها الله لشعيب تصديقا لرسالته ، وهى مالم نجد لها ذكرا في بقية السور التي تناولت مع الأعراف دعوة شعيب عليه السلام، ثم ان سورة الأعراف قد تناولت الأمر بايفاء الكيل والميزان ثم النهى عن البخس بينما نجد سورة هود قد تناولت ذات الموضوع بطريقة أخرى فيها تأكيد على ترك التطيف حيث بدأت بالنهى عن التطيف في المكيال والميزان ، معللا بعدم وجود مبرر له، لما يتمتعون به من الغنى والثراء والخير الوفير {انى أراكم بخير} ، مضافا الى ذلك علة أخرى هى خوفه عليهم عذاب يوم محيط .

ثم أعقب هذا النهى بالأمر بايفاء المكيال والميزان بالقسط ، ليضيف معنى جديدا هو أنه لايكفى مجرد ترك التطيف ، وانما يجب أن يصطحب ترك التطيف ايفاء المكايل والموازين بالعدل .

كما تفردت الأعراف بذكر جرائم أخرى للقوم تمثلت في قطع الطريق وتهديد من يريد الايمان بالقتل ، والصد عن سبيل الله بالتقول على نبيه بما ليس بحق والتماس العيب والعوج لدين الله صرفا للناس عنه . وقد خلت سورة هود من هذه الاضافات .

وتفردت سورة الشعراء بذكر وظيفة شعيب عليه السلام وهى تبليغ رسالة ربه، ثم ذكرت صفة هذه الوظيفة وهى الأمانة فى التبليغ ، {انى لكم رسول أمين} مما يبنى بتكذيب القوم اياه ، كما تفردت بذكر نفى الطمع

عن نفسه فيما بأيدي الناس أو أى مقابل منهم لقاء دعوته اياهم ، وتوجهه في طلب الأجر الى رب العالمين ، صاحب النعم كلها ، وأضافت أخيرا كيفية ايفاء المكيال والميزان وذلك باستعمال القسطاس السوى {وزنوا بالقسطاس المستقيم} .

ثم تأتي سورة العنكبوت لتضيف الدعوة الى الايمان بالبعث ومافيه من حساب ان خيرا فخييرا ، وان شرا فشرا .

وهكذا نلاحظ أن المكررات في دعوة شعيب عليه السلام جاءت في كل مرة مليية لداعى الموقف واستجابة لمقتضى المقام الذى لا يستغنى عنه بما في السور الأخرى في عرضها الموضوع نفسه ، كما أن اختلاف العرض كان استجابة لسياق القصة في كل سورة ، وتحقيقا لبعض مقاصدها كما رأينا فيما سبق .

دعوة موسى وهارون عليهما السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

أرسل الله موسى عليه السلام الى فرعون مصر لدعوته الى التوحيد ومكارم الأخلاق ، وتخليص بني اسرائيل الذين هم قوم موسى عليه السلام من أسر فرعون واسترقاقه لهم وتعذيبه اياهم ، ليخرجوا من مصر الى الأرض المقدسة حيث يتسنى لهم عبادة الله وحده دون شريك ، فهو ربهم ورب فرعون ورب العالمين جميعا ، وبهذا تكون دعوة موسى الى فرعون ذات مطلبين أساسيين هما :

دعوة فرعون الى التوحيد ، وارسال بني اسرائيل مع موسى عليه السلام .

ولاشك أن المهمة شاقة والحمل ثقيل ، ففرعون هو الذى ادعى لنفسه الألوهية والربوبية وظل دهرا يستعبد بني اسرائيل بتكليفهم الأعمال الشاقة والحقيرة فى مملكته ، فاقراره بوجود الخالق ووجدانيته ، وارسال بني اسرائيل مع موسى يعنىان دوال دولته ، وذهاب هيئته فى شعبه وزوال ملكه .. وكان نبى الله موسى مدركا لصعوبة مهمته فهو أعرف الناس بهذا الجبار وقد تربى فى قصره ونشأ فى حضنه ، فهياًه الله لهذه المهمة وأداء الرسالة وأيده بعد معيته له بالمعجزات ، وشد عضده بأخيه هارون عليه السلام وزيراً نبياً يصدقه فى كل مايقول ، وقد واجه فرعون برسالته فى سورة الأعراف حيث يقول :

{وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل} .
(الأعراف : ١٠٤-١٠٥)

فقد نادى فرعون بأحب الألقاب اليه وأشرفه له "يافرعون" ، ثم أكد له أنه رسول من رب العالمين أى رب الخلق جميعا ، بما فيهم فرعون وملايئه فهم جميعا تحت قهره وتدبيره ، ثم استأنف ببيان مايلزم الرسول من صدق وأمانة فى التبليغ عن الله وهو على تلك الصفة فلايقول على الله الا الحق ،

ومع ذلك فهو مؤيد من الله بالبينه التي تدل على صدقه في رسالته ، وعليه فليخل فرعون سبيل بنى اسرائيل ويرسلهم معه ليعبدوا من هم مربوبون له . أما دعوته في سورة ابراهيم فكانت موجهة الى بنى اسرائيل بطريق التذكير بنعم الله عليهم ، وكان ذلك بعد أن نجاهم الله من فرعون وملايئه فلم يقوموا بمقتضى الشكر المناسب لتلك النعم العظيمة ، قال تعالى :

{واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم} .

ونلاحظ أن موسى عليه السلام قد اتخذ أسلوب التفصيل بعد الاجمال وسيلة للتذكير بنعم الله فقد أجمل النعمة في البداية ثم فصلها بكونها انجاء الله لهم من آل فرعون في سومهم اياهم سوء العذاب ، وفى هذا التفصيل اجمال أيضا فصله بقوله : {ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم} . وفى هذا تعريض بسلب النعمة وحلول النعمة من جديد في حالة عصيانهم لله ورسوله وهو ما صرح به موسى عليه السلام في قوله بعد ذلك : {واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد} .

وسر عطف جملة "ويذبحون أبناءكم" على جملة "يسومونكم سوء العذاب" للاشعار بأنه عذاب مغاير لما أجمل في الجملة المعطوفة عليها ، لأنه خرج عن مرتبة العذاب المعتاد ، دفعا لتحقيق رؤيا فرعون التي أفضتته ، ومع ذلك لم يجزه احتياطه عن قضاء الله شيئا^(١) . فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام .

ومما سبق نرى أن موسى دعاهم الى التوحيد والطاعة عن طريق التذكير بنعمة الله العظيمة عليهم والتي تقتضى منهم شكر المنعم بها على أفضله ، وصرف العبادة والشكر اليه وحده بامتنال أوامره واجتناب

(١) راجع ارشاد العقل السليم ٢٤٢/٣ .

زواجه وطاعة رسوله ، ثم عقب هذا الأسلوب بالترغيب فيما عند الله من الخيرات بتحقيق الشكر الذى هو قيد الوجود وصيد المفقود من النعم والآلاء ، ثم أتبع ذلك بالترهيب من عاقبة كفران النعم وعدم العمل على مقتضى الشكر ، وهو العذاب الشديد والسلب الأكيد لهذه النعم الجليلة ، وأكد هذا المعنى بجملة من المؤكدات لتوقع حدوث الانكار أو تنزيلا لهم منزلة المنكر لظهور أمارات الانكار التى منها عدم العمل بمقتضى الشكر . ثم ذكر استغناء الله تعالى عن عباده لأنه صاحب الكمال المطلق المالك لكل شىء ، لا يحتاج الى خلقه بل الخلق عيال عليه وفقراء اليه وهو ذو حمد محمود بذاته بما أنعم على خلقه من نعم لا تعد ولا تحصى . {وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فان الله لغنى حميد} . (ابراهيم : ٨) وفى هذا دفع لتوهم أن الايمان احسان الى الله وتحقيق لمصلحة الأنبياء الداعين الى ذلك ، وسر عطف هذه الجملة بالواو مع اعادة فعل القول لدفع توهم أن يكون هذا القول مما تأذن به الرب فى قوله تعالى : {واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد} ، والعطف يقتضى المغايرة ، وفى اعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتى تبرز فى صورة مستقلة وحتى يصغى اليها السامعون الى القرآن (١).

على أن هناك جوانب أخرى من دعوة موسى عليه السلام سوف تكشف عنها الدراسة فى الفصول القادمة ان شاء الله ، وذلك عندما نتناول مواقف الأقوام من دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

دعوة عيسى عليه السلام :

وتبدأ دعوة عيسى عليه السلام الى التوحيد في سورة الزخرف عند قوله تعالى :

{ولما جاءهم عيسى بالبينات قال قد جئتمكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} . (الزخرف : ٦٣-٦٤)

وقد وردت قصة عيسى في هذه السورة في سياق ابطال جدل عبدة الملائكة في دفاعهم عن عبادة الملائكة وأنهم أهدى من أهل الكتاب الذين يعبدون عيسى عليه السلام وهو بشر ، فنحن أهدى اذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ، وكان قولهم هذا سخفا وباطلا ، ولهذه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى عليه السلام للكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته التي لا تختلف عن حقيقة دعوة الأنبياء من قبله ، وهى الدعوة الى التوحيد الخالص من أى شائبة - الشرك واثبات الألوهية وجميع معانيها لله وحده^(١).

ونلاحظ أن عيسى قد قدم لبنى اسرائيل ما يثبت مصداقته في دعوى النبوة {ولما جاءهم عيسى بالبينات قال قد جئتمكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه} ، ثم رغبتهم في الاستجابة له ، بأنه قد جاءهم بالحكمة ، والحكمة كلمة جامعة لكل مافيه خير "ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" والحكمة هى الواقعة من الزلل والشطط ووضع الأمور في غير مواضعها . ورغبتهم أيضا في التنبيه لما سيلقى عليهم من تفاصيل دعوته التي تكشف لهم فيها بعض ما احتاروا فيه فاختلفوا فيه من أحكام التوراة فأصبحوا بذلك شيعا كل حزب بما لديهم فرحون .

ثم فرع على هذا الترغيب المجمل قوله {فاتقوا الله وأطيعون} وهو كلام جامع لتفاصيل الحكمة وبيان ما يختلفون فيه ، حيث ان التقوى مخافة

(١) راجع : في ظلال القرآن ٣١٩٦/٢٣ ، ٥٣ .

الله ، وطاعة الرسول يشمل معنى {ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه} ، لأن فى طاعتهم اياه عملا بما يدعوهم اليه وفى العمل بذلك حصول المقصود من الدعوة^(١) ، وهو قوله : {ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} وهذا سر فصل جملة "ان الله هو ربي وربكم" عن جملة "فاتقوا الله وأطيعون" لأنها تعليل للأمر بالتقوى والطاعة ، وأكد دعوته الى التوحيد فى قوله : {ان الله هو ربي وربكم} لمزيد الاهتمام بالخير ، فان المخاطبين غير منكرين ذلك وتقديم نفسه على قومه فى قوله {ربي وربكم} لقصد سد ذرائع الغلو فى تقديسه .. وفرع على اثبات التوحيد لله الأمر بعبادته بقوله {فاعبدوه} لأنه اذا ثبت تفرد الربوبية توجه الأمر بعبادته عن استحقاق وجدارة وفصلت جملة "هذا صراط مستقيم" لأنها استئناف بياني مقرر لمضمون ماسبق والاشارة راجعة الى مضمون قوله "فاتقوا الله وأطيعون" . أو الى التوحيد والتعبد بالشرائع المستفاد من قوله : {ان الله ربي وربكم فاعبدوه}^(٢) . فعلى الأول يكون المعنى : هذا التوحيد والتعبد بالشرائع صراط مستقيم ، والمعنى على الثانى : هذه التقوى والطاعة "طريق الوصول الى الفوز عن بصيرة ودون تردد ، كما أن الصراط المستقيم لاينبهم السير فيه على السائر"^(٣) .

وتأتى دعوة عيسى عليه السلام فى سورة آل عمران فى معرض بشارة أمه مريم بمولود يكون وجيها فى الدنيا والآخرة ومن الصالحين ورسولا الى بنى اسرائيل وماسيمح من المعجزات الدالة على نبوته ، فتنحقق البشارة ويكون عيسى وتكون المعجزات أو الآيات ، ولكن السياق يطوى ذلك كله بترك فجوة كبيرة بين البشارة وبين تحققها وحصول الآيات الدالة على صدق النبوة والرسالة ومضمونها وموقفها من الرسالة السابقة التى تتمثل فى توراة موسى عليه السلام ، وهو موقف تصديق وتكميل وتسهيل وتيسير ونسخ

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/٢٥ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ٢٤٨/٢٥ بتصرف .

(٣) راجع ارشاد العقل السليم ٩٣/٥ .

بمعنى بيان لانتهاؤ زمان الحكم الأول لارفع ابطال ، فلايتناقض ذلك مع كونه مصدقا للتوراة ، يطوى السياق ذكر تحقق حصول كل هذا^(١) ليضعنا أمام مضمون دعوته القائمة على التوحيد {فاتقوا الله وأطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} .

وهو مضمون دعوته نفسها في سورة الزخرف وقد حللناه فيما سبق . أما دعوته في سورة المائدة فأنت في معرض ذكر قبائح النصارى حيث يقول سبحانه وتعالى :

{لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار} . (المائدة : ٧٢)

فدعوته اذن جاءت في سياق التنديد بكفر النصارى الذين ألهموا المسيح ابن مريم فقالوا انه هو الله ، وقد برأ الله ساحة عيسى عليه السلام من هذه الفرية الكبيرة بذكر مضمون دعوته بنى اسرائيل وهى دعوة الى التوحيد ونبذ الشرك بالله ، وقد كانت دعوة مباشرة واضحة لاليس فيها {اعبدوا الله ربي وربكم} ، فالله وحده هو المستحق للعبادة لكونه ربا ومساواه مربوب له بما فى ذلك عيسى ابن مريم وأمه والعالمون جميعا ، فالخلق والكون جميعا تحت تصرفه وتدييره ، وقهره وسلطانه ، فلاينبغى أن يعبد أحد سواه أو يعبد معه غيره ، لافتقار كل شىء اليه واستغنائه عن كل شىء ، فهو صاحب الكمال المطلق والسلطان الغلاب الذى بيده نواصى الخلق جميعا ، وهو المنعم عليهم بالفضل والعناية والرحمة والهداية .

ثم علل الأمر بعبادة الله بترغيب مشوب بترهيب {انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار} فهو ينذرهم عاقبة الشرك بالله وهى الحرمان من الجنة التى فيها السعادة الأبدية والدخول فى النار التى فيها

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/٢٥ بتصرف .

الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى ، وان الشرك بالله ظلم من العبد لنفسه وليس للظالمين نصير من عذاب الله ، فينقذهم من عذابه "بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة" (١).

والنفس البشرية مجبولة على حب النعم ومقت النقم أو جلب الخير ودفع الشر ، والجنة حاوية لجوامع النعم مما لاعين رأت ولأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، فالحرمان منها شديد على النفس الراغبة ، فهى لذلك جديرة بأن تعمل جاهدة وتأخذ بكل الوسائل الممكنة للوصول اليها ... وقد استعمل نبي الله عيسى عليه السلام هذا المنفذ الوجدانى الذى ينفذ الى جوانب الطمع والرجاء فى النفس البشرية لدعوة قومه الى التوحيد الخالص من الشرك ، اذ العمل على مقتضاه يضمن لها الظفر بهذه السعادة الأبدية التى لا يعدل بها العاقل أى سعادة .

كما أن الشرك يوردها موارد الهلاك ويهوى بها فى درك الشقاء ، وهو ماتأباه النفس وتعافه ، وقد جبلت على خوف المكاره ، والنار جامعة لكل صنوفها والعياذ بالله ، ولهذا رهب بها عيسى عليه السلام قومه من عاقبة الشرك ليجد فى الانذار والترهيب بها رادعا للقوم عن الشرك والعصيان .

وفى سورة مريم ترد دعوة عيسى عليه السلام الى التوحيد بعد ذكر بشارة أمه به وماعانته عند ولادته وماواجهته من انكار قومها بعد ولادته ثم كلامه فى المهدي دفاعا عن أمه التى اتهمت فى شرفها (٢). وقد وردت دعوته الى التوحيد بنفس التعبير الذى دعا به الى التوحيد فى سورتي الزخرف وآل عمران وقريب منه دعوته فى سورة المائدة (٣). {إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} . (مريم : ٣٦)

(١) ارشاد العقل السليم ١٠٠/٢ .

(٢) سورة مريم : آية ١٦-٣٥

(٣) سورة آل عمران : ٥١

ونلاحظ دائماً في دعوة عيسى الى التوحيد التركيز على مربوبيته لله تعالى مع الخلق جميعاً {ان الله ربى وربكم} ، {اعبدوا الله ربى وربكم} للدلالة على أنه عبد الله خاضع لرعايته وتدبيره واحسانه ، فهو الذى رباه وأحسن تربيته وأنعم عليه هو وأمه والخلق جميعاً ، وفى ذلك اعلان قاطع باستوائه مع الناس فى العبودية لله تعالى ، وكأن عيسى عليه السلام يستشرف من وراء ذلك أن القوم سيأتى يوم يتخذونه فيه الها من دون الله لما تميز به من ظروف الولادة على غير مثال الا آدم عليه السلام ومعجزاته التى منها احياء الموتى وخلق من الطين كهيئة الطير مع نفخ فيه فيكون طيراً باذن الله .

ورغم وضوح دعوة عيسى الى التوحيد وتعبيراته المباشرة التى تخلو من أى غموض فى اثبات العبودية لله لاالى نفسه واثبات الألوهية الى الله وحده متخذاً فى ذلك من وسائل الاقناع مافيه ترغيب وترهيب ، فان القوم قد وقعوا فى المحذور فأشركوا به الله وقالوا بالتثليث^(١) وغيره والعياذ بالله .

(١) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

دعوة سيد البشر محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه الى التوحيد ومكارم الأخلاق :

لقد كانت دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الدعوات السماوية الى الأرض ، فهي كما وصفها الرسول عليه الصلاة والسلام اللبنة الباقية في بناء صرح دعوات الأنبياء من قبله عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فلما أتت اللبنة اكتمل البناء صرحا شامخا ومنارة شماء تهتدى بها البشرية في ظلمات الجهل والضلال^(١).

وطبعي لدعوة كهذه أن تتسم بالكمال والشمول لما لها من هيمنة على الدعوات السابقة لها ، قال تعالى : {وأنزّلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه} (المائدة : ٤٨) ، واستيفاء لحاجات البشرية فيما بقى لها من عمر في هذه الحياة {مافرطنا في الكتاب من شيء} (الأنعام : ٣٨) . وهنا تكمن الصعوبة والعسر في تناول هذه الدعوة بجوانبها المتعددة في اطار بحث يتناول جميع دعوات الأنبياء من قبل ، اذ أنها - أي الدعوة المحمدية - تحتاج الى بحث مستقل يبذل فيه جهود مضيئة مستقلة لكي تستطيع الدراسة أن تلم ببعض جوانبها ، فهي دعوة شاملة وخالدة غير محصورة بالاطار الزماني أو المكاني ، ولا ينسحب عليها حكم الجديدين بل انها لتتجدد بتجددهما لما تتسم به من المرونة والشمول واليسير ، فأني لمثلي أن يحيط بها درسا ، وغاية كل امرئ ما يحاوله .

ويزداد الأمر صعوبة وعسرا ، أن يكون التناول مقرونا بتناول جميع الأنبياء في دعواتهم الى التوحيد ومكارم الأخلاق ، واذا عرفنا أن دعوات الأنبياء في القرآن الكريم قد جاءت ممهدة لدعوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الفضائل .

والسلام ومؤيدة لها^(١)، ووسيلة من وسائل انذاره المكذبين من قومه عاقبة مثل عاقبة الأمم المكذبة لرسول الله من قبله ، كما أنها تسلية له عن تكذيبهم اياه وايدائهم له ولأتباعه ، لأن ذلك ديدن المكذبين مع جميع الرسل وأتباعهم ، ولكن العاقبة للرسول ومن معهم من المؤمنين ، تؤكد لدينا سعة الموضوع وعدم امكان تناوله بالتفصيل في هذه الدراسة المقدرة بزمن محدود ، على أن عزائى فيما فاتنى من ذلك فى أمرين :

أولهما : أن القرآن الكريم المعجزة الخالدة لهذه الدعوة الشريفة الخاتمة ، فيه يمكن التماس منهج هذه الدعوة السامية وأهدافها النبيلة ، كما التمس في منهج دعوات الأنبياء السابقين .. وقد جاءت الدعوة الخاتمة مكتملة - كما قلنا - لدعوات الرسل السابقين ومهيمنة عليها .

ثانيهما : أن كتب السيرة النبوية قد كفتنى مؤنة الاحاطة بالجانب التطبيقى لهذه الدعوة السمحة ، ممثلاً فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتطبيقاته الشريفة لمفردات المنهج والدستور "كان خلقه القرآن"^(٢). على أن الناظر فى منهج هذه الدعوة يلمس عند النظرة الأولى الروابط والصلات التى تجمع بين هذه الدعوة ومثيلاتها السابقة من حيث المصدر والمنهج والأسلوب والغاية ، ولا يجد اختلافاً الا من حيث بعض التفاصيل التى اقتضتها ظروف الدعوة الخاتمة من حيث الشمول والاستمرار .. ولعل الله أن ينسأ فى العمر وييسر ظروفاً تسمح بتناول مستقل لهذه الدعوة الخاتمة فى مستقبل الأيام ان شاء الله ، والله على ذلك قدير وبالاجابة جدير.

(١) قال تعالى : {واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقرنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} (آل عمران : ٨١)

(٢) الحديث رواه مسلم فى حديث عائشة بطوله ، وقال صلى الله عليه وسلم : "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" . رواه مالك فى الموطأ .

وبعد ، فقد رأينا فيما سبق مدى ما تحمل الأنبياء من جهود مضية
ووسائل متناهية وأساليب متعددة في دعوة أقوامهم الى التوحيد ومكارم
الأخلاق ، يحدوهم في ذلك كله الحرص الشديد على ما يصلحهم والاشفاق
عليهم من عذاب الله وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، مستثيرين في
أقوامهم عواطف الاخوة ووشائج القرى فلعل الأرحام أن تعطفهم الى
الاستجابة لما فيه خلاصهم وفلاحهم ، فهل كان لهذه المواقف النبيلة من
الأنبياء صدى في نفوس الأقبام أم أنها صادفت قلوبا قاسية وآذانا صما
فكانت نفخا في الرماد وضربا على حديد بارد؟
هذا ما ستكشف عنه الدراسة في الفصل التالى ان شاء الله .

(٨٩)

الفصل الثاني

مواقف الأقباط من دعوة الأنبياء

مواقف قوم نوح عليه السلام :

نتناول في هذا الفصل مواقف الأقسام تجاه دعوة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق ، وسنسير في تناول هذه المواقف وفق الترتيب الزمني للأنبياء على غرار طريقتنا في الفصل السابق ، ونبدأ بمواقف قوم نوح عليه السلام كما بدأنا بدعوته فيما سلف من الدراسة مستمدين من الله العون والمدد فيما نكتب وملتمسين منه التوفيق والسداد فيما نأتى وندع طالبين منه العصمة والوقاية من الزلل والختل . تبدأ مواقف قوم نوح عليه السلام من دعوته في سورة الأعراف عندما قابل الملائكة قومه ملاينته في الانذار بالمخاشنة والغلظة والتطاول والتكذيب قال تعالى :

{قال الملائكة من قومه انا لنراك فى ضلال مبين . قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لاتعلمون . أوعجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأعرقنا الذين كذبوا بأياتنا انهم كانوا قوما عمين } . (٦٠-٦٤)

لقد اتخذ "الملائكة" وهم الأشراف والسادة الذين امتلأت نفوسهم بحب الجاه والسمعة والرياسة والاستئثار والترف - من قومه - موقف الرفض من الدعوة ، وهم رواد الفساد فى كل مجتمع وهم الذين يقفون دوما حجرة عثرة أمام أى دعوة اصلاحية ، لما يرون فيها من زوال مصالحهم فى اشباع رغباتهم وحب الاستغلال والاستبداد والاسترقاق ، فقابلوا دعوة نوح عليه السلام المفعمة بمشاعر الأخوة والتلطف والاستمالة ، بتطاول متعنت واستكبار وسوء أدب ، فوسموه بالضلال المتمكن فى كل ما يأتى ويدع ، وليتهم وقفوا عند التهمة بالضلال بكلام مرسل بل تجاوزوا ذلك الى اثبات صفة اليقين لمذهبهم فيه ، فأكدوا تعبيرهم ، بان واسمية الجملة واللام "انا لنراك" وظرفية مجازية "فى ضلال مبين" للدلالة على أنهم متيقنون فى

اعتقادهم أنه منغمس في الضلال (١)، أضف الى ذلك مجاز الاسناد في وصف الضلال بمبين الذى هو اسم فاعل للاشعار بأن ضلاله غير خاف على من عنده أدنى نظر لأنه ضلال يظهر نفسه للعيان . فهو ضلال بالغ في البعد عن طريق الحق .. وقد أكدوا هذا الكلام المتضمن لبهتانهم لأن حالهم مكذب لهم (٢)، وعليه فهم يتوقعون انكارا عليه وهذا سر تأكيدهم هذا البهتان . ويأبى على نوح النبي - المؤدب من ربه - أدبه ومروءته أن يرد بالمثل وانما اكتفى بنفى مارموه به فبنى تعبيره على نفى وحدة غير معينة الذى لا يصدق الا بنفى لكل فرد لكونه أنص من نفى المصدر (٣)، فقال "ليس بى ضلالة" أى ليس بى شىء من الضلال ، "والباء فى قوله "بى" للمصاحبة أو الملابس ، وهى تناقض معنى الظرفية المجازية من قولهم "فى ضلال" فانهم جعلوا الضلال متمكنا منه ، فنفى هو أن يكون للضلال متلبس به " (٤)، ثم استدرك مثبتا لنفسه ضد مارموه به بأشرف ما يكون من صفات الخلق لرفع ماتوهموه من كونه فى ضلال بمخالفته دينهم فقال : "ولكنى رسول من رب العالمين" ومن كان رسولا من رب العالمين الذى يربى أجسام العوالم بالنعيم وأرواحهم بالشرائع فهو فى غاية الرشد والهداية ، وفى اختيار طريق الاضافة فى تعريف مرسله تفخيم لشأن المضاف وتنويه بوجوب طاعته على جميع الناس ، وفى هذا المعنى تعريض بقومه اذ عصوا رسول رب العالمين (٥).

وفصل جملة "أبلغكم رسالات ربي" عن جملة ولكنى رسول من رب العالمين لأنها صفة للرسول أو بيان بالاخبار عن وظيفته وبيان رسالته ، وعبر

-
- (١) راجع التحرير والتنوير ١٩٠/٨ .
 - (٢) راجع نظم الدرر ٤٢٨/٧ .
 - (٣) راجع المصدر السابق ص ٤٢٩ .
 - (٤) التحرير والتنوير ١٩٢/٨ .
 - (٥) المصدر السابق بتصريف ص ١٩٣ .

بالجملة الفعلية لافادة التجدد في التبليغ وأنه غير تارك لها من أجل تكذيبهم وتطاولهم ، وفي هذا تيئيس من ترك متابعتة اياهم أو تركه اياهم وشأنهم . ولعل هذا هو السر في جمع الرسالة هنا لتجدها وتعددتها .

ثم عطف على جملة "أبلغكم" قوله "وأنصح لكم" لبيان لهم وظيفة أخرى له وصفة ثانية له أيضا ، وهى تجديد النصح لهم وأنه غير تارك لذلك من أجل كراهيتهم وبذاءتهم ، ولهذا أتى بالمضارع للدلالة على تجدد النصح لهم ، وعدى فعل النصح باللام لافادة التخصيص واشعارهم بأن النصيحة وقعت خالصة لهم ، ولما كان الضلال من صفات الفعل اكتفى بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث في قوله "وأنصح" .. ثم ذكر صفة ثالثة منافية للضلال فقال : "وأعلم من الله مالاتعلمون" وفي هذه الجملة تقرير ينسحب على ما أوعدهم به فيكون المعنى وأعلم من قدرته وشدة بطشه مالاتعلمون ، كما ينسحب على النصح باعتبار أن مضمون الرسالة معناه تعريفهم أنواع التكاليف والأوامر والنواهي ، وأما النصيحة فهى ترغيبهم فى الطاعة وتحذيرهم من المعاصى^(١) ، أو تقرير لما سبق من كلامه عليه السلام كله .

ووجه التقرير حينئذ "أن سعة علمه تقتضى تصديقه فيما أخبرهم به"^(٢) . ونلاحظ أنه قد بنى رده على الوصل للاشعار بتغاير دلائل كونه فى غاية الهداية وأن كل دليل منها ينهض وحده برهانا على كونه فى منتهى الهداية ونفى أقل الضلالة عنه عليه السلام .

ثم استأنف مستنكرا شبهة حاكت فى أنفسهم فاتخذوها ذريعة الى التكذيب وهى أن البشرية منافية للرسالة ، فكر على هذه الشبهة بقوله : {أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون} .

(١) راجع حاشية زاده ٢٤٥/٢ بتصرف .

(٢) حاشية الشهاب ١٨٠/٤ .

الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف أى أكذبتم وعجبتم أن
يتزل ربكم المحسن اليكم ذكرا على رجل من جنسكم ، وقد بنى انكاره على
شبهتهم بجملة انشائية مبنية على استفهام انكارى توبيخى ، "واختير
الاستفهام دون أن يقول : لا عجب ، اشارة الى أن احتمال وقوع ذلك منهم
مما يتردد فيه ظن العاقل بالعقلاء"^(١) لأن الذى حملهم على التكذيب
والعجب هو عند العقلاء موجب التصديق والايان ، لأنه اذا كان الرسول
انسانا وكان ممن يعرفه المرسل اليهم ويعلمون تفاصيل أحواله ، استأنسوا
به وقبلوا منه ، لأن المرء يأنس بما هو به أعرف وبظاهر أحواله أعلم وبما
يقتضى السكون اليه أبصر ، واستعمل حرف الترجى فى قوله "ولتتقوا
ولعلكم ترحمون" للتنبيه على أن التقوى غير موجب ، والترحم من الله
تفضل وأن المتقى ينبغى أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله
تعالى"^(٢).

ورغم هذه الأدلة وهذا اللطف والاستمالة فان القوم لم ينتهوا عن
غيهم ولم يقابلوا الحجة بالحجة ولا اللطف والأدب بما يمثلا لهما وانما تبادوا فى
الضلال الذى حسبه رشدا فكذبوه ، فأهلكهم الله بعذاب الغرق وأنجى الله
نوحا والذين آمنوا معه فى الفلك ، فكان العاقبة للمؤمنين والخسران مع
الهلاك للمكذبين الكافرين .

ونلاحظ أن موقف قوم نوح تجاه الدعوة فى هذه السورة تتلخص فى
تسجيلهم الضلال على نوح عليه السلام وتكذيبهم اياه بشبهة منافاة البشرية
للمسالة ، وقد طوى السياق هنا ذكر هذه الشبهة مكتفيا بالرد عليه .
أما موقفهم فى سورة هود ، فتتسم بطابع التفصيل فى اظهار شبهاتهم
حول الداعية وأتباعه ، وقد فصل القول فى هذه السورة عن قصة نوح عليه

(١) التحرير والتنوير ١٩٥/٨ .

(٢) حاشية الشهاب ١٨٠/٤ .

السلام وقومه بما لم يفصله في سورة أخرى تناولت قصة نوح عليه السلام ، وحتى السورة التي أفردت في القرآن لذكر دعوة نوح لقومه وسميت السورة باسمه ، لانجد فيها التفصيلات الموجودة في هذه السورة مما يقوى جانب النظر في أن سورة هود نزلت لتسليية الرسول صلى الله عليه وسلم في المقام الأول ثم يأتي أى غرض آخر تبعا لهذا المقصد الأساسى وهو التسرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الحقبة التي كانت من أصعب الفترات عليه صلى الله عليه وسلم (١).

ولذا نجد من التفاصيل مثلا ، سخرية القوم به وتحديهم اياه ، كما نجد ذكرا لصنع السفينة وتعليمات الركوب وخبر ابنه الكافر الى غير ذلك من التفاصيل التي خلت منها السور الأخرى التي تناولت القصة ، ويبدأ موقف القوم من دعوته هكذا .

{فقال الملاء الذين كفروا من قومه مانراك الا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين} .
(٢٦-٢٧)

وقد بنوا موقفهم الراض من الدعوة على شبهات تافهة تم عن سخف وركاكة عقل ، وأول هذه الشبهات أن نوحا بشر ، ولايجوز في منطقهم أن يكون الرسول بشرا ، ولذلك أكدوا بشريته بجملة القصر ، وبطريق ما والا فقولهم "مانراك الا بشرا مثلنا" مرادهم "مأنت الا بشر مثلنا" (٢) ليس فيك مزية تؤهلك للنبوة .

وثانيها ، أن الذين تكلفوا اتباعه هم أخساؤنا وليس فينا رذل غيرهم لأنهم ليسوا من السادة الوجهاء بل من الطبقة المعدمة الفقيرة الذين لايملكون الحصافة والروية في اختيار الأمور واختبار الأشياء ولذلك اتبعوك بديهة من غير تأمل .

(١) راجع نظم الدرر ٢٦٥/٩ .

(٢) ارشاد العقل السليم ٣٢/٣ .

أما الشبهة الثالثة فهي خلو نوح عليه السلام ومن معه من أتباعه من حظوظ الحياة المادية من جاه ومال وسلطان وأتباع من الأشراف . وقد أغرقوا في نفى الفضل عن نوح وأتباعه ، فقالوا : وما نرى لكم علينا من فضل . أى أى فضل . لمكان التنكير في "فضل" وكأنهم "لما وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع ، جمعوا الوصف الشامل لهما وهو المقصود من الوصفين المفرقين^(١) فقالوا "وما نرى لكم علينا من فضل" وهنا ملمح آخر هو أنهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولانرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا ، تستوجب اتباعنا لكم .. ثم أضربوا عما سبق ليسجلوا على نوح وأتباعه صفة الكذب فيما يدعيه من النبوة والرسالة ولأتباعه في تصديقهم اياه ، "وفي اقتصارهم على الظن احتراز منهم عن نسبتهم الى المجازفة"^(٢) وقيل ان الظن بمعنى العلم^(٣) .
أما نوح عليه السلام فقد رد على شبهاتهم قائلا :

{قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لأسألکم عليه مالا ان أجرى الا على الله وماأنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراکم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذى تزدرى أعينکم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين} .
(٣١-٢٨)

بدأ نوح عليه السلام الرد على شبهاتهم من آخرها ، أما رده على الفضل الذى نفوه عنه وعن أتباعه ، فيقول أخبرونى ان كنت على برهان

(١) التحرير والتنوير ٤٩/١٢ .

(٢) ارشاد العقل السليم ٣٣/٣ .

(٣) راجع التحرير والتنوير ٤٩/١٢ .

من ربي شاهد على فضلى فمن على بالنبوة بلاكسب ولا تعب منى ثم خفى عليكم أن الله يمن بفضله على من يشاء من عباده وجهلتم أنه يعلم حيث يجعل رسالته ، فما بوسعى وأتباعى أن نفعل بكم؟ أنكرهكم على الاعتراف بها أو نلزمكم الاهتداء بالنبوة؟ كلا فلا اكراه فى الدين ، ولا سبيل الى وصوله الى النفوس الا بالاقبال على الداعى واقتناعها بصدقه وعنايتها بالدعوة ، فكيف يصل اليكم صدقى وأنتم كارهون للنبوة التى حبانى بها الله رحمة منه وفضلا .

والاستفهام فى قوله : "أرأيتم" للتقرير على مضمون الجملة السادة مسد مفعولى "أرأيتم" ولذلك كان معناه آيلا الى معنى أخبرونى .. ولا يستعمل الا فى طلب من حاله حال من يجحد الخير"^(١). وفى ندائهم بالياء المنادى بها البعيد اشعار الى مباعدهم فيما يقتضى غاية القرب ، والاستفهام فى "أنلزمكموها" للانكار التكذيبى أى لانلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وقدم الجار والمجرور "لها" لافادة الاهتمام ورعاية الفاصلة .

أما عن أتباعى الفقراء الذين تعيرونهم خلوهم من الحظوظ المادية الفانية ، فما أنا الا صاحب مبدأ وعقيدة أدعو اليها - لاطالب مال ودنيا - وأرحب بكل من يعتنق هذه العقيدة ويؤمن بها فقيرا كان أو غنيا ، شريفا كان أو ضيعا ، ولاأبتغى ممن يقبل على دعوتى مالا جزاء دعوته فأرحب بالغنى وأطرد الفقير ، ثم علل لعدم طلب المال بقوله : "ان أجرى الا على الله" وهذا سر فصل هذه الجملة عن التى قبلها لأنها كالتعليل لها . {وياقوم لأسألکم عليه مالا ان أجرى الا على الله} .

ولما كان استرذالهم لأتباعه يعنى التعريض بطردهم من مجلسه رد عليهم بقوله : {وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون}.
وفصل جملة "أنهم ملاقوا ربهم" لكونها تعليلا لنفى طرده المؤمنين ، وعطف جملة "وما أنا بطارد" على جملة "لأسألكم عليه مالا" لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها لأن نفى طمعه فى المخاطبين يقتضى أنه لا يؤذى أتباعه لأجل ارضاء هؤلاء ولذلك عبر عن أتباعه بطريق الموصولية بقوله "الذين آمنوا" لما يؤذن به الموصول من تغليط قومه فى تعريضهم له بأن يطردهم بما أنهم لا يجالسون أمثالهم ايدانا بأن ايمانهم يوجب تفضيلهم على غيرهم الذين لم يؤمنوا به والرغبة فيهم فكيف يطردهم" (١). ثم استدرك بقوله : "ولكنى أراكم قوما تجهلون" ، أى تجهلون حقائق الأمور لاحتكامكم الى القيم المادية وهذا المنطق المادى المنحط ، وتجهلون مكانة هؤلاء عند ربهم كما تجهلون تبعة طردهم . "أو أنكم تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الحساسة" (٢). ثم تساءل مستنكرا على القوم هذا المطلب الشنيع مشيرا فيهم التفكير المنطقى المتزن ، {وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون} فهلا فكرتم رويدا فى موقفى عند الله ان أنا طردت هؤلاء المقبلين على الله ورسوله ، فمن ينصرنى من عذابه وعقابه ان طردتهم ، لما فى هذا الطرد من اهانتهم وايدائهم بلاموجب ، وهم أولياء الله ، والله لا يجب اهانة أوليائه ، ولو تأملتم أدنى تأمل لأدركتم أن طردهم لا ينبغى ولا يأتى بخير اذ يعرض صاحبه لغضب الله وبطشه ، انتقاما لأوليائه ، والعاقل من طلب لنفسه السلامة وارتفع بها عن الملامة وآثر جانب السلامة فأمن الحسرة والندامة ، وهذا سر بناء التعبير فى هذا الرد على الاستفهام الانكارى التكذيبى على طلب الطرد لما يترتب عليه من عقاب من لا يرد بأسه

(١) المرجع السابق ٥٥/١٢ .

(٢) ارشاد العقل السليم ٣٦/٣ .

عن القوم المجرمين ، وفرع على هذا الانكار أيضا استفهام انكارى وتوبيخى آخر ، ينصب الانكار فيه على اهمال القوم التذكر والتأمل "أفلا تذكرون" وبني جملة الاستفهام على الحذف للجملة المعطوف عليها بفاء التفریع والتقدير : أتستمرون على الجهل فلا تذكرون أدنى تذكر - لمكان الادغام - لتعلموا أن طرد هؤلاء بمنأى عن الصواب ، ووصلت هذه الجملة اشعارا باستقلالها في الدلالة على وجوب ترك الطرد والامتناع عنه ، وصدرت "بيا قوم" (١). ثم شرع يفند شبههم واحدة تلو الأخرى ، فقال :

{ولأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين} . (٣١)

وإذا كان نوح قد رد على مقالة قومه اجمالا فيما سبق ، فانه هنا لجأ الى التفصيل في رد الشبه ذاتها ، فبدأ بأنه لم يدع الفضل عليهم بقوله ان بجيازته خزائن الله ، "ولأقول لكم عندى خزائن الله" ، ولما كان التفاضل عند القوم يقوم على أساس حيازة النصيب الأكبر من حظوظ الدنيا ناسب ذلك من كلام نوح عليه السلام ذكر الخزائن ، مستعارة للكناية عن النعم والأشياء النافعة (٢).

وفي اضافة "خزائن" الى "الله" اشعار بأن هذه الأموال النفيسة التى استرذلوا اتباعه لخلو أيديهم منها ، انما هى لله وحده فهو المتصرف فيها كما يشاء وهو قادر على سلبها منهم ان استمروا على الكفر والعناد ، كما أنه ان شاء خلعها على هؤلاء الأراذل فى نظركم القاصر .. لأنه مالکها وصاحب التصرف فيها وقد منحكم هذه النعم تفضلا منه وكرما ، لالمزية فيكم خلا منها هؤلاء فحرموا منها ، وانما المنح والحرمان تحت مشيئته سبحانه وتعالى ، وهو يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهو الحكيم العليم .

(١) راجع ارشاد العقل السليم ٣/٣٦ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٥٧/١٢ .

أما قولهم ان أتباعه اتبعوه عن غير روية وتأمل أو اتبعوه ظاهرا لباطنا ، فيرد عليه بقوله : "ولأعلم الغيب" أى لأدعى علم الغيب حتى تكذبوني على تقدير أن العطف على "عندى خزائن الله" ، كما أنى لأعلم الغيب حتى أشق عن صدر كل من آمن به لأعلم أنه صادق أم كاذب ، أو أنهم اتبعوني بادی الرأي .. ويتأتى هذا المعنى بعطف جملة "ولأعلم الغيب" على "ولأقول" (١).

ويرى البقاعى أن سر عطف هذه الجملة على "أقول" يكمن فى جواز تمكين الله من يشاء من خزائن الأرزاق ونحوها فيسوغ له أن يطلق ملك ذلك مجازا . ولا يجوز أن يمكنه من علم الغيب ، وهو ماغاب عن الخلق كلهم لأنه خاصته سبحانه وعليه عطف "ولأعلم الغيب" على "أقول" لاعلى القول ليكون المعنى ، ولأقول أعلم الغيب حقيقة ولا مجازا فأعلم وقت ماتوعدون به أو مافى قلوب المؤمنين مما قد يتوهم به من سوء" (٢).

ثم رد على شبهتهم الأولى وهى بشريته بقوله : "ولأقول انى ملك" أى لأقول انى ملك لابشر ، فأمتاز عليكم فى القوة والخلق ونحوهما حتى تكذبوني ، وقد بنى هذا الرد على التوكيد بان لأنه قول لايقوله قائله الا مؤكدا لشدة انكاره لو ادعاه مدع ، فلما نفاه نفى صيغة اثباته (٣).

ولما كان قولهم "مانراك الا بشرا مثلنا" فيه تعريض بنفى الملكية من باب التحقير والازدراء أتبعه تأكيد قبوله لمن آمن كائنا من كان وان ازدراه القوم فقال : {ولأقول للذى تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين} ، وفى اسناد الازدراء الى "أعينكم" مجاز عقلى لكون الأعين سبب الازدراء غالبا ، لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر (٤).

(١) راجع حاشية زاده ٤٢/٣ .

(٢) راجع نظم الدرر ٢٧٦/٩ .

(٣) راجع التحرير والتنوير ٥٨/١٢ .

(٤) راجع التحرير والتنوير ٥٨/١٢ .

وفي هذا الاسناد على ما يبدو لى اشعار بأن القوم ازدروهم بمجرد وقوع أعينهم عليهم وأن حكمهم هذا خال عن أى معالجة للعقل واحتكام الى المنطق السليم ، كما أنه مبنى على المظاهر المادية لالجواهر الانسانية من حسن خلق وتقوى وإيمان .

وفصل جملة "الله أعلم بما فى أنفسهم" لأنها تعليل لنفى أن يقول "لن يؤتيهم الله خيرا" وهذا سر فصلها عن جملة "لن يؤتيهم الله خيرا" وبهذا يكون نوح عليه السلام قد وكل أمر ايمانهم ومجازاتهم الى الله الذى يعلم السر وأخفى ، وأن معرفة صدق الايمان وكذبه ليس الى البشر وانما هى موكولة الى خالق النفوس والعارف بطواياها ، وأن كونهم على القليل من حظوظ الدنيا لا يمنعهم من خير ربهم ان كانوا مؤمنين . ثم علل ثانياً لنفى أن يقول "لن يؤتيهم الله خيرا" بقوله "انى اذن لمن الظالمين" ، وذلك بالحكم عليهم بما لا يعلم وهذا ظلم لهم ، وظلم لنفسه أيضاً لأن وبال ذلك راجع اليه اذ اقتحم القول بما لا يصدق ، وأكد هذا التعليل بجملة من المؤكدات تحقياً لظلم الذين استردلوهم وفي ذلك تعريض بأن قومه ظالمون فى ازدرائهم واستردالهم^(٢) ، والمقام يقتضى التوكيد لانكار القوم أن يكون لهؤلاء المؤمنين أدنى فضل لفقرهم وراثثة حالهم .

ونلاحظ فى رد نوح عليه السلام على أباطيلهم بناء الجمل على الوصل ولعل السر فى ذلك يكمن فى أنها تعدد تلك الشبهات التى أثاروها والأباطيل التى ارتضوها ظناً منهم انهم على الحق المبين وهو على ضلال مبين ، ليكر عليها واحدة تلو الأخرى فيفندها ويدحضها ، وفى ذلك تناسب أيضاً لأسلوب الذى بنوا عليه شبهاتهم حيث كانت الجمل فيها مبنية على الوصل بقصد تكثير أسباب رفضهم للدعوة وتكذيبهم للداعية وللشعار بأن كل حجة من حججهم كفيلة بتكذيبه ومسوغة لرفضهم الايمان به .

(١) راجع التحرير والتنوير ٥٨/١٢ .

(٢) راجع : المرجع السابق ص ٥٩ ، ارشاد العقل السليم ٣٧/٣ .

ولما أفحمهم نوح عليه السلام ببراهينه المبهتة وحججه الدامغات ، فألقمهم الحجر فأيقنوا أنهم غير قادرين على الصمود لقوارع جدله ، لجأوا الى التعنت والتحدى فطالبوه باتيان ماتوعدهم واستعجلوا ذلك تعجيزا له ، وليقينهم بأن ذلك متعذر لظنهم أنه من الكاذبين ، {قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جادلنا فأتتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} أى أردت جدالنا فأكثر ، وقد فصلت هذه الجملة على طريقة فصل الجمل فى المحاورات ، ووصلت جملة "فأتنا بما تعدنا" بفاء التعقيب للإشارة الى طلب الاستعجال فى ذلك أو أن العطف للتفريع بمعنى ، فتسبب عن جدالك وتضجرنا أن نقول لك لم يصح دعواك عندنا ، اثنتا بما تعدنا^(١) ، وحذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه ، وسموا وعيده وعدا سخرية به ، أى أن هذا الذى جعلته وعيدا هو عندنا وعد حسن سار باعتبار أنا نخب حلوه^(٢) ، وكان موقف نوح من هذا التعنت وذلك التحدى موقفا رفيقا حيث رد عليهم بقوله "انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين" ، فوكل أمر الاتيان بالعذاب الى الله الذى كفروا به وعصوا رسوله ، دون غيره ، وهذا سر الاتيان بأسلوب القصر بانما ، وهو قصر قلب لاعتقادهم أن فى مقدور نوح الاتيان بالعذاب ، "وهذا حمل لكلامهم على ظاهره على طريقة مجازاة الخصم فى المناظرة ، والا فانهم جازمون بتعذر أن يأتيهم بما توعدهم لاعتقادهم الكذب فيه على الله^(٣) ، وعلق اتيان العذاب بمشيئة الله احتراسا ، وفى قوله "وما أنتم بمعجزين" دلالة على أن تأخير العذاب عنهم لمحض مشيئته وأنهم تحت قبضته ان شاء عجل لهم العذاب وان شاء أخره ، ولكن وعده لاحالة واقع .

(١) راجع نظم الدرر ٢٧٧/٩-٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق ٢٧٨/٩ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٦١/١٢ ، حاشية الشهاب ٩٥/١ .

ثم رجع نوح الى تصحيح مفاهيمهم المغلوطة ، فما سموه جدلاً فامتعضوا منه ليس الا نصيحة لهم وشفقة عليهم وهو في ذلك غير مدخر وسعا في ارشادهم واحاض النصح لهم ، ولكن النصيحة غير نافعة لكم ان أراد الله لكم الغواية ، فختم على قلوبكم وطمس على بصائرکم فحال بينكم وبين الهداية بما كسبته أيديكم وباعراضكم عن الحق .. فهو ربكم الذى رباكم بنعمه الدالة على مسبها واليه ترجعون ليحاسبكم على تفريطكم .
 {ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون} .

وفصل جملة " هو ربكم " عن التى قبلها لأنها استئناف لتعليم القوم أن الله ربهم ان كانوا لا يؤمنون به أو لتذكيرهم بذلك ان كانوا مؤمنين بوجوده ويشركون معه غيره ، وتقديم الجار والمجرور فى قوله " واليه ترجعون " للاهتمام ورعاية الفاصلة مع افادة الاختصاص (١).

وبعد هذه المجادلة مع القوم التى انتهت الى استعجالهم للعذاب تحدياً وتعنتاً ، أياس الله نوحاً من ايمان قومه بعد الذين آمنوا به من قبل ، وسرى عنه بنهيه عن الحزن عليهم بسبب كفرهم وايدائهم له وللمؤمنين ، وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون وهذه الجملة "أوحى" معطوفة على جملة "قالوا يانوح" أى بعد هذه المقولة أوحى الى نوح ، وأتى بضمير الشأن للدلالة على أن مابعد أمر خطير لأنه تبيئس له من ايمان من بقى فى قومه على الكفر ، والفاء فى قوله "فلا تبتئس" لتعقيب التسلية على الخبر المحزن فهو الرفيق بقومه المشفق عليهم فلا بد أن يأسى على هذا المصير السىء لقومه ، ثم أمر بصنع وسيلة النجاة وهى السفينة تحت رعاية الله والهامة صوتاً له من التوقيف أو الخطأ فى صنع السفينة ونهى عن مراجعة الله بطلب استدفاع العذاب عن الظالمين من

(١) راجع التحرير والتنوير ١٢/٦٣ .

قومه لأنهم مغرقون لاحالة وقد قضى الأمر ولارجوع عنه لتوسل أو شفاعة
 امثثل نوح لأمر ربه بصنع السفينة فكانوا اذا مروا به سخروا منه ، وهذا
 هو الموقف السخيف الأخير من مواقفهم المتعنتة تجاه نوح عليه السلام .
 {واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون .
 ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا
 نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه
 عذاب مقيم} . (هود : ٣٨-٣٩)

وعطفت جملة "واصنع الفلك" على جملة "فلا تبتئس" لأنها داخلة في
 الموحى به ثم عطفت جملة "ولا تخاطبني" على جملة "واصنع الفلك" لمغايرة
 الأمر للنهي ، وفصلت جملة "انهم مغرقون" لكونها بيانا لما سيقع وبيانا
 لسبب الأمر بصنع السفينة ، وهي في الوقت نفسه تعليل للنهي عن المخاطبة
 وأكد الخبر بان واسمية الجملة لتقوية الأمر في نفس المخاطب ، وفي هذه
 الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بتزليل غير السائل
 المتردد منزلة السائل اذا قدم اليه من الكلام ما يلوح الى جنس الخبر
 فيستشرفه لتعيينه استشرافا يشبه استشراف السائل عن عين الخبر (١).
 وجملة "ويصنع الفلك" معطوفة على "واصنع الفلك" أى أوحى اليه
 "اصنع الفلك" وصنع الفلك ، وقد عبر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار
 الحالة (٢).

وجملة "وكلما مر عليه ملأ" في موضع الحال من ضمير يصنع ،
 "سخروا منه" جواب لكلما ، وفصلت جملة "قال ان تسخروا منا ..." لأنها
 استئناف على تقدير سؤال سائل ، والمعنى ان تسخروا منا مستجهلين لنا فيما
 نحن فيه فانا نستجهلكم فيما أنتم عليه ، واطلاق السخرية عليه من باب

(١) المرجع السابق ٦٧/١٢ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٦٧/٢ .

المشاكله اذ ان السخرية لاتليق بمقام النبوة (١)، ثم فرع على ذلك بقوله "فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم" ، وفي قوله "ويحل عليه" استعارة مكنية شبه العذاب المقضى عليهم من الله بالدين المؤجل الواجب الحلول ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الحلول (٢)، أو شبه حلول أداء الدين الذى على المدين بالمقضى عليهم به من الله ثم حذف المشبه به وهو المقضى عليهم به من الله ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو العذاب الذى أسند اليه الحلول ، وفي هذا التشبيه تأكيد وتفظيح لوقوع العذاب . وهو تصوير للمشاعر الفظيعة التى تنتاب الغريم أو المدين الذى أثقلت الديون كاهله ولايملك مابه الوفاء بما عليه وحلول الدين لاحالة واقع وهو ليس له دافعا ، فهو يعيش فى قلق وفزع .. ويأتى أمر بعد تبييس نوح من ايمان قومه ليحل بهم مااستعجلوه من العذاب وظنوه كذبا ، ويفور التنور ايذانا بأوان حلول العذاب ، فتصدر تعليمات السماء الأخيرة الى نوح عليه السلام بأن يحمل من كل أنواع الحيوانات زوجين اثنين وأهله الا من سبق عليه القول بالعذاب فلم يؤمن ، وتحمل السفينة الفئة المؤمنة وماأقلهم ، وينفذ نوح عليه السلام أمر ربه ويأمر المحمولين بالركوب باسم الله ، وتتحرك السفينة باسم الله جارية باذن ربها ويرى نوح ابنه فى خضم الروع يتعرض للغرق فتتحرك فيه عاطفة الأبوة الصادقة - كيف لا وهو العطوف على قومه ، فما بالك بحشاشة كبده وقرّة عينه - فيناديه الى الركوب لينجو مع المؤمنين ظنا منه أنه من زمرتهم ، ولكن هيهات له النجاة ، لأنه لايملك تصريح دخول سفينة النجاة وهو الايمان بالله والتصديق بنبيه ، ويرفض الابن أمر أبيه الحنون ظانا أن اعتصامه بجبل يعصمه من الغرق وأن ذلك الطوفان كسائر السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربى ، وأنى له النجاة بذلك وقد بلغ السيل

(١) راجع ارشاد العقل السليم ٤١/٣ - ٤٢ .

(٢) راجع حاشية زاده ٤٣/٣ .

الزبى وكان العذاب لاهلاك الكفرة ولاحيص عن ذلك الا الالتجاء بملاذ المؤمنين ولات حين مناص ، قال تعالى : {حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين} . (٤١-٤٣)

وجملة "وقال اركبوا فيها" معطوفة على "قلنا احمل فيها" وعدى "اركبوا" بفى وهو متعد بنفسه لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر - كما قال أبو السعود - فى أن معنى الركوب العلو على شىء له حركة اما اراديه كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فاذا استعمل فى ذات الحركة الارادية روعى الأصل فيقال مثلا "ركبت الفرس" ونظيره قوله تعالى : {والخيل والبغال والحمير لتركبوها} (١) وان استعمل فى ذات الحركة القسرية لوح بمحلية المفعول بحرف "فى" فيقال مثلا "ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة" (٢) ، وهذا من أبى السعود ملامح جميل ونفيس ، فالركوب حقيقة فى الدابة ومجاز فى غيرها مثل السفينة ، والطائرة والسيارة فى أيامنا هذه لأن الركوب فيها انما هو جلوس واستقرار ولما بين الركوبين من اختلاف وتشابه فرق بينهما بفى الظرفية لمناسبتها الاستقرار والجلوس اللذين يكونان فى السفينة وأشباهها . وجملة "بسم الله ..." فى موضع الحال من ضمير "اركبوا" وفصلت جملة "ان ربي لغفور رحيم" لأنها تعليل للأمر بالركوب للدلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته ، وفيه إيماء الى وعد الله له بنجاتهم ، وأكد

(١) الآية رقم ٨ من سورة النحل .

(٢) راجع ارشاد العقل السليم ٤٥/٣ .

التعليل بان واللام واسمية الجملة تأكيدا لأتباعه بأن الله قد رحمهم بالانجاء من الغرق وتقوية لهذا المعنى فى نفوسهم .. وفى هذا التوكيد قطع لشأفة ماقد يتوهمون أو مايلم بنفوسهم من خوف الغرق لهول الطوفان وفضاعته .. وجملة "وهى تجرى بهم فى موج كالجبال" اعتراضية دعا إليها ذكر "جراها" اتماما للفائدة ووصفا لعظم اليوم وعجيب صنع الله تعالى فى تيسير نجاتهم وسط هذه الظروف الصعبة والأهوال المفطعة^(١).

وجملة "ونادى نوح ابنه" معطوفة على "وقال اركبوا" لأنها أمس بها رحما ، ولأن نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة اذ يتعذر ايقافها بعد جريانها لأن الراكبين كلهم كانوا مستقرين فى السفينة^(٢). وجملة "وكان فى معزل" فى موضع الحال من "ابنه" وفصلت جملة "يابنى اركب معنا" لكونها بيانا لجملة "نادى" وعطفت جملة "ولاتكن مع الكافرين" على "اركب معنا" لاعلامه بأن اعراضه عن الركوب يجعله فى صف الكفار اذ لا يكون ذلك الا عن تكذيب بوقوع الطوفان وكفر بنوح عليه السلام وهذا سر العطف رغم كون الجملة الثانية تأكيدا وتقريرا للأولى على غرار "ارحل لاتقيمن عندنا" أو قوله تعالى : {فمهمل الكافرين أمهلهم رويدا} وقد دله ابنه على عدم تصديقه للطوفان بقوله "قال ساوى الى جبل يعصمنى من الماء" والذى فصل عما قبله على طريقة الفصل فى المحاورات ، وفصلت جملة "يعصمنى من الماء" لكونها صفة للجبل أو استئنافا بيانيا .. فأجابه نوح بقوله : "قال لاعاصم اليوم...." وهنا قضى الأمر فيما يتحاوران فأغرق الابن العاصى لأمر أبيه ، وتغلب عاطفة الأبوة نبي الله نوحا عليه السلام فيهم بدعاء ربه طلبا لنجاة ابنه لأنه من أهله وقد وعده الله بنجاتهم قال تعالى :

{وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين} . (٤٤)

(١) راجع التحرير والتنوير ٧٤/٣ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٧٥/١٢ .

وهكذا أسدل الستار على حياة المكذبين الظالمين لأنفسهم بالاشراك بالله
وتكذيب رسوله فكانت عاقبتهم الهلاك بالغرق .

{ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلى وان وعدك الحق وأنت
أحكم الحاكمين قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلاتسألنى
ماليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب انى أعوذ بك أن
أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين } .
(٤٥-٤٧)

وصلت جملة "فقال رب" بالفاء وهى بيان للنداء فى قوله "ونادى
نوح ربه" وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف بفاء التفرع ، وقد علل
الزمخشري ذلك بأن المراد ارادة النداء لا النداء نفسه اذ لو أريد النداء نفسه
لجاء على غرار قوله تعالى على لسان زكرياء عليه السلام : {اذ نادى ربه نداء
خفيا قال رب انى وهن العظم منى ..} بغير فاء ، وهذا سر المجيء بالفاء (١) ،
وفى هذا الأسلوب اشارة الى أن نوحا كان مترددا فى الدعاء لطلب المغفرة
لولده لمعرفته أنه كافر بأماراة كونه فى عداد المغرقيين ولكن عاطفة الأبوة
غلبته فلم يطل ترده ، ولذلك قدم الاعتذار بقوله : "ان ابني من أهلى" ولم
يصرح بمطلوبه لولده من ربه ، وانما اكتفى بهذه الجمل الثلاث : فقال ان
ابني من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين" . وهى فى مقام
الدعاء تعريض بالمطلوب لأنه لم يذكره وذلك ضرب من التأدب مع الله
واكتفاء بعلم المسؤول بحاله (٢) .

وأكد قوله : "ان ابني من أهلى" للاهتمام بالخير والتماس عذر الشفقة
عليه لأنه من أهله ، وكذلك جملة "ان وعدك الحق" .

(١) راجع الكشاف ٢٧٢/٢ بتصريف .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٨٥/١٢ .

وقد رد سبحانه وتعالى عليه بأنه ليس من أهله اذ القرابة المعتبرة هي قرابة الدين لا النسب "قال انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني..." ، وتأكيده الخبر في قوله : "انه ليس من أهلك" لتحقيق الخبر لغرابته فهو يحتاج الى توكيد ، وجملة "انه عمل غير صالح" تعليل لمضمون جملة "انه ليس من أهلك" ، وقد علل ذلك لغرابته ، وللايدان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب .. وجعلت ذاته عملا غير صالح مبالغة في ذمه ، على طريقة "فانما هي اقبال وادبار" (١).

وتفرع عن ذلك - أى كونه ليس من أهله لأنه كافر - نهي عن أن يسأل مالمس له به علم أصواب السؤال فيه أم خطأ . وهذا عتاب من الله لنوح عليه السلام ، وفي قوله : "انى أعظك أن تكون من الجاهلين" موعظة على ترك التثبت قبل الاقدام حتى لا يكون في عداد الذين يعملون بالظن لأنهم لاسبيل لهم الى الوقوف على حقائق الأمور من قبل الله ، فيسأل نوح عليه السلام مثل مايسألون (٢). وهنا بادر نوح عليه السلام الى طلب الاستعاذة من الله من أن يسأل مالمس له به علم خاشعا متذللا راجيا غفران ربه ورحمته حتى لا يكون في عداد الخاسرين . وبعد هذه المناجاة ، يطوى السياق مغفرة رب العزة لنوح عليه السلام عبده ونبيه ومصطفاه ، ثم ينتقل السياق الى مايفهم المغفرة والرحمة وتحققهما لنوح عليه السلام ولمن معه ، قال تعالى :

{قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمنتهم ثم يمسه من عذاب أليم} . (٤٨)

فصلت هذه الجملة عن التي قبلها لوقوعها في سياق المحاورة لأنها خطاب من رب العزة لنوح عليه السلام بعد تلك الاستعاذة المؤكدة من نوح لفرط اهتمامه بها وشديد خوفه أن يكون من الخاسرين ، فخاطبه رب العزة

(١) راجع الكشاف ٢/٢٧٣ .

(٢) راجع نظم الدرر ٩/٢٩٥ .

والرحمة بهذا الخطاب اللين الوداع ، وبني فعل القول على المفعول دون الفاعل تعظيماً للفاعل ولكونه متعينا ومناسبة ماسبق من قوله تعالى : " قيل يا أرض ابلعي ماءك " ، وقوله : " وقيل بعدا للقوم الظالمين " .

ومن مجموع ماسبق يمكننا استخلاص مواقف قوم نوح تجاه دعوته في هذه السورة على النحو التالي ، فقد كفر به الملائمة من قومه استكباراً وعناداً ، وبنوا كفرهم ذلك على مطاعن واهية وشبهات ساذجة لاتستند على أساس قوى أو منطق سليم ، وتتلخص هذه المطاعن وتلك الشبهات في التالي :
* اشتراكهم مع نبي الله نوح عليه السلام في البشرية بحيث لم تكن له عليهم مزية يستحق بها النبوة دونهم - وهذا حسد منهم - " مانراك الا بشرا مثلنا " ، والحق أن المساواة في البشرية لاتمنع المفارقة في صفة النبوة ، " الله أعلم حيث يجعل رسالته " . (الأنعام : ١٢٤)

* أنه لم يتبعه أحد من الأشراف فليس له مزية عليهم باتباع الأراذل له ، ناسين أن الصناعات وغيرها من حظوظ الدنيا لاأثر لها في الديانة ، لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لاتكون بالشرف والمال والمناصب العالية ، وقد جرت سنة الله في أن الفقراء الحاملين هم دائماً أتباع الرسل ولاتضرهم خسة صنائعهم اذا حسنت سيرتهم في الدين ، ولأنهم لايتكبرون عن الاتباع لمال أو جاه أو خوف ضياع مصلحة أو سلطان .

* أنه لايتميز عليهم هو وأصحابه بالمال والشرف والجاه والسلطان جاعلين المال مقياساً للتفاضل بين البشر ، كما يبدو من حوارهم مع نوح عليه السلام استخفافهم به وبمن معه من المؤمنين .

* اتهامهم لنوح عليه السلام ومن معه بالكذب فيما يدعو اليه وفي اتباع أتباعه له .

* السخرية والاستهزاء بنوح عليه السلام ومن معه .
وقد رأينا كيف دحض نوح عليه السلام افتراءاتهم فأزهق أباطيلهم حتى أتى على بنيانهم من القواعد فهزه هذا ، فلما استيأسوا من مجاراته في

الحوار لجأوا الى التعنت والتحدى باستعجال العذاب بدل الاستغفار وطلب الهداية ، فحقت عليهم كلمة العذاب فكانوا من المغرقين .
 أما موافقهم في سورة المؤمنون فتظهر فيها بجاحة القوم وشدة استخفافهم بشخصه عليه السلام بصورة أوضح وأكثر صراحة مما سبق ، قال تعالى :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين . ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين} . (المؤمنون : ٢٤-٢٥)

فالى جانب شبهة كون نوح عليه السلام بشرا مثلهم والتي وجدناها من بين شبهاتهم في سورة هود ، نجد هنا اضافة جديدة مطوية في سورة هود وان كانت مفهومة من السياق هناك عن طريق مفهوم المخالفة ، وهى ما صرح به هنا في قولهم : " لو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين " ، وقد بنوا فرضيتهم في منافاة البشرية للنبوة والرسالة ، على الاحتكام الى التقاليد ، فيكفى عندهم دليلا على انتفاء نبوة نوح عليه السلام عدم سماع مثله في الآباء السابقين ، فالمسألة اذن ليست مقارعة الحجة بالحجة عندهم وانما هى مسألة تقاليد الآباء والأجداد ، كما أضافوا هنا علة ادعاء نوح النبوة وهى تتمثل في نظرهم القاصر في حب الرياسة والتفوق على القوم ، "يريد أن يتفضل عليكم" ، وهذا سر فصل جملة "يريد أن يتفضل عليكم" عن التي قبلها لأنها استئناف بياني ، فكأنه قيل : فما حمله على ادعاء ذلك فقالوا : "يريد أن يتفضل عليكم" . اذ لو أراد الله ارشاد البشر لوجب في زعمهم أن يسلك طريقا أشد افضاء الى المقصود وهذا الطريق هو بعثة الملائكة لأنه أشد افضاء الى المقصود من بعثة البشر ، اذ لاسبيل الى انكار الرسالة عندئذ عليهم من البشر لأنهم أعلى شأنًا وأشد سطوة وأكثر علما ، واذا لم يفعل الله مثل ذلك علم أنه لم يرسل رسولا ألبتة^(١) . وأضافت سورة المؤمنون أيضا ، اتهامهم اياه بالجنون المؤكد ، "ان هو الا رجل به جنة"

(١) التفسير الكبير ٩١/٢٣-٩٢ بتصرف .

وأكدوا ذلك عن طريق أسلوب القصر دفعا للانكار لأن المقام يقتضيه اذ وصفوا أعقل الناس بالجنون ، وقصروه على صفة الجنون قصرا اضافيا فيه قلب أى هو مجنون وليس برسول من الله ، ثم فرعوا على ذلك أمرا لقومهم بانتظار مآل أمره بعد زمان اما شفاء من الجنة فيرجع الى الرشد أو ازدياد الجنون به فيتضح أمره فتعلموا أن لا اعتداد بكلامه^(١). وهنا تضرع نوح عليه السلام الى ربه طالبا منه النصر والتأييد ، قال تعالى :

{قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون . فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين} . (٢٦-٢٩)

الجديد هنا فى هذه السورة يتمثل فى عدة أشياء ، دعاء نوح عليه السلام بطلب النصر بعد التكذيب وأن الوحي بصنع الفلك كان بعد طلبه النصر من الله ، وهذه اضافة جديدة فى جوانب القصة ، فاذا كانت سورة هود قد ذكرت الأمر بصنع السفينة بعد تئيس الله نوحا عليه السلام من ايمان من لم يؤمن من قومه مباشرة ، فان سورة المؤمنون أضافت أن الأمر بصنع السفينة وقع بعد طلب النصر من نوح عليه السلام .

واذا كانت سورة هود قد بينت لنا ما أمر نوح عليه السلام قومه بقوله عند ركوب السفينة ، فى قوله تعالى : {وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها} فان سورة "المؤمنون" أضافت ما أمر الله نوحا بقوله بعد الاستقرار فى السفينة {فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين} . وأضافت سورة هود استجابة الله لهذا الدعاء المأمور به عند قوله تعالى : {قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك} ، واذا

كانت سورة المؤمنون لم تصرح بذكر من آمن معه في الذين أمر بادخالهم السفينة فان سورة هود تكفلت بذلك فصرحت بذكرهم ضمن المحمولين في السفينة {حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل} .

أما قوله في سورة هود {قلنا احمل فيها} ، وفي سورة المؤمنون {فاسلك فيها} ، "فلأن سورة هود حكمت ماخطبه الله به عند حدوث الطوفان وذلك وقت ضيق فأمر بأن يحمل في السفينة من أراد الله ابقاءهم فأسند الحمل الى نوح تمثيلا للاسراع باركاب ماعين له في السفينة حتى كأن حاله في ادخاله حال من يحمل شيئا ليضعه في موضع ، وآية هذه السورة (المؤمنون) حكمت ماخطبه الله به من قبل حدوث الطوفان انباء بما يفعله عند حدوث الطوفان فأمره بأنه حينئذ يدخل في السفينة من عين الله ادخالهم مع مافي ذلك من تفنن في حكاية القصة" (١).

على أننا نلمس أن العذاب لم يتزل على القوم الا بعد أن طلب نبي الله نوح عليه السلام انزاله بعد أن كذبه قومه وأيأسه الله من ايمانهم بعد طول زمان الدعوة والانذار وبعد استعجال القوم له وتحديهم لنبي الله فأنزل الله العذاب انتصارا للحق وكسرا لشكيمة المعاندين ، وقد خلت سورة هود من هذه الاشارة اللطيفة واكتفت بالتهديد المتضمن للعذاب في قوله تعالى : {فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم} . أما موقفهم في سورة الشعراء ، فتمثل في رفضهم الايمان بسبب اتباع نوح عليه السلام الذين ينتمون الى الطبقة الدنيا في المجتمع وهم أصحاب الحرف من الحاكمة والأساكفة والصناع عموما الأقلون جاها ومالا ، والذين اتبعوا من غير تفكير وروية أو أنهم اتبعوه ظاهرا لاباطنا ، قال تعالى : {قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون} . فيرد عليهم نوح عليه السلام بقوله :

{وما علمى بما كانوا يعملون . ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون .
وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين} .

وقد رد عليهم نوح عليه السلام بأنه لم يكلف العلم بأعمالهم ولا بواطن
أنفسهم ولا سبيل له الى ذلك ، لأن حسابهم مقصور على الله لا يتجاوزة الى
غيره لأنه القادر على معرفة دخائل نفوسهم فيحاسبهم على ذلك وهذا سر
المجىء بجملة القصر في قوله "ان حسابهم الا على ربي" .

وقد بنى القوم كلامهم على استفهام انكارى أى لانؤمن لك وقد
اتبعت الأردلون ، فبنى نوح عليه السلام جوابه أيضا على الاستفهام اظهارة
لقلة الاعتناء بالمستفهم عنه وهو كناية عن قلة جدواه ، أى شىء علمى بما
كانوا يعملون حتى اشتغل بتحصيل علم ما كانوا يعملون وأعمالهم بما يناسب
مراتبهم فأنا لأهتم بما قبل الايمان^(١) . ثم نفى عن نفسه طرد المؤمنين وعلل
بقصر وصفه على الانذار ، وعليه يستوى عنده الغنى والفقير ، والشريف
والوضيع ، "وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين" . فهذا الوصف
يمنى من موافقتكم على طرد المؤمنين .

ولما أفحمهم نوح عليه السلام بحجته البالغة والتجمت أسنتهم عن
مقارعة الحجة بالبرهان لجأوا الى التهديد والمكابرة شأن من أعيته الحجة
وقطعت به المحجة واستحكمت فيه المعاندة فقالوا : {قالوا لئن لم تنته يانوح
لتكونن من المرجومين . قال رب ان قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا
ونجنى ومن معى من المؤمنين . فأنجيناه ومن معى فى الفلك المشحون . ثم
أغرقنا بعد الباقين} . (١١٦-١٢٠)

وقد التجأ نوح الى حمى ربه عندما أظهروا التجير والتواعد شاكيا
اليه اصرارهم على تكذيبه وطالبا منه الحكم بينه وبينهم كل بما يستحقه ،

(١) راجع التحرير والتنوير ١٦٠/١٩ .

وذلك بانزال العذاب والعقوبة عليهم وتنجيته ومن معه من المؤمنين . فأنجى الله المؤمنين وأغرق الكافرين .

ونلاحظ هنا اشتراك سورة الشعراء مع سورة هود في استبدال قوم نوح لأتباعه الضعفاء الفقراء وتشويه إيمانهم لخلو أيديهم من متاع الدنيا الفاني واتخاذ ذلك شبهة طاعنة في نبوة نوح ورسالته ، غير أن تشكيكهم في صحة إيمان أتباعه الفقراء قد صرحت به سورة هود في قوله تعالى {وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي} .

والمحت اليه سورة الشعراء في قوله {وما علمى بما كانوا يعملون . ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون} اجابة من نوح عليه السلام على قولهم {أنؤمن لك واتبعك الأراذلون} .

وإذا كانت سورة الشعراء قد اتفقت مع سورة هود في رفض نوح طرد المؤمنين به لأن ذلك ليس من شأنه ، فان سورة الشعراء قد عللت لذلك بتحديد نوح وظيفته المتمثلة في الانذار الواضح ، وهو ماخلت منه سورة هود التي علل نوح فيها رفض طردهم بأنهم ملاقو ربهم العالم بأسرارهم فيجازيهم على نواياهم وانه ان طردهم تعرض لعقاب الله الذي لا يمكن دفعه وتلك اضافات جديدة خلقت منها سورة الشعراء .

أما موقف قوم نوح في سورة القمر فقد اتسمت بالعنف والايجاز تناسقا مع جو الانذار العنيف الذي تتسم به السورة ، قال تعالى : {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر} (القمر : ٩-١٠) فهم قد كذبوا نوحا ثم اتهموه بالجنون ونهروه وآذوه بالسخرية وهددوه بالرجم فلاذ بغياث المستغيثين واستنصره فنصره فأهلك القوم بالطوفان .

وتتفق سورة القمر مع كل من سورة المؤمنون والشعراء في أن العذاب أو الغرق نزل تلبية لطلب نوح عليه السلام ، غير أن سورتي المؤمنون والشعراء تضيفان في الموضوع علة الطلب وهي تكذيب القوم اياه ففي سورة المؤمنون قال : {قال رب انصرني بما كذبون} ، وقال في سورة الشعراء : {قال رب ان قومى كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحا ونجى ومن

مواقف قوم هود عليه السلام :

أما قوم هود فقابلوا استمالته وحرصه وخوفه عليهم بغلظة وفظاظة وتكبر وتعنت وتكذيب ، ففي سورة الأعراف قالوا :

{قال الملأ الذين كفروا من قومه انالنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين} (الأعراف : ٦٦)

فصلت جملة "قال الذين كفروا" للاستئناف على طريقة الفصل بين المحاورات ، وقد قابلوا لطفه بالجهل والاستهتار فوسموه بالطيش المتمكن وخفة العقل والبلاهة المتناهية ، لمكان ظرفية "فى سفاهة" المجازية تعبير عن تمكن وصف السفاهة منه حتى كأنه محيط به من جوانبه احاطة الظرف للمظروف فهو لا يستطيع الانفكاك عنها ولا يصدر فى شىء الا عن سفاهة . ثم أكدوا ظنهم كذبه بجملة من المؤكدات ، من ان واللام واسمية الجملة ، دفعا للانكار لأن المقام يقتضيه ، وحالهم مكذب له .

ويأبى على هود عليه السلام أدب النبوة أن يرد بالمثل فيقابل الاساءة بالاساءة ، بل أغضى عن جهالتهم وأسبل عليهم أذيال حلمه رغم علمه بأنهم أضل الناس وأسفههم فقال عليه السلام : {ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين} . (الأعراف : ٦٨)

وقد تقدم تحليل نظير هذه الآية بلاغيا فى مواقف قوم نوح عليه السلام الا أنه قال هنا "وأنا لكم ناصح أمين" وهناك ، "وأنصح لكم" فجاء بصيغة المضارع فى خطاب نوح للدلالة على تجدد نصحه عليه السلام لهم كما يفصح عنه قوله "رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا" ، ولكون الضلال من صفات الفعل اكتفى بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث فقال "وأنصح" . ولما كان قوم هود اتهموا بوصف ثابت من صفات العقل ، جاء بما يدل على أن نصحه لهم وصف ثابت فيه متمكن منه وأن مازعموه سفاهة هو نصح ، وكونه ثابتا على هذا الوصف ينفى عنه السفاهة وماليها ، وفى

بيان صفته على أنه رسول من رب العالمين دلالة على أنه في الغاية القصوى من العقل والهداية ، "وأتبع" ناصح بـ"أمين" وهو الموصوف بالأمانة لرد قولهم له "لنظنك من الكاذبين" ، فالأمانة حالة في الانسان تبعثه على حفظ مايجب عليه من حق لغيره وتمنعه من اضاعته أو جعله لنفع نفسه^(١) ، فهو أمين فيما يبلغ عن الله لايزيد ولاينقص . ويبدو أن القوم استنكروا رسالته لبشريته واتخذوها ذريعة الى تكذيبه فزاه ينكر عليهم ذلك بقوله : "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون" .

وقد تقدم تحليل الاستفهام في قوله "أوعجبتم" في نظيره من قول نوح السابق ، وجملة "واذكروا" معطوفة على "اعبدوا الله" ويكون ما بينهما اعتراضا - حكى به ماجرى بينه وبين قومه من المحاوراة التي قاطعوه بها عقب قوله "اعبدوا الله"^(٢) .

ويجوز أن تكون عظفا على قوله "أوعجبتم" فيكون المعنى "لا تنكروا ذلك واذكروا ... " .

وقد انتقل من أمرهم بالتوحيد بصورة مباشرة الى ايصالهم الى ذلك عن طريق آثار الله الدالة عليه ، فذكرهم بنعمه عليهم والتي من ضمنها استخلاف الله لهم بعد قوم نوح الذين أغرقوا لعنادهم وتكذيبهم واستكبارهم على الله ورسوله ، وكانوا مثلكم ينكرون أن تكون النبوة والرسالة لبشر فكان عاقبة انكارهم مارأيتم أو سمعتم ، وقد استخلفكم بعدهم وأغدق عليكم النعم التي منها الزيادة في الخلق والقوة والبسط في الأرزاق والأبدان ليكون ذلك باعثا على الشكر من أجل الفلاح والنجاة ،

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٠٣/٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ٢٠٤/٩ .

وقد عطفت جملة "فاذكروا" على التي قبلها بالفاء الفصيحة للتعميم بعد التخصيص فهو المتفرد بهذه النعم فأفردوه بالعبادة لتفرده بالانعام والاحسان . وقد صادف هذا اللطف والاستمالة والترغيب من هود عليه السلام ، عنادا في قومه وتعنتا فقالوا : {قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتينا بآبائنا كفرا بآبائنا ان كنت من الصادقين} . (الأعراف : ٧٠)

وقد صدروا كلامهم بالاستفهام الانكارى التكذيبى وسلطوا الأداة على مجيئه بهذه الصفة وهى أمرهم بعبادة الله وحده ونهيهم عن دين الآباء ، وفرعوا على هذا الانكار طلب العذاب أو الاتيان به تعنتا وتحديا ، "وعقبوا كلامهم بالشرط استقصاء لمقدرته قصدا منهم لاطهار عجزه عن الاتيان بالعذاب فلايسعه الا الاعتراف بأنه كاذب ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله تقديره أتيت به وألا فلست بصادق" (١). وهنا غضب هود بنى الله لدين الله فقال :

{قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين} . (الأعراف : ٧١)

وقد أخبرهم هود عليه السلام بأنه قد ثبت وحق عليهم عذاب الله وعقابه ، وقد عبر عن ذلك بالفعل الماضى لتحقيق وقوعه لاحالة ، ثم استأنف وبنى كلامه على الاستفهام الانكارى التوبيخى ، وفصلت جملة "أتجادلوننى" لأنها استئناف بيانى للتعليل لوقوع العذاب والغضب وهو مجادلتهم فى نفى الوحدانية بأسماء لامسميات تحتها ولاطائل ، ولم ينزل عليها حجة من الله صاحب الخلق والأمر فعبادتها اذن مجرد هراء وخفة عقل وفى الاستفهام الانكارى اشارة الى أن العقل السليم لا يقرهم على ما هم فيه ، وفيه ايماء الى أنهم لم يعملوا العقل فيما يأتون به من العبادة ويجادلون فيها،

ثم هددهم بجلول العذاب مفرعا عن التهديد والانذار السابق فأمرهم بالانتظار ولم يذكر المنتظر وهو العذاب لكونه مفهوما امعانا في تهويله لتذهب النفس في تقديره كل مذهب . ثم استأنف بقوله "انى معكم من المنتظرين" بيانالحالته لمن رام معرفتها بعد أن هددهم بالأمر بالانتظار . وقد صدق الله وعيد نبيه فحل بالمكذبين عذاب الاستئصال عقابا على الاشراك به وتكذيب رسوله ، قال تعالى :

{فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين} . (الأعراف : ٧٢)

أما موقفهم في سورة هود فقد اتسم بالتكبر والافتراء والعناد والاصرار على الكفر ، قال تعالى :

{قالواياهود ماجئتنا بينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} . (هود : ٥٣)

بدأواكلامهم بندائه ليهتم بما سيقولون له حيث نزلوه منزلة البعيد لغفلته في نظرهم - حاشاه الله - فنادوه وهو قريب بما ينادى به البعيد ، ثم بنواكلامهم على جمل معطوفة بعضها على بعض بالواو المفيدة للمغايرة ايهاما الى أن كل واحدة منها كفيلة برد دعواه ، وهى على النحو التالى : "ماجئتنا بينة" وهذا افك منهم لأنه أتاهاهم بآيات بينات فجحدوا بها ، "ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك" وفيه تأكيد عدم تركهم آلهتهم من أجل دعواه ، وهذا التأكيد والتقوية مستفاد من تقديم المسند اليه المنفى على الخبر المشتق ويحتمل ارادة القصر أى مانحن خصوصا بتاركى آلهتنا عن قولك ، "ومانحن لك بمؤمنين" ، تأكيد آخر لعدم الايمان به وتيئيس له عن طريق التقديم المفيد للاختصاص أو التقوية كما سبق ، ولماكان هذا الكلام مثيرا للتساؤل فى نفس من يسمعه بأن يقول ان لم تؤمنوا بما جاء به أنه من عند الله فماذا تقولون فى دعوته فيكم ، استأنفوا لبيان ماعسى أن يعلق بذهن السامع من

هذه التساؤلات فقالوا : " أن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء " فاتهموه بكونه ممسوسا من بعض آلهتهم ومخبولا بفعله فما يدعيه ما هو الا هذيان المجانين ، وهنا احتمى هود بحمى ربه فأعلن تحديه لآلهتهم المزعومة التي لاتضر ولاتنفع معلنا شدة توكله على ربه ، وناصره الذى لايجلّف وعده فقال تعالى :

{قال انى أشهد الله واشهدوا انى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون . انى توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم} . (هود : ٥٥-٥٦)

ولو كانت آلهتهم مما يضر وينفع لفتكت به أو أصابته بأذى انتصارا لنفسها بعد هذه الاستهانة والتهمك بها ولكنها أحجار صماء لاتبصر ولاتحس ولاتضر ولاتنفع ، فلم تستطع أن تنتصر لنفسها فضلا عن الانتصار لغيرها وكون هود يتحدى الآلهة وعابديها فى ثقة متناهية فى ربه وهو وحيد فى قومه لدليل على أن معبوده هو الاله وغيره باطل وليس باله لأنه يندرج تحت مقهوريه الله وسلطانه ، وقد أكد هود هذا المعنى عن طريق القصر بالنفى والاستثناء "مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها" ، ثم استأنف بقوله : "ان ربي على صراط مستقيم" تعليلا لتوكله عليه ، واشعارا بأن كونه قاهرا مقتدرا لايجرجه عن سمت العدل لأنه متصف باجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله ، وفرع جملة "فان تولوا فقد أبلغتكم ماأرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولاتضرونه شيئا ، ان ربي على كل شىء حفيظ" فرع جملة "فان تولوا" على جملة "انى أشهد الله" ومايينهما اعتراض (١). وقد خلع عليهم تبعة التولى وأنه ليس لتقصير منه فى التبليغ وأن توليهم لا يضر ربه ولاينقص من ملكه شيئا وسيحفظه من أن ينالوه بسوء ، وقيل ان هذا الخطاب الأخير لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الى قريش .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٠١/١٢ .

ويبلغ بهم الاستهتار مبلغه في موقفهم منه في سورة الشعراء فيعلنون له أنه يستوى عندهم وعظه وعدمه تيئسا له من ايمانهم وأن الذي هم عليه ماهو الا ديدن الآباء والأجداد منذ أقدم الدهور ولامناص عن سنة الآباء وتقليد الأسلاف وأنهم غير معذبين لأن ماهم عليه من الحياة والموت ليس الا عادة لم يزل الناس عليها من قديم الزمان فلاعقاب ولاثواب ، ولاجنة ولا نار ولابعث ولانشور .

{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الأولين ومانحن بمعذبين} . (الشعراء : ١٣٦-١٣٨)

ولم يختلف موقفهم في سورة الأحقاف عنه في سورة الأعراف حيث أنكروا عليه صرفهم عن آلهتهم متحدين له بطلب انجاز ماوعدهم من العذاب أو يثبت كذبه بدون ذلك ، {قالوا أجنثنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} . (الأحقاف : ٢٢)

وقد سبق تحليل نظيرها ، ولم يسع نبى الله هوذا ازاء هذا التحدى السافر الا أن يعلن لهم أن معرفة وقت نزول العذاب مقصورة على الله لا تتجاوزه الى غيره "قال انما العلم عند الله" وهو من قصر القلب ، وأن مهمته البلاغ وتجديده وعدم الاقلاع عنه ، بأمانة قوله "وأبلغكم" المفيد للتجدد والحدوث ، ثم استدرك بأن القوم يجهلون قدر الله وبطشه بالمجرمين وأن العذاب واقع لاحالة ان استمروا على الكفر والعناد . "وأبلغكم ماأرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون" .

على أن سورة الأحقاف تشترك مع سورة الأعراف في استعجال القوم العذاب تحديا وتعنتا وتكديبا ، كما تشاركها في الانكار لمحاولته صرفهم عن آلهتهم الا أن سورة الشعراء تضيف جديدا في هذا الموضوع تمثل في علة تقديسهم للآلهة وتمسكهم بالأصنام وهى تقليد الآباء والمحافظة على مقدساتهم .. وقد خلت سورة الأحقاف من هذه اللفتة الدالة على أن القوم لايصدرون عن عقل وانما يتحركون في عبادتهم بدافع التقليد الأعمى للآباء.

وبعد ، فقد رأينا من قبل مدى حرص هود عليه السلام على هداية قومه واستنفاذه في سبيل ذلك جميع الوسائل المتاحة له يحدوه في ذلك كله اللطف والاستمالة الى أن أياسوه من ايمانهم وانتصروا لآلهتهم وأصروا على العناد والتكذيب ، عندئذ استنصر ربه فنصره وانتصر لدينه .

أما مواقف القوم تجاه دعوة هود عليه السلام فقد اتسمت بطابع الاستهتار والتعنت والتكبر والافتراء ، فاتهموه بخفة العقل والكذب ، واتخذوا بشريته مانعة لتصديقه ونبوته ، وأنكروا البينة الدالة على صدق نبوته ثم اتهموه بالخبيل والجنون بفعل آلهتهم المزعومة ، ثم أعلنوا شدة تمسكهم بدين الآباء والأجداد وكذبوا بالبعث والنشور وتحدوه أن يأتي بعذاب ، وتلك عادة الجاهلين يتواصون بها فيما بينهم لأن الكفر ملة واحدة وما أشبه الليلة بالبارحة .

مواقف قوم صالح عليه السلام :

وعن موقف قوم صالح عليه السلام في سورة الأعراف يقول تعالى :
 {قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم .
 أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين
 استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا
 يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في
 دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم
 ولكن لا تحبون الناصحين} . (الأعراف : ٧٥-٧٩)

ونلاحظ في موقف قوم صالح تجاه دعوته ، تهكما واستهزاء بأتباعه
 الضعفاء واستخفافا به وبرسالته ، فهم يسألون أتباعه على سبيل التهكم
 والسخرية "أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه" فبنوا كلامهم على جملة
 انشائية مبنية على الاستفهام المشوب بالتهكم والاستهزاء ، والانكار والتشكيك
 فرد أتباعه مؤكدين شدة تيقنهم بصدق نبوته ورسالته مما حملهم على الايمان
 به ايمانا قاطعا ، فبنوا كلامهم على التوكيد بجملة من المؤكدات ان وتقديم
 المعمول الجار والمجرور على عامله "مؤمنون" ، واسمية الجملة ، وفي ذلك
 دفع لمطمعهم في التشكيك ، وكان يكفي أن يجيبوهم "بنعم" مثلا ، ولكنهم
 عدلوا عن ذلك مسارعة الى تحقيق الحق واطهار مالهم من الايمان الثابت
 المستمر الذي تنبىء عنه الجملة الاسمية ، وتنبيها على أن أمر ارساله من
 الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه وانما التحقيق بالسؤال عنه هو الايمان
 به^(١) ، ويغتاظ الملأ من ايمان الضعفاء الراسخ بصالح عليه السلام فيأخذهم
 الكبر والعنجهية على اعلان كفرهم البواح بما جاء به صالح عليه السلام ،
 بانين كلامهم في ذلك على التوكيد المماثل لايمان الضعفاء بصالح ، "انا بالذي
 آمنتم به كافرون" ولم يقولوا "بالذي أرسل به" اظهارا لمخالفتهم اياهم وردا

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٢/٣٦٤-٣٦٥ .

لمقاتلهم ، ولم يكتفوا باعلان الكفر بل أتبعوه بعناد أشد وتبجح أرعن وأعلنوها حربا وتحديا لصالح وربه ، فعقروا الناقة تحديا له وتكذيبا بالفعل بعد القول واستعجلوه انجاز وعيده ، فاستوجبوا بذلك على أنفسهم عقاب الله وبأسه الشديد الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ودوت السماء دويا فصعقوا وأهلكوا ، وقد عطفت جملة "فأخذتهم" على ما قبلها بالفاء السببية ، لأن ما قبلها سبب لها ، ثم عطفت جملة "فأصبحوا" على ما قبلها بفاء التعقيب والترتيب ، اشعارا بسرعة هلاكهم وتحولهم موتى خامدين لاحراك بهم ، ويتحسر صالح عليه السلام مغتما على ما فاتهم من الايمان حزيننا متحزنا على هلاكهم متوليا عنهم معلنا أنه لم يقصر فى مهمة التبليغ والارشاد والنصح ولكن عنادهم وعدم قبولهم للنصح هو الذى أوردتهم مورد الهلاك وأدى بهم الى هذا المصير .

ويتسم موقفهم فى سورة هود بالتحجر العقلى والتقليد الأعمى للآباء ، يقول تعالى :

{قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب} . (٦٢)

وهم فى هذا الموقف يعلنون خيبة أملهم فى صالح الذى كان عندهم ذا زلفى ومكانة لما كانوا قد رأوا فيه من خير ، "قد كنت فينا مرجوا قبل هذا" ، وفصلت جملة "أتنتهانا" عن التى قبلها لأنها بيان لها باعتبار دلالتها على التعنيف واشتمالها على اسم الاشارة الذى تبينه أيضا جملة "أتنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا"^(١) ، وفى بناء هذه الجملة على الاستفهام المشوب بالانكار والتوبيخ اشارة الى أنه لا ينبغى فى دين العرف والتقاليد مخالفة الآباء ، وعبروا عن عبادة الآباء بصيغة المضارع تصويرا للحال كأن آباءهم موجودون فلا تمكن مخالفتهم اجلالا لهم .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٢/١١٠ .

ثم أكدوا شكهم فيما يدعوهم اليه بالنون واللام وبالاشارة بالظرف الى احاطة الشك بهم احاطة الظرف بالمظروف وهو شك مفض الى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين (١).

[ولما أبرزوا له أمرهم في قالب الشك على سبيل الجزم قابلهم بمثله على سبيل الفرض انصافا لهم واستشارة لبواعث التفكير المتزن فيهم والنظر السديد في الأمور مستأنفا] (٢). قال تعالى : {قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير} . (٦٣)

وقد بنى صالح عليه السلام كلامه على استفهامين الأول تقريرى بالهمزة ، والثانى انكارى "بمن" والمنكر هو ما بعد "من" الاستفهامية وهو انكار أن يكون له نصير من الله ان عصاه فقصر في ابلاغهم دعوته احتفاظا برجائهم فيه ، وفي ذلك اشعار بعدم نفع رجائهم فيه ونصرهم اياه من الله ، ثم قصر هذا الرجاء في حالة الاحتفاء به بكونه تحسير لاغير لأنه سيورثه "غضب الله وحرمانى شرف الرسالة وخزى الدنيا وعذاب الآخرة" (٣).

ثم شرع يلفتهم الى البينة التى طلبوها تصديقا لرسالته ثم جحدوا بها بعد أن استيقنتها أنفسهم وهى مالو تأملوا فيها تأمل من يريد البينة للايمان لكفوا عن شكهم ولم يلتبس عليهم أمرهم ، ولكنهم طلبوها تعنتا واستكبارا وأيا ماكان غرضكم من طلب البينة فهأهى تى أمامكم "ناقة الله" وفى اضافتها الى لفظ الجلالة تشريف لها وانها ليست ككل النوق وهى تدل على صدق نبوتى ورسالتى ، قال تعالى :

{وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب ، فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب} . (هود : ٦٥)

(١) انظر نظم الدرر ٣٢٠/٩ .

(٢) المصدر السابق ٣٢٠/٩ .

(٣) انظر فى ظلال القرآن ١٩٠٨/٤ .

وقد أمرهم صالح أمر ارشاد بأن يتركوا الناقة تأكل في أرض خالقها ونهاهم نهى نصح بعدم التعرض لها بالاساءة ولو صغرت ، منذرا اياهم عذاب الله القريب ان مسوها بسوء ، ولم ينفع معهم ارشاد ولاردعهم نصح فعقروها تحديا لرسول الله وعنادا فأعطاهم رسول الله مهلة ثلاثة أيام هي كل مابقى لهم من متع الحياة ثم يأتي أمر الله بالقضاء المحتوم باهلاك المكذبين العتاة بعد ثلاثة أيام مباشرة تصديقا لنبيه وانتصارا للحق .

أما موقفهم في سورة الشعراء فكان انكارا لرسالته بسبب بشريته وهو موقف يتناسق مع سياق السورة ولهجة الكفر فيها من لدن قوم نوح الى آخر من أرسل أو آخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

{قالوا انما أنت من المسحرين ماأنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من

الصادقين} . (الشعراء : ١٥٣-١٥٤)

وقد أكدوا تكذيبه بكونه فيما يصدر منه من الدعوة الى التوحيد صادرا عن اختلاط في العقل واختلال لقواه العقلية فقصروه على تلك الصفة قصرا اضافيا للقلب ، أى انك مسحور لامرسل من الله ، ثم أكدوا هذا الادعاء أو التهمة بكونه بشرا مثلهم ، وهذا سر فصل جملة "ماأنت الا بشر مثلنا" عن التي قبلها لكونها في حكم التأكيد للتي قبلها ، ثم فرعوا على ذلك طلب البينة على صدق دعواه ، "فأت بآية ان كنت من الصادقين" وحذف جواب الشرط لدلالة ماقبله عليه ، وكان طلبهم على سبيل التحدى والالاح وقد قبل صالح عليه السلام التحدى وطلب من ربه المعجزة ، فأخرج لهم ناقة من صخرة ، {قال هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين} .

(الشعراء : ١٥٥-١٥٧)

والجديد هنا في البينة هو بيان مقاسمتها اياهم في الشرب ، وأنها

جاءت بعد طلب منهم أمانة على صدق نبوته .

وامتلاً موقفهم منه في سورة النمل ضيقاً وتضجراً ، حتى راموا اغتياله خفية ، استراحة منه ومن دعوته ، وذلك بعد أن استعجلوه نزول العذاب تكديبا له وعنادا ، فأنكر عليهم الأخذ بجانب العذاب دون جانب الرحمة ، قال تعالى :

{قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وانا لصادقون} . (النمل : ٤٦-٤٩)

الاستفهام في قوله "لم تستعجلون" للانكار التوبيخي ، وظاهره أنه استفهام عن علة استعجالهم ، وانما هو استفهام عن المعلول كناية عن انتفاء ماحقه أن يكون سببا لاستعجالهم العذاب ، فالانكار متوجه للاستعجال لالعلته^(١) ، وفي ذلك اشعار بأنهم لم يعملوا عقولهم في هذا الاستعجال وأن مقتضى العقل الاقلاع عن ذلك بالتوبة النصوح رجاء رحمة الله حتى لايعذبهم ، وهذا منتهى الحرص عليهم لأن فيه ترك باب الأمل أمامهم على مصراعيه للتوبة الصادقة والعودة الى الله ولكنهم في غيهم يترددون ، وعلى كفرهم يصرون لاينفعهم نصح ولا تجدى معهم دعوة ، وقد ابتلوا بالقحط ردحا من الزمن فتشاءموا في بلواهم بصالح ومن معه من المؤمنين ، فأعلمهم رسولهم بأن السبب الحقيقي في ما هم فيه من ضيق وضجر وقحط وبلاء هو استمرارهم على العناد والمكابرة الذي أورثهم من عند الله هذه البلايا التي لاتزول الا بزوال أسبابها ، وأن الذين يقولون انه سبب شؤمهم انما هم قوم فتنهم الشيطان فتنة متجددة لمكانة فعل المضارع "تفتنون" ، وأنى لهؤلاء القوم الذكرى والتبصر ، وقد تحجرت عقولهم وقست قلوبهم وتلوثت

(١) انظر التحرير والتنوير ١٩/٢٨٠ .

فطرتهم فهم لا يستمرئون الحياة الا في ظل الفساد "يفسدون ولا يصلحون" ،
 ووصلت جملة "لا يصلحون" بالتى قبلها ، وكان حقها أن تفصل عنها لأنها
 بمثابة التوكيد المعنوى لما قبلها ، احتراسا للدلالة على أنهم تمحضوا للفساد
 ولم يكونوا خلطوا افسادا باصلاح (١).

وقد تحالفوا على مباغتته ليلا لاغتياله هو وأهله بحيث لا يعرف قاتله
 وذلك بطمس آثار الجريمة ، وانكار أن يكونوا هم قتلوهم أو شاهدوا
 مقتلهم ، مؤكداين صدقهم فى ذلك عند السؤال "بان واللام واسمية الجملة"
 لتوقع الانكار ، وهذا دليل على أنهم يعرفون يقينا أنهم لا يصدقون ،
 فاحتاطوا لذلك بمثل هذا التوكيد .

وقد جهلوا أن الله يكلاً نبيه بحفظه ويدافع عن الذين آمنوا فباغتهم
 بالاهلاك قبل أن يباغتوا صالحا وأهله .

وهكذا اتسمت مواقف قوم صالح تجاه دعوته الى التوحيد ومكارم
 الأخلاق بالسخرية والاستهزاء ، والاستخفاف به وبمن معه من المؤمنين
 المستضعفين ، والاحتكام الى تقاليد الآباء فى أمور الدين والتكذيب مع
 التشكيك فى صدق نبوته باتخاذ بشريته شبهة مانعة للنبوة واتهامه بالجنون
 والتخليط ثم التشاؤم به وبمن معه من المؤمنين ، فمحاولة اغتياله وأهله سرا
 وفى جنح الليل اهدارا لدمه ، وقد طلبوا البيينة على صدق دعوته تعنتا
 وعنادا ثم كفروا بها بعد ذلك ، وأخيرا تحدوه تحديا سافرا ، فعتوا عن أمر
 ربهم فعقروا الناقة ظلما وعدوانا .

وقد اشتركت سورة الشعراء مع سورة هود فى الحديث عن معجزة
 صالح عليه السلام وهى الناقة مع انذار القوم مغبة التعرض لها بأذى سوء
 فيتسبب عن ذلك اتخاذ القوم بعذاب الاستئصال ، ورغم هذا الاشتراك فقد
 تفردت سورة الشعراء باضافات خلت منها سورة هود ، وتعد هذه الاضافات

(١٣٠)

تكملة لأبعاد القصة ، وهى أن الناقة أخرجها الله بعد طلب القوم لها آية
على صدق نبوة صالح عليه السلام ، وأنها كانت تقاسم القوم المياه
بالتساوى ، يوم لها ويوم لهم .

مواقف قوم ابراهيم عليه السلام :

وبعد أن أفحم ابراهيم قومه بتلك البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله وسلب أصنامهم أدنى معاني الألوهية ، وقفوا منه موقف الخصومة والمجادلة بالباطل زاعمين أن آلهتهم ستصيبه بسوء انتقاما لنفسها لسبه اياها واهانتها لها ، وأن دعوته غي وضلال ، يقول تعالى :

{وحاجه قومه ، قال أتجاجونى فى الله وقد هدانى ولاأخاف ماتشركون به الا أن يشاء ربه شيئا وسع ربه كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ماأشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون } . (الأنعام : ٨٠-٨٢)

وقد أنكر عليه السلام على القوم حاجته فى وحدانية الله بعد أن هداه الله الى الحق وذلك عن طريق جملة انشائية مبنية على الاستفهام الانكارى التوبيخى ، ثم أثبت تجرد آلهتهم من أى اضرار أو نفع وذلك باثبات عدم خوفه واكتراثه بها ، مستثنيا مشيئة ربه الكامل القادر ، ثم أكد انكار خوفه منها من جديد وذلك عن طريق جملة استفهامية مشوبة بالانكار والتعجب والتوبيخ ، "وكيف أخاف" اشعارا بغرابة هذا الأمر وهو مخافة أصنام عاجزة لاتقدر على شىء ، "ولايخافون" أنهم أشركوا بالله القادر القهار ذى القدرة على العذاب والنقمة ، مالم يتزل على ألوهيتها دليل أو حجة مانعة من انزال غضبه عليهم ، ... ونلاحظ فى كلام ابراهيم عليه السلام هنا كثرة بناء جملة على الاستفهام ، أتجاجونى .. أفلا تتذكرون .. كيف أخاف ، وأخيرا يقررهم بقوله : "فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون" . ولعل السر فى ذلك يرجع الى مافى الاستفهام من اثاره العقل وبعثه على التفكير المتزن ، ففى قوله "أفلا تتذكرون" بعد انكار حاجته فى الوحدانية الثابتة لله بكل الأدلة ، اشارة الى أن أمر تجرد أصنامهم من معاني الألوهية وتفرد الله بها أمر مركز فى العقول لايتوقف الا على التذكر ، وفى ايقاع الانكار بكيف فى

قوله "وكيف أخاف" مبالغة لاتوجد مع غيرها من أدوات الاستفهام ، حيث يتوجه الانكار بها الى انكار الوقوع ونفيه بالكلية ، وذلك يتم عن طريق الاستدلال العقلي ، بتسليط الانكار على كيفية الخوف لاعلى الخوف نفسه "بأن يقال أخاف لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعاً ، فاذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهاني"^(١).

ويقف منه أبوه موقفاً معانداً ملؤه العنف والتحجر خلو من أدنى عواطف الأبوة بعد أن دعاه ابراهيم عليه السلام الى مافيه صلاحه وفلاحه بأسلوب يعبق بكل معاني البنوة المخلصة الصادقة من رفق ولين ، فقابل والده لينه بشدة ورفقه بقسوة وفظاظة ، فهدده بالرجم باللعن والحجارة واستهجره زمناً طويلاً لا يراه فيه ، ولكن ابراهيم النبي لم يخرج عن سمت النبوة وأدب الرسالة وحسن المعاملة ، اذ قابل عنفه وفظاظته بلين ورفق فلم عليه سلام موادعة ومتاركة واعداء أباه بالاستغفار له ، قال تعالى :

{أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفياً . وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً} . (مريم : ٤٦-٤٨) ولكون هذا الموقف الذى اتخذته الوالد من ولده مما يستنكر ولا يصدق أكد والده كلامه بجملة من المؤكدات دفعا لهذا الانكار وتأكيذا للتهديد "لئن لم تنته لأرجمنك" .

واتخذ منه قومه موقف البغى والعدوان فى سورة العنكبوت حيث لجأ القوم الى استعمال جاههم وقوة ملكهم بعد أن أقام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحججة ، فراموا قتله بتحريقه بالنار فأجابه الله من كيدهم ، قال تعالى :

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٢/٢٣٩ .

{فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار
ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون} . (العنكبوت : ٢٤)

وبعد أن نجاه الله من كيدهم ، أعلن لهم أن عكوفهم على الآلهة إنما
هو للمودة التى بينها وبينهم ، وهذا محط الحصر فى قوله {وقال إنما اتخذتم
من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم
ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} . (العنكبوت :
٢٥)

وسر القصر فى "إنما" اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم" هو أنه
لم تبق لهم شبهة فى عبادة الأوثان بعد أن أبطلها ابراهيم بحججه الدامغات
وبراهينه القاطعة فلم يبق هناك داع الى عبادتها غير الالف والمودة ، وسوف
يتحول هذا الالف وتلك المودة الى ملاعنة ومباغضة يوم القيامة .. وقد
وقفوا منه الموقف ذاته فى سورة الصافات فقالوا : {قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه
فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين} . (الصافات : ٩٧-٩٨)
واتخذوا منه موقفاً مماثلاً لما سبق وان زاد عليه بسخف وخفة عقل
فبعد ما ألّفوا آلهتهم المزعومة جذاذاً ، قالوا : "من فعل هذا بآلهتنا انه لمن
الظالمين" فأكدوا ظلم من قام بهذه الفعلة بآلهتهم بان واللام واسمية الجملة
اشعاراً بأنه من الذين يجب الانتقام منهم ، فراحوا يبحثون عن الجانى فقيل
ان الذى يحتمل أن يكون فاعلاً لهذا الفعل الشنيع هو ابراهيم الذى كان
يذكرهم بسوء ، فطلبوا الاثيان به على رؤوس الأشهاد ليكون عبرة للشاهدين
{قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم
يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا
فاسألوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون . ثم
نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله
مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا
حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على
ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين} . (الأنبياء : ٦٠-٧٠)

وكان الاتيان به على مرأى ومسمع من الناس غاية مبتغى ابراهيم عليه السلام لينشر دعوته بالأدلة القاطعة بين الناس ، فسألوه ان كان هو الفاعل أو غيره ، أنت فعلت هذا بآلهتنا .. فنفى أن يكون هو الفاعل وقال : " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون " وقد هزهم بهذا التهكم الساخر وردهم الى اعمال العقل بالتدبر والتفكر ، مما جعلهم يدركون ماهم فيه من سخف وخفة عقل ، " فرجعوا الى أنفسهم " ولكن عاملى الهوى والتقليد لم يتركا للقوم فرصة للتفكير الطويل ، فسرعان ما تحول الادراك والرجعة الى النفوس الى نكسة على الرؤوس فلا عقل ولا منطق ولا تدبر ولا تفكير ، فقالوا : " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " وتلك حجة على بطلان ألوهيتها لو كانوا يعقلون . وهنا فرع ابراهيم على اعترافهم بعدم نطقها انكاره التوبيخى عبادتهم أصناما لاتضر ولا تنفع متضجرا من صنيعهم هذا الذى يخلو من مسحة من عقل وومضة من تفكر وتدبر ، فأنكر عليهم أيضا عدم تدبرهم فى البراهين الواضحة والدلائل الشاهدة من العقل والحس على بطلان عبادة هذه الأصنام وعدم الاعتصام بجبل الله المتين الذى هو التوحيد مقتضى العقل والفطرة ، ولما غلبوا بالحجة القاهرة لجأوا الى الاهلاك تخلصا من ابراهيم عليه السلام وانتصارا لآلهتهم ، فألقوه فى النار ولكن رب النار طلب منها تغيير وظيفتها المعهودة الى البرد والسلام فامتثلت لأمر ربها فكانت النجاة لابراهيم الخليل عليه السلام .

وهكذا اتخذ القوم من ابراهيم عليه السلام فى دعوته موقف العناد والجهل والبغى بغير حق ، فاحتكموا الى تقاليد الآباء وقدسوا معبوداتهم وساروا على نهجهم فى العبادة والمعبودات ولجأوا الى التهديد بالرجم وطلب الابتعاد ، وذلك فى موقف أبيه منه عليه السلام ، ثم لجأوا أخيرا الى اغتياله بالقائه فى النار انتصارا لآلهتهم ، ولكن الله نجى نبيه فكانت النار بردا وسلاما عليه .

ومن الجدير بالملاحظة أن قوم ابراهيم لم يصرحوا ولو في موضع واحد بتكذيب ابراهيم عليه السلام ، ولعل العلة في ذلك ترجع الى قوة حجته التي لا يجد الخصم منها فكاكا ولا يستطيع لها دفعا ولا غرابة في ذلك فقد نوه الله جل وعز عن تلك الموهبة التي وهبها اياه بقوله : {وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم} . (الأنعام : ٨٣)

مواقف قوم لوط عليه السلام :

أما مواقف قوم لوط ، فقد اتسمت بالتضجر والضيق والبغى والعدوان ، ففي سورة الأعراف ، نجد أن القوم ضاقوا به ذرعا وتضجروا بمواعظه فراموا اخراجه ونفيه من المدينة ، قال تعالى :

{وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم انهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} . (الأعراف : ٨٢-٨٤)

فالتطهر من هذه الفاحشة النكراء جريمة كبيرة يستحق صاحبها العقاب بنفيه عن المدينة حتى لايعاود الانكار .

أما موقفهم في سورة هود فكان مليئا بالبغى والعدوان والاحراج ، لمحاولتهم الاعتداء على ضيفه من الملائكة ، ويبدو أن ذلك كان ديدنهم معه كلما طرقة ضيف ، فأصبح من أجل ذلك يضيق بالضيوف ذرعا دفعا للاحراج الذى قد يواجهه به من تصرف قومه ضدهم ورومهم الاعتداء عليه وهو فعلا ماواجهه من القوم عندما جاءت الملائكة في صورة البشر ، وكان القوم يتزقبون فرصة كهذه فجاءوا يهرعون اليه طمعا في ضيوفه ، فحاول صرفهم عن ذلك اكراما لضيوفه حتى عرض عليهم الزواج بناته ولكن دون جدوى فقد أعلنوا رغبتهم عن بناته وأكدوا عليه معرفته بما يتطلعون اليه ، وانتهى به الأمر أخيرا الى نوع من الاستسلام للواقع الذى يعيشه كل ضعيف لايملك القوة المادية ، مما جعله يتنهد في اطار التمنيات التى لايدرى متى تتحقق ، وكيف تحدث وان كان كبير الثقة بنصر ربه .. وهنا كانت المفاجأة التى تذهل الانسان فقد كان هؤلاء الضيوف الذين ساء بهم لوط وضاق بهم ذرعا وشعر بالموقف العصيب ازاءهم ، هم الذين جاءوا يحملون اليه القوة التى تمناها لتدمير طغيان قومه وزهوهم وكل الخرافاتهم حتى لايبقى هناك أى شىء وأى شخص منهم ، حتى امرأته التى كانت تتعاون معهم وتتعاطف وتنقل اليهم أخباره "أنها مصيبتها ماأصابهم" وهكذا جاء العذاب الذى انتظروه واستهزؤا به ، قال تعالى :

{وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد} . (هود : ٧٨-٨٠)

{قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبيها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد} . (هود : ٨١-٨٣)

والاستفهام فى قوله "أليس منكم رجل رشيد" للانكار والتوبيخ لأن اهانة الضيف مسبة لا يفعلها الا أهل السفاهة ، وفصلت جملة "هن أطهر لكم" لأنها تعليل للعرض أى هن حلال لكم يحلن بينكم وبين الفاحشة ، واسم التفضيل على غير بابه لأنه قصد به قوة الطهارة^(١)، وفرع على قوله "هن أطهر لكم" قوله "فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى" أى ان قبلتم عرضى لكم النساء الحلائل فاتقوا الله . والتوكيد فى قولهم "قالوا لقد علمت" ، وقولهم : "وانك لتعلم ما نريد" مستعمل فى لازم فائدة الخبر ، وأكدوا تزيلا له منزلة المنكر لما بدا لهم من أمارات انكاره معرفته بأنهم لارغبة لهم فى بناته وأنه يعلم ما يريدون .

وفصلت جملة "انه مصيبيها ما أصابهم" عن التى قبلها لأنها استئناف بياى ناشىء عن الاستثناء من الكلام المقدر فى قوله "ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك" ، والتقدير "الا امرأتك تلتفت"^(٢). كما فصلت جملة "ان موعدهم الصبح" عما قبلها لأنها تعليل للأمر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر

(١) انظر التحرير والتنوير ١٢/١٢٩ .

(٢) المرجع السابق ١٢/١٣٣ .

بالحث على الاسراع ، وجملة "أليس الصبح بقريب" تأكيداً للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع في الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب (١). وقيل انها استئناف بياني جواباً من الملائكة عن سؤال يجيش في نفس لوط من استبطاء نزول العذاب وهذا سر فصلها عما قبلها (٢).

وواجهوه في سورة الشعراء بالتهديد باخراجه ونفيه من قريتهم ان لم ينته ويتراجع عن تقبيح أعمالهم ، ولكنه ظل مستنكراً لها متبرئاً منها معلناً بغضه الشديد لجرمهم الشنيع مبتهلاً الى ربه أن ينجيه وأهله من سوء ما يعملون ، فنجاه وأهله أجمعين الا امرأته ، قال تعالى :

{قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال انى لعنكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . الا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين} . (الشعراء : ١٦٧-١٧٢)

ولا يختلف موقفهم منه في سورة النمل عنه في سورة الأعراف من حيث استحسانهم لقبائحهم وعد من يستقبحها مجرماً يعاقب بالنفسى والاخراج من القرية ، قال تعالى :

{فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين} . (النمل : ٥٦-٥٨)

وامتلاً موقفهم منه في العنكبوت تحدياً واستخفافاً وتكذيباً وعناداً ، حيث استعجلوه انزال العذاب تكذيباً له وتعنتاً ، فاستنصر ربه فنصره ، قال تعالى :

{فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرنى على القوم المفسدين ... ولما أن جاءت رسلنا لوطا ساء بهم

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٧٦/٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣٣/١٢ .

وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين . انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون} . (العنكبوت : ٢٩-٣٠ ، ٣٣-٣٥) الجديد في هذه السورة هو مطالبة القوم العذاب تحديا وتكذيبا ، واستنصار لوط ربه بصورة مباشرة ، وطمأنة الملائكة له بتنجيته وأهله باستثناء امرأته التي حق عليها كلمة العذاب ، وتعد هذه المعاني اضافات جديدة في قصة لوط عليه السلام ، حيث نجد في هذه السورة اجابة لدعوة لوط عليه السلام ربه في سورة الشعراء "رب نجني وأهلي مما يعملون" ، فأجيب بقول الملائكة هنا "قالوا لاتخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين" .

واذا كانت سورتي الأعراف والنمل قد ذكرتا طلب القوم اخراج لوط ومن معه ونفيهم من المدينة ، وكانت سورة الأعراف قد أبهت المخرجين بقولهم "أخرجوهم من قريبتكم" ثم فسرت سورة النمل أو وضحت هذا الابهام بقوله تعالى : "أخرجوا آل لوط من قريبتكم" ، فان سورة الشعراء تضيف جديدا في هذا الأمر وهو أن القوم قد سبق وأن هددوه بأن يكون من المخرجين اذا لم يترك تقبيح صنيعهم ومحاولة صرف الناس عن عملهم القبيح ، فأصر نبي الله لوط على موقفه وأعلنه صراحة في وجوههم "قال اني لعملكم من القالين" .

واذا كانت سورة هود تشترك مع سورة العنكبوت في ذكر مجيء رسل العذاب الى لوط في صورة البشر ضيوفا عليه وضيقة بهم ذرعا خوفا من أن ينالهم قومه بسوء صنيعهم ثم طمأنة ملائكة العذاب له بعدم وصولهم اليه كانت سورة هود تتفرد بذكر تعليمات النجاة بالخروج بقطع من الليل وعدم الالتفات الى المكان المتروك ، كما تفردت بذكر موعد العذاب وهو الصبح ، واستبطاء لوط للزمن وجواب الملائكة لهذا الاستبطاء الذي تعتلج به نفس لوط عليه السلام بقولهم "أليس الصبح بقريب" .

كما تفردت سورة العنكبوت ، بذكر مهمة الرسل على ألسنتهم وهو ما فهم ضمنا في سورة هود "انا رسل ربك لن يصلوا اليك" وقد يفهم من آية هود أنهم سيمنعونه وأهله من القوم ومن العذاب فقط ، بحيث تقتصر مهمتهم على ذلك ، فتأتى آية سورة العنكبوت لتضيف جديدا الى مهمتهم وهو ما تلهف اليه لوط عليه السلام واستبطأه "انا منزلون على أهل هذه القرية رجلا من السماء بما كانوا يفسقون" ، فتتضح بذلك مهمتهم وهى انزال العذاب مضافا اليها تنجية لوط ومن معه ، أضف الى ذلك طريقة العذاب ونوعه ، وهكذا كذبوه واستعجلوا العذاب تحديا لنبوته وهددوه باخراجه ونفيه خارج القرية واستهزءوا به وبمن معه "انهم أناس يتطهرون" وأخيرا هاجموا في عقر داره للاعتداء على ضيوفه بتلك الفاحشة الشنيعة النكراء فكان ذلك أمانة نهايتهم ودليل هلاكهم ، فأهلكهم الله ونجى نبيه وأهله الا امرأته التى كانت خائنة لنبي الله لوط مخلصه لقومها فأصابها ماأصابهم .

مواقف قوم شعيب عليه السلام :

أما موقف قوم شعيب من دعوته الى التوحيد ومكارم الأخلاق في سورة الأعراف ، فيتسم بالعنف والشدة والتبجح بالقوة التي أعطاه الله لهم فهددوه وطلبوا منه اختيار أحد أمرين :

أحدهما : اخراجه من القرية ونفيه هو ومن معه من المؤمنين .
والثانى : دخوله في ملتهم وعودة من آمنوا معه اليها .. قال تعالى :
{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أولو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما ، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين } . (الأعراف : ٨٨-٩٢)

وقد رفض نبي الله الحيارين معا ، وأنكر عليهم ذلك ونفاه عن طريق جملة انشائية مبنية على الاستفهام الانكارى التوبيخى "أولو كنا كارهين" وسلط الانكار على الاخراج والعودة الى ملة الكفر وهم كارهون ، وفى ذلك اشعار بأن ذلك ظلم منهم لو فكروا بشىء من عقل ، ثم أكد أن العودة الى ملة قومه افتراء على الله بعد معرفتهم بطلان الشرك وأن لاله الا الله وحده لا شريك له ، ثم أكد نفى العودة مرة أخرى بأنها لاتصح ولاينبغى لهم ذلك الا تحت مشيئة الله الذى له الأمر والحكمة ولايسأل عما يفعل ، وهذا منه عليه السلام استسلام لمشيئة الله وخوف العاقبة وانتقال الأمور ، ثم حصر توكله ومن معه على الله لايتجاوزه الى غيره ، وفى ذلك اظهار لاعتماده على الله وفيه أيضا الاستعانة بالله فى أمر الاخراج من القرية ، وأخيرا طلب النصر من ربه بالدعاء "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق" ، ولما خاف القوم

أن يفارقهم أهل ملتهم ويتبعوا شعيبا لما شاهدوا من صلابته هو ومن معه من المؤمنين على إيمانهم متوكلين على ربهم ، بدأوا ينفرون الناس منه تثبيطا عن الايمان به بعد أن ظهرت شواهد صدقه فقالوا "لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون" فزلزل الله بهم الأرض فأهلكهم فكانوا هم الخاسرين . {فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف أسي على قوم كافرين} . (الأعراف : ٩٣)

واصطبغ موقفهم منه في سورة هود بالسخرية والتندر عليه ، والتمسك بدين الآباء واستضعافه وتخثيره ، قال تعالى :

{قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو نفعل في أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود . قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود} . (هود : ٨٧-٩٥)

وبعد هذا التهكم والسخرية التى تنبىء عنه الجملة الانشائية التى بنوها على الاستفهام التهكمى فى خطابهم نبى الله قصدا الى تسفيهه وتجهيله والتندر به ، "أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد" فقد وصفوه بالوصفين على طريقة التهكم وانما

أرادوا بذلك وصفه بضديهما^(١) يمد لهم شعيب جبل صبره ورشده فيسائلهم مستثيراً فيهم كوامن العقل ودواعى التدبر والتفكير المتزن ، وذلك عن طريق الاستفهام التقريرى فى قوله "قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وماأريد أن أخالفكم الى ماأنهاكم عنه" ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام . وتقدير الكلام : أخبرونى ان كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ماتقولون مما لاخير فيه ولاشر وراءه"^(٢) ، وأنه لا يروم مخالفتهم بحيث يأمر بشىء ثم لا يأتى بمثله بل يفعل ما يأمرهم به ويتمثله وينتهى عما ينهاهم عنه ويتجنبه ثم قصر ارادته فى ذلك الأمر والنهى على الاصلاح ما استطاع الى ذلك سبيلا متبرئاً من أى حول وقوة فى ذلك مسندا الأمر كله الى صاحبه ، "وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب" فقصر توفيقه على الله لا يتجاوزة الى غيره فمنه وحده يطلب التوفيق والعون والمدد والسداد فيما يأتى ويدع ، وفى ذلك رد لأطماع الكفار عنه وتأكيد لعدم المبالاة بهم وبمكائدهم مع اظهار الثقة بربه الذى لا يهزم جنده كما قصر انابته الى الله وحده بالتوبة أو العودة بعد الموت .

ويظل عليه السلام جد حريص على ما يصلح القوم مشفقاً عليهم فيلجأ الى التذكير بمصارع الغابرين المخالفين لرسولهم ، المشركين بربهم وهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط الذين كانوا أقرب المجرمين اليهم زمناً ، وفى هذا التذكير ترهيب اتبعه بترغيب يفتح باب الأمل واسعا أمامهم وذلك بالاستغفار والتوبة من الشرك والمعاصى : "واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود" ، وقد فصل جملة "ان ربى" لأنها تعليل للجمل السابقة ترغيباً فى الاقبال على التوبة وقطعا لليأس مع الذنوب . وقد قابلوا

(١) ارشاد العقل السليم ٨١/٣ .

(٢) انظر السابق ٨١/٣ .

حرصه عليهم بفضاظة وخفة عقل فاتهموه بالهذيان واستضعفوه واحتقروه .
 {قالوا يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لئراك فينا ضعيفا ولولا رهطك
 لرجمناك وما أنت علينا بعزيز} أى ما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة
 علينا . وفى هذا اسقاط لكونه على النبوة مؤيدا من عند الله مستعصما به عن
 درجة الاعتداد به والاعتبار ، ولذلك رد عليهم بقوله : "أرهطى أعز عليكم
 من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط" ، والاستفهام
 انكارى توييخى مشوب بتعجب حيث عكسوا الأمر فنظروا الى قرابته من
 قومه ولم ينظروا الى قرابته من الله المحيط بكل شىء علما وقدرة فنبذوه
 وجعلوه نسيا منسيا^(١).

وفى قوله "ان ربي بما تعملون محيط" تعريض بمجازاتهم على جعله
 منسيا وعدم مراقبتهم له ، كما أن احاطته بكل شىء تجعله يبطل كيدهم
 ضده ولما كان كلام القوم مشتتلا على تهديده عليه السلام ، واشتمل كلامه
 على عدم المبالاة بهم والاستهانة بقوتهم أتبع ذلك كله بتهديدهم بعد أن
 استيأس من ايمانهم واستيقن اصرارهم على الكفر والتكذيب فقال مهددا
 "ويا قوم اعملوا على مكانتكم . انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب
 يجزيه ومن هو كاذب وارثقوا انى معكم رقيب" ، وقد فصلت جملة "سوف
 تعلمون" عن التى قبلها على الاستئناف البيانى وهو وصل خفى يشير الى
 تقدير سؤال قائل : ماذا يكون اذا عملنا وعملت^(٢). وأكد قوله "انى معكم
 رقيب" لتوقع الانكار حيث كانوا يكذبونه وينكرون قوله . وقد تحقق المهتد
 به فأتى أمر الله بالعذاب فنجى شعيب ومن معه من المؤمنين ، وأهلك
 الكافرون بالصيحة فكانت عليهم اللعنة الى يوم الدين بسبب كفرهم
 وعنادهم .

(١) انظر ارشاد العقل السلم ٨٥/٣ .

(٢) انظر نظم الدرر ٣٦٥/٩ .

ونأتى الى سورة الشعراء فنجد فى موقفهم من شعيب ودعوته تكذيبا واتهاما بالجنون ورفضاً قاطعاً لدعوته تحت سيطرة المنطق الجاهلى الفاسد الذى يرفض النبوة لبشر ويرضى بالالهية لـحجر ، كما نجد منهم تحدياً سافراً متعنتاً باستعجال العذاب تكذيباً وتهكماً ، قال تعالى :

{قالوا انما أنت من المسحرين . وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم . (الشعراء : ١٨٥-١٨٩)

وقد فوض شعيب عليه السلام أمره الى الله الذى يعلم كفرهم ومعاصيهم فهو أعلم بحالهم وبما يستحقون من العذاب فينزله عليهم فى حينه المحدد عنده .

ونلاحظ جديداً فى سورة الشعراء فى موضوع العذاب وهو أن القوم قد تعنتوا بطلبه واستعجلوه تكذيباً لنبي الله ففوض أمره وأمرهم الى الله ، لأنه عالم بالخفايا والظواهر ، وأن طلبه الفتح بينه وبين قومه بالحق فى سورة الأعراف لم يأت الا بعد تعنتهم بطلب العذاب كما أن تهديده به فى سورة هود لم يأت الا بعد تهديدهم له ، فأظهر بذلك قلة اكترائه بهم واستهانتته بتهديدهم لأنه واثق من أن وعد الله بنصر أوليائه لا يتخلف .

وهكذا نجد أن القوم قد هددوه بالنفى والايخراج من القرية أو الاكراه على الكفر والشرك تبجحاً بما أوتوا من قوة ، ولجأوا الى السخرية والاستهزاء والتندر به ، وهددوه بالاغتيال اعتداداً بما لديهم من قوة واستضعافاً له واستهانة به ، وأظهروا تمسكهم بتقاليد الآباء فى العبادة والمعاملة وكذبوه واتهموه بالجنون ، واحتكموا الى المنطق الجاهلى الفاسد فى رفض النبوة لبشر بدعوى المماثلة لهم فى البشرية وأخيراً طلبوا انزال العذاب تعنتاً واستخفافاً .

مواقف فرعون وبنى اسرائيل من دعوة موسى عليه السلام:

تبدأ مواقف فرعون وملايئه من موسى عليه السلام ودعوته في سورة الأعراف بطلب البيعة من موسى تصديقا لدعواه الرسالة من عند الله ، فيلبي موسى عليه السلام هذه الرغبة من فرعون بالقاء عصاه التي تحولت الى ثعبان ضخمة مخيف واخرجه يده السمراء من تحت جناحيه فاذا هي بيضاء باهرة البياض للناظرين من غير سوء من برص أو غيره ، قال تعالى :

{قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين . قال نعم وانكم لمن المقربين . قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنة برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا انا الى ربنا منقلبون . وماتنقم منا الا أن آمنة بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين . وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وانا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون . ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طائرهم عند الله

ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكتون . فانقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون} . (الأعراف : ١٠٦-١٣٧)

وقد كان موقف الملأ من قوم فرعون من المعجزة البينة أن اتهموا موسى بأنه ساحر واقترحوا حشر جميع السحرة فى مدائن مملكة فرعون ممن هم على دراية ومهارة وتفوق فى السحر ، وجمع السحرة فأتوا فرعون مؤكدين عليه ضرورة تخصيص جعل وعطاء لهم ان كانوا غالبين فى مباراتهم مع موسى عليه السلام ، وأكد عليهم فرعون ذلك وزيادة . وقبل بدء المباراة يحاول السحرة هز موسى للغلبة عليه نفسيا قبل المعارضة وذلك بترك خيار البدء له أو لهم مظهرين بذلك أن كلا الأمرين سيان عندهم لثقتهم بسحرتهم وان كانت عناصر التوكيد فى التعبير عن أنفسهم "أن نكون نحن الملحقين" تدل على رغبتهم فى أن يلقوا أولا . ويترك موسى لهم البدء اظهارالعدم المبالاة بهم ثقة بربه وأن الغلبة له ، وتتم المعارضة فتكون الغلبة لموسى ، ولم تكن حادثة الغلبة لتمر على السحرة من غير تأثير وهم الذين أدركوا حقيقة ماجاء به موسى من أنه ليس من جنس السحر ، وكيف يكون سحرا وهم قد حذقوا السحر ودفَعوا الى مضايقه ومجاهيله فعرفوا ضروبه وأتقنوا أنواعه ، فلاشك أن الذى أتى به موسى حق من عند الله مؤيد من السماء من قبيل المعجزات التى تمنح الأنبياء تصديقا لدعواتهم ، واذا كان الأمر كذلك فليكونوا أول المؤمنين برسالة موسى كما كانوا أول المدركين لحقيقة ماجاء به ، فكان الايمان منهم رغم محاولة فرعون صرفهم عن الايمان

باتهامهم بالمكر والمؤامرة ، والتواطؤ مع موسى للاطاحة بملكه ، فكان تهديده اياهم بالتعذيب والتشويه والتنكيل وكان منهم الصبر على البلوى والثبات على الايمان مستمدين العون والقوة والثبات من الله راجين منه حسن الختام .

وقد راع الملأ من قوم فرعون ايمان السحرة وصلابتهم عليه فخافوا على ضياع نفوذهم بذهاب ملك فرعون المهدد بدعوة موسى ورسالته فراحوا يؤلبون فرعون على موسى وقومه فوعد فرعون بالتنكيل بقومه بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم كما كان يفعل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام ، فيوصى موسى قومه بالصبر انتظارا لوعد الله لهم بالتمكين ، ولكن القوم يستبطنون الوعد ، فيردهم موسى عن ذلك ردا جميلا .

ونلاحظ في الموقف شدة شكيمة فرعون وملأه فقد ابتلوا وأخذوا بصنوف البلايا والكوارث ليتذكروا ولكن ذلك لم يزدهم الا عنادا ونفورا بل أعلنوا كفرهم البواح تيئيسا لموسى عليه السلام من ايمانهم "مهما تأتتا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين" ، وقد تشاءموا بموسى في بلاياهم واختصوا أنفسهم بالحسنات ، ولم يعلموا أن ذلك كله من الله ، وكانوا ينكثون عهودهم مع موسى ، وقد انتقم الله منهم فأغرقهم وأورث بنى اسرائيل الذين كانوا مستضعفين في الأرض وتحقق لهم وعد الله بالنصر والاستخلاف والتمكين بسبب صبرهم على دين الله .

ولا يختلف كثيرا موقف فرعون من دعوة موسى في سورة طه عما كان عليه في سورة الأعراف ، بل يعد ما في سورة طه في معظمه تجلية واطافة لبعض جوانب المواقف الواردة في سورة الأعراف ، فبعد أن بين موسى وهارون عليهما السلام مضمون رسالتهما من الله الى فرعون ، يسألهما فرعون عن حقيقة ربهما لأنه لايعرف للناس ربا سواه ، فيعرفه موسى عليه السلام بربه ورب فرعون ورب الناس جميعا بآثار ملكه وربوبيته في الأنفس والآفاق ، والتصرف في الكون وتدبير شؤون الخلق وتربيتهم ، وكلها آيات

شاهدة على وحدانيته اذ لا يشاركه أحد في الخلق والتدبير والانعام فاستحق بذلك أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئاً .

ثم بين لفرعون أن أصل نشأته ونشأة الخلق جميعاً من الأرض ومآله ومآلهم جميعاً إليها بعد الموت ، ثم يخرجونها منها للحساب والجزاء ، وبعد أن تجلت لفرعون الآيات الدالة على صدق موسى ووحدانية الله سبحانه وتعالى ، يكابر فرعون ويعاند ويتهم موسى بالسحر في آتت العصا التي تنقلب الى الحية واليد السمراء التي تتحول الى بيضاء ناصعة من غير سوء ، وأنه يريد اخراج الناس من أرضهم بسحره فسوف يقابل سحره بسحر مثله فليحدد موسى موعداً للمعارضة ، فيحدد موسى مواعده بيوم الزينة ضحوة من النهار لأن ذلك أجلى للعين وأوضح ليشاهد الناس جميعاً قدرة الله ومعجزات الأنبياء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية .. قال تعالى :

{قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أرينا آياتنا كلها فكذب وأبى . قال أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم الناس ضحى . فتولى فرعون فججمع كيداً ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لانفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن تكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل

اليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأت مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى . ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخش . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى } . (طه : ٤٩-٧٩)

وأنت ترى أن موقف فرعون وملأه لا يختلف كثيرا هنا عما كان عليه فى سورة الأعراف ويمكن التماس الفروق والاضافات على النحو التالى :
ذكرت سورة الأعراف أن موسى عليه السلام ألقى عصاه التى تحولت الى ثعبان ونزع يده السمراء التى ابيضت ناصعة للناظرين من غير ماسوء ، استجابة لطلب فرعون البينة وبعد استعراض البينة اتهم الملأ من قوم فرعون موسى بالسحر وأنه يريد اخراج الناس من أرضهم بذلك ، وأن القوم تشاوروا واتفقوا فى تأجيل الأمر وجمع مهرة السحرة من كل مكان لمبارزة موسى .

وقد طوت سورة طه ذكر هذا الاستعراض الأول للمعجزة ، وذكرت اتهام فرعون موسى بالسحر وأنه سيأتى بسحرة يعارضونه بسحر مثل سحره ، وهذا يعنى أن فكرة المعارضة كانت مشتركة بين فرعون وملأيه أو أنهم اقترحوا عليه تلك الفكرة فاستجاب لهم وواجه بها موسى عليه السلام ،

وطلب منه تحديد الوقت والمكان لهذه المعارضة ، وقد حدد موسى الوقت والمكان في هذه السورة وهي مشاهد مطوية في سورة الأعراف .

وفي سورة الأعراف ذكر ما كان من السحرة من طلب الأجر على الغلبة في صورة مؤكدة ، "ان لنا لأجرا" وضمنا فرعون لهم ذلك وزيادة بشكل أكد ، "نعم وانكم لمن المقربين" ، كما اختصت سورة الأعراف بذكر الحالة النفسية التي خيمت على المشاهدين اثر القائهم حبالهم وعصبيهم وهي تعظيم ماجاءوا به من السحر والرهبه منه ، وأنهم وقعوا تحت سيطرته "سحروا أعين الناس" ، كما صورت حجم ماجاءوا به من السحر "وجاءوا بسحر عظيم" وهذه مشاهد تفردت بها سورة الأعراف وطويت في سورة طه التي تفردت بتصوير حالة موسى عليه السلام النفسية عندما ألقى السحرة ما ألقوا وهي الخوف من فتنة المشاهدين بما جاءت به السحرة مما قد يؤثر على درجة استيعابهم لحجم معجزته اذ لم يكن هو بمنجى من تأثير تخييل السحرة وتمويهاتهم "يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى" وأن الله طمأنه بالنصر والغلبة والتفوق كما تفردت بذكر حقيقة السحر وهي الكيد السحري الذى لاحقيقة تحته وليس لصاحبه فلاح ولابقاء . كما تفردت كذلك بتحذير موسى السحرة قبل المعارضة من الافتراء على الله وأن عقاب الافتراء شديد ومبيد .

وفي موقف ايمان السحرة ، ذكرت سورة الأعراف اعتراض فرعون على السحرة ايمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم وأن مرد ذلك الايمان الى مكر ومؤامرة اشتركوا فيه مع موسى في المدينة ليخرجوا منها أهلها .. واشتركت سورة طه مع الأعراف في ذكر هذا الموقف من فرعون غير أنها أضافت ذكر علة التواطؤ مع موسى بأنه كبيرهم الذى علمهم السحر ، كما أضافت ذكر آلة الصلب وهي جذوع النخل وقد طوى ذكرها في الأعراف .

أما خطاب السحرة فرعون بعد تهديده ، فقد ذكرت منه سورة الأعراف جانب عدم مبالاتهم بما يصنع فرعون من العذاب لأنهم راجعون

الى ربهم بعد ذلك ، وأن العذاب لم يكن من فرعون الا لانكار ايمانهم بآيات ربهم بعد مجيئها اليهم واستيقان أنفسهم لها ، فلا يستطيعون لها دفعا بسبب انكار فرعون أو تهديده اياهم بالقتل والتنكيل فهم ثابتون على الايمان بالله مستمدون منه العون والمدد بالصبر على عذاب فرعون راجين منه حسن الختام واستأثرت سورة طه بالتركيز في خطابهم على اعلان ايشارهم لخالقهم والنور الذى جاءهم على فرعون وقلة اكرائهم بقضاء فرعون فيهم بالعذاب مهما كان قاسيا وشديدا لأنه قضاء مقصور على كونه فى هذه الدنيا الفانية فقط لا يتجاوزها الى الآخرة ، وأنهم آمنوا بربهم طمعا فى غفران خطاياهم وما أكرههم عليه من السحر وأن الله خير لهم من فرعون وماعنده من ثواب أدوم وأبقى مما وعدهم به فرعون ومناهم .. وقد تفردت سورة طه أيضا الى جانب موعظة موسى للسحرة قبل المعارضة ، ببيان تأثير تلك الموعظة على بعضهم بحيث أوقعتهم فى تنازع الأمر بينهم والذى انتهوا فيه الى الدفاع عن مهنتهم حتى لا ينصرف الناس عنهم ان غلبهم موسى ، فتواصوا باجماع كيدهم والاتيان صفا حين الالتقاء لأن ذلك أرهب للناس وأدعى الى ارهاب موسى وهارون ، وأدنى للغلبة والقهر .

وتأتى سورة الشعراء لتضيف جديدا فى مواقف فرعون وملايئه من دعوة موسى تمثل فى محاولة النيل من شخص موسى باتهامه ضمنا بالجحود ونكران الجميل وعدم الوفاء ، ثم التهديد بالقصاص بطريق غير مباشر ، كل ذلك ليصرف الأنظار والعقول عن دعوة موسى .

أما الاتهام بالجحود فقد تمثل فى من فرعون على موسى تربيته وتنشئته فى قصره ومكته فيهم مدة طويلة من غير أن يدعى هذه الدعوى التى تجعل للناس ربا غير فرعون الذى لا يعلم للناس الها غيره .

وأما التهديد الضمنى بالقصاص فيمثله تذكيره موسى بجريمته الشنعاء التى لا يجد فرعون ما يعبر به عنها لشناعتها فاكتفى بتسميتها "فعلتك" وهى جحود أيضا من موسى حيث قابل الاحسان بالاساءة بقتله القبطى مناصرا

لأخيه الاسرائيلى ، ولا بد للعدالة أن تأخذ مجراها وتقتص للقبطى . وقد ظن فرعون أن هذه هى قاصمة الظهر لموسى عليه السلام . غير أن موسى يدافع عن نفسه ويرد على اتهامات فرعون رداً مفحماً ، فما كان ليتربى فى قصره لولا استعباده لبني اسرائيل وأين منة التربية من منة الاستعباد لقومه بني اسرائيل؟ وأما قتل القبطى فكان انتصاراً لقومه المقهورين فلما خاف على نفسه من بطش فرعون فر منه لينجو بجلده فوهبه الله الحكمة والنبوة وجعله فى عداد المرسلين .. ولما رأى فرعون قوة حجته سأله متهمكاً عن رب العالمين ، الذى يدعى أنه مرسل من قبله ، فيجيبه موسى بآثاره المتمثلة فى خلق السموات والأرض وما بينهما وتديرهما على هذا النظام المطرد ، ويحاول فرعون صرف عقول قومه عن استيعاب الحاجة باثارة دهشتهم من هذا الهراء العجيب فقال "ألا تستمعون" ولكن موسى يفوت عليه الفرصة بمهاجمة من حوله بالحقيقة الكبرى التى يأبى فرعون الاستماع لها ، وهى أن رب العالمين هو ربهم لافرعون وهو أيضاً رب آبائهم الأولين ، من قبل فرعون .

وهنا لجأ فرعون الى أسلوب آخر للتصديه وذلك باتهام موسى بالجنون متهمكاً به ، ولكن موسى يمد له حبل صبره وأناته ولا يترك لاستفزاز فرعون سبيلاً الى قلبه ، ويكر عليه بفاجئة أخرى فى الدلالة على وحدانية الله واستحقاقه وحده للربوبية والألوهية وهى أنه خلق المشارق والمغرب وما بينهما على هذا النسق العجيب ، وفى ذلك دلالة على الوحدانية لقوم يعقلون ، فلما أجمه وأفحمه لجأ الى التهديد واستعمال البغى والعدوان والقوة شأن الطغاة فى كل عصر ومصر اذا أعيتهم الحيلة وانقطعت عنهم الحجة فتوعد موسى بالسجن اذا اتخذها غيره ، ولكن موسى يعيده الى شىء من التعقل بقوله : {قال أولو جئتكم بشىء مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين} .

فيعرض عليه موسى معجزتي العصا الحية واليد البيضاء ، فيتهمه فرعون بالسحر ، ومن هنا الى نهاية المواجهة والمعارضة بين موسى وسحرة فرعون وانتصار موسى عليهم وايمانهم بموسى في نهاية المطاف وتهديد فرعون لهم بالقتل والتنكيل ، لايضيف السياق جديدا اللهم الا ماكان من استشارة فرعون للملأ بعد عرض موسى لمعجزته واتهامه له بالسحر ، ونقطة الاستشارة هذه مطوية فيما سبق في سورتي الأعراف وطه فهي اضافة جديدة في القصة مضافا اليها حث الناس بعضهم بعضا على الحضور والمشاهدة واتباع الذى يتم له الغلبة على المباراة وان ترجح عندهم غلبة السحرة ، وشيء آخر تمثل في مقولات السحرة لفرعون بعد تهديده اياهم بالتشويه والصلب بأنهم منقلبون الى ربهم طامعين في غفرانه بسبب كونهم أول الناس ايمانا برب موسى وهارون ، وهو ماطوته سورتا الأعراف وطه من خطابهم فرعون.

كما تمتاز هذه السورة بكثرة التفصيلات لنهاية فرعون وملأيه ، وامتازت أيضا بذكر تفصيلات تعليمات النجاة وكيف جمع فرعون قومه على ملاحقتهم ، وتقابل الجمعان وشعور بنى اسرائيل المؤكد بأنهم مدركون . ونفى موسى المؤكد لهذا الادراك ثقة بمعية ربه وفي تحقق وعده .. كما أضافت جديدا في موضوع انفلاق البحر وهو وصفه بعد الانفلاق بفتح بين جبلين عظيمين ، وهنا تأتي أهمية اضافة سورة طه في هذا الموضوع وهي أن الفج كان يابسا بحيث يأمن سالكه من الغرق {ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى} . (طه : ٧٧)

وفي جعل الطريق يابسا اغراء لفرعون وجنوده بملاحقتهم فى الفج البحرى اليابس ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وقد حصل فقد تابعوهم فنجى الله موسى ومن معه وأغرق فرعون وجنوده ولم يفلت منهم أحدا . قال تعالى :

{قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها اذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل . قال فرعون ومارب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جنتك بشيء مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين . قال نعم وانكم اذا لمن المقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون . انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين . وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . ان هؤلاء لشردمة قليلون . وانهم لنا لغائظون . وانا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى اسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون . قال كلا ان معى ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا

ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم } . (الشعراء : ٦٨/١٨)

وتأتى سورة يونس لتضيف جديدا فى بناء مواقف فرعون وملأيه تجاه موسى ودعوته ، فبعد اتهامهم اياه بالسحر فيما جاء به من الآيات ، واستنكار نبي الله موسى أن يكون ماجاء به من قبيل السحر الذى لايفلح أصحابه ، وأن الذى معه حق من عند الله ، يبادر القوم باعلان تمسكهم بدين الآباء ، متهمين موسى وأخاه فى صرفهم عن دين الآباء بحب الاستعلاء وحياسة السلطان فى الأرض ، فهم لهذا لا يؤمنون بموسى وأخيه لأن دعوتهما مغرضة . ثم يأتى موقف جلب فرعون لمهرة السحرة لمعارضة موسى عليه السلام فيتسم فى هذه السورة بايجاز طوى فيه كثير من مشاهد الموقف وأضيف جديد تمثل فى قول موسى بأن الذى أتى به السحرة هو السحر لاالذى جاء به موسى عليه السلام وأن الله سيبطله لأنه تعالى لا يصلح عمل المفسدين . وهذا سر فصل جملة " أن الله لا يصلح عمل المفسدين " عن التى قبلها فى قوله "ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين" كما سيأتى . ومن الجديد أيضا ، أنه رغم ظهور موسى على السحرة بمعجزته الباهرة الصادقة لم يؤمن مع موسى من قومه الا قليل على خوف من فتنة فرعون والملأ ، وهذا يريك مدى تجر فرعون وطغيانه واسرافه فى الفساد كما يبين لك مدى سيطرة خوف فرعون على قلوب بني اسرائيل ، هذا الخوف الذى حاول موسى عليه السلام استخراج منه قلوبهم بأمره اياهم بتخصيص توكلهم على الله بحيث لايتجاوزه الى غيره كائنا من كان ، وهذا سر التقديم فى قوله : {وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين} فتقديم الجار والمجرور المعمول على عامله "توكلوا" يفيد الاختصاص أو تخصيص التوكل على الله لايتجاوزه الى غيره . وقد استجابوا للأمر فقصروا توكلهم على الله ، "فقالوا على الله توكلنا" متضرعين اليه ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين وأن ينجيهم برحمته

من القوم الكافرين . أضف الى ذلك أمر الله موسى وأخاه بائخاذ بيوت بمصر تكون قبلة تقام فيها الصلاة وتبشير المؤمنين بالنصر القريب ، ثم تأتي دعوة موسى على فرعون وملأيه - بعد أن تيقن عدم ايمانهم به ، بالطمس على أموالهم والشد على قلوبهم فلا ينفذ اليها الايمان حتى يعاينوا العذاب الأليم ، حيث لا ينفذ ايمان ولا ندم .. وقد أجيبت الدعوة وأمر بالمضى قدما على درب الرسالة وعدم اتباع سبيل من لا يثق بوعد الله ولا يعلم قدره ، وتلك اضافات خلت منها السور السابقة .

قال تعالى : {ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملأيه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبيطه ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون . فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأيه أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين . وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين . وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين . وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون } . (يونس : ٧٥-٨٩)

ويأتى موقف فرعون وملأيه في سورة المؤمنين كاللمحة البارقة ولكنها تضيف جديدا كل الجدة في مواقفهم ، وهو استنكار الايمان لشخصين يمثلاهم في البشرية ويقلان عنهما في الأوضاع الاجتماعية حيث ينتمون الى طبقة العبيد المستذلين فكيف للشريف أن يتبع المشروف الوضيع ، قال تعالى :

{ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وملأيه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون . فكذبوهما فكانوا من المهلكين} . (المؤمنون : ٤٥-٤٧)

وهذا الموقف كما ترى يضاهاى مواقف الكفرة السابقين من أقوام الرسل السابقين ، توارثها الجاهلون خلفا عن سلف ، وهو موقف ورد في سياق انكار رسالة الرسل لبشريتهم وهو أحد المحاور الرئيسة التي تدور حولها سورة المؤمنون .

ويأتى موقف فرعون وملأيه في سورة القصص ليظهر لنا مدى الجمود الفكرى والتبجح بالسلطان ومجاوزة الحدود والطغيان الذى كان يتصف به فرعون وملأيه فهامهم أولاء يحتكمون الى الآباء والتقاليد فيما جاء به موسى عليه السلام بعد أن اتهموه بالسحر المفتعل ، فهم يرفضون رسالته لأنها سحر ولم يسمعوا بمثل هذا الذى يدعو اليه من عبادة الله وحده بلاشريك ، ولكن موسى عليه السلام يفوض أمره الى الله فهو كفيل باظهار أمره ونصره على من كذبوه وهو متيقن بأن العقاب له ولمن معه من المؤمنين وأن الظالمين المكذبين ليس لهم الا الهلاك والدمار . ويقابل فرعون موقف موسى اللطيف المسالم بتكبر واستخفاف وتكذيب لموسى ، مدعيا لنفسه الألوهية على قومه طغيانا وافتراء أمرا وزيره هامان ببناء قصر منيف رفيع ليطلع منه على اله موسى المزعوم .. قال تعالى :

{فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن

تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون يا أيها الملام ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} . (القصص : ٣٦-٤٠)

أما سورة غافر فيأتى موقف فرعون وملأيه فى غاية التكذيب والتجبر والكيد ، حيث اتهموا موسى بالسحر والكذب صراحة وقتلوا ذكور أبناء قومه المؤمنين تقليلا لهم واستحيوا نساءهم لاستردالهم كيدا لموسى حتى يتشاءم به قومه ، ثم محاولة قتله بحجة تبديله الدين وافشاء الفساد فى الأرض ، ولكن موسى لاذ بحمى ربه والتجأ اليه مستعيذا به من كل متكبر جبار . قال تعالى:

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب . فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وماكيد الكافرين الا فى ضلال . وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى انى عدت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ... وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وماكيد فرعون الا فى تباب} . (غافر : ٢٣-٢٧ ، ٣٦-٣٧)

واتسم موقف فرعون من موسى عليه السلام فى سورة الزخرف بالتعالى والخيلاء والفخر والتباهى والسخرية والاستخفاف بعد أن جاءهم موسى بالآيات البينات آية تلو آية لعله وقومه يذعنون لها فيؤمنوا بما جاء به من الحق من عند الله .. غير أن الآيات المتتابعة لم تجد سبيلا الى قلوبهم رغم استنجادهم بموسى لكشف العذاب عنهم ليهتدوا ، اذ نكثوا بعد أن

كشف الله عنهم العذاب وعادوا الى دينهم في الكفر والعناد بوازع من فرعون الذى أخذ يباهى ويفاخر بملكه لمصر وجريان الأنهار تحت قصره مستخفا بقومه الذين تخدعهم القيم المادية الزائفة وتغلب عقولهم الأبهة والزخرفة ، وقد جرد موسى من أى فضل لأنه لم يتوج بملك ولاجاه ولاثراء ولم تأت الملائكة تصدق دعواه وبهذا المنطق المتهافت استخف فرعون قومه فأطاعوه لفسقهم فانتقم الله منهم جميعا بالغرق ليكونوا عبرة للمعتبرين .. قال تعالى :

{ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملأه فقال انى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون . وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكتون . ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلاتبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين . فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} . (الزخرف : ٤٦-٥٦)

ومن مجموع ماسبق من مواقف فرعون وملأه من دعوة موسى وهارون عليهما السلام يظهر جليا شدة شكيمة فرعون وملأه في الكفر والعناد والبغى والفساد وشدة الاصرار على الكفر والظلام رغم وضوح حجة النور والايمان وتتابع الآيات والبراهين الساطعة ، وتنوعها كما وكيفا فاستحقوا بهذا الاصرار وذاك العناد عذاب الله ، فأهلكهم الله بالغرق ونجى الله موسى ومن معه من بنى اسرائيل وأورثهم الأرض من بعد أهلها لينظر كيف يعملون ، فماذا كان موقف بنى اسرائيل من دعوة موسى عليه السلام بعد أن نجاهم الله من فرعون وملأه ، ذلك ماستكشف عنه السطور القادمة التى تمثل المرحلة الثانية من دعوة موسى عليه السلام وهى مرحلة ما بعد

فرعون وملأيه واستخلاف الله بنى اسرائيل فى الأرض من بعدهم تصديقا
لنبية وانجازا لوعده .

فهاهم أولاء بنو اسرائيل قد نجاهم الله من فرعون وملأيه ومما كانوا
يسومونهم من سوء العذاب والاستذلال والاسترقاق ، ولكنهم لشدة مالم بهم
من الاستعباد والامتهان استمرؤا حياة الذل والاستكانة وألفوها ، فهم
يرفضون العيش فى ظل الحرية والكرامة الانسانية وذلك بالتححرر من عبادة
العباد الى عبادة رب العباد ، فقد أفقدهم استذلال فرعون لهم كل معانى
الرجولة والكرامة فأصبحوا لا يألوفون الحياة الا فى ظل الجبن والقهر والاهانة
، فهاهم أولاء ينسون فضل الله عليهم بالنجاة من فرعون وملأيه بعد أن
أغرقهم الله ، وجاوز بنى اسرائيل البحر ، بعد هذه المنة العظيمة التى
تستوجب من بنى اسرائيل الشكر لمسيديها وواهبها بامثال أوامره واجتناب
نواهيها ، اذا هم يطلبون الشرك به ممن جاهد فرعون دهرا ليقر بالوحدانية
ويخلص عنه ثوب الكبرياء والتكبر على الله فى ادعائه الألوهية على الناس
حتى يترك الناس ويمنحهم حريتهم لعبادة خالقهم الواحد الأحد الفرد الصمد
فأبى فرعون ذلك وطغى فكان عاقبته وقومه ما عينته بنو اسرائيل من
اغراقهم وتنجية بدنه ليكون عبرة لكل من يخالف أمر الله ويحاربه ورسوله
قال تعالى :

{وجاوزنا بنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم .
قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . ان هؤلاء
متبرما هم فيه . وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم الها وهو فضلكم
على العالمين . واذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون
أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم} . (الأعراف :
١٣٨-١٤١)

وهكذا رد موسى على القوم بشدة جهلهم بحقائق الأمور والأشياء
حيث يؤثرون الشقاء على السعادة والرق على الحرية والباطل على الحق ،
مستنكرا أن يطلب لهم الها غير الله الذى فضلهم على عالمى زمانهم ونجاهم

من اذلال فرعون لهم بتقتيل أبنائهم وترك نسائهم لامتهانهن في الخدمة واستفراشهن وهتك أعراضهن وهذا هو سر من أسرار التعبير بلفظ "نساء" مع أن المقام للفظ "بنات" وفي التجميع بين تقتيل الذكور واستحياء النساء بلاء وأى بلاء ، يستوجب على من نجي منه الشكر والطاعة .

وقد فصلت جملة "قال انكم قوم تجهلون" لوقوعها في جواب المحاورة أى أجاب موسى كلامهم وكان جوابه بعنف وغلظة لأن ذلك هو المناسب لحالهم^(١). وفصلت جملة "ان هؤلاء متبرماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون" عما قبلها ، لأنها بمعنى التعليل لمضمون الجملة السابقة ، وفي تقديم المسند وهو "متبر" على المسند اليه وهو "ماهم فيه" قصر ماهم فيه وهو دينهم على التتر والهلاك . [وفي ايقاع هؤلاء "اسما" لان وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خيرا لها وسم لعبدة الأصنام (المعبر عنهم بلفظ هؤلاء) بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لايعدوهم ألبتة]^(٢). ومثله في الحصر قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام "وباطل ماكانوا يعملون" أى أن عملهم ذلك محصور على البطلان لايتجاوزه الى غيره . والاستفهام في قوله : "أغير الله أبغىكم الها وهو فضلكم على العالمين" لانكار اتخاذ غير الله الها والتعجب من ذلك ، وقدم المفعول الثانى "غير الله" للاختصاص مبالغة في الانكار ، أى اختصاص الانكار ببغى غير الله الها^(٣).

وفي تقديم المسند اليه على خيره الفعلى ، وهو "فضلكم على العالمين" تخصيص الله بتفضيلهم على العالمين أى أنه وحده هو الذى فضلكم ولم يفضلكم غيره ، وفي ذلك اشارة الى شدة حماقتهم حيث يريدون ويطلبون عبادة من لاينعم وخاصة أن الطلب جاء بعيد انجاء الله لهم من فرعون وعذابه ، فذلك منتهى الكفران للنعم التى تستوجب الشكر والطاعة .

(١) التحرير والتنوير ٨١/٩ .

(٢) الكشاف ١١٠/٢ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ٨١/٩ .

ولم يقف كفران النعم عند بنى اسرائيل والغفلة عند هذا الحد ، فبعد هذا التحذير من موسى عليه السلام من مغبة الشرك بالله ، وتذكيره بنعم الله الجليلة عليهم ، يرتكب القوم الجريمة ذاتها التي حذروا منها وذكروا بما ان تذكره صرفهم عنها ، مستغلين غياب موسى عليه السلام لميقات ربه ، فاذا هم يتخذون من حليهم عجلا له خوار يعبدونه من دون الله وهو لا ينفع ولا يضر ، فظلموا بهذا الصنيع وندموا بعد أن أيقنوا ضلالتهم في هذا الصنيع فهم يرجون رحمة الله وغفرانه حتى لا يكونوا في عداد الخاسرين .
قال تعالى :

{واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين} .
(الأعراف : ١٤٨-١٤٩)

ثم يأتي موسى عليه السلام غضبان أسفا ، ويصل به الغضب لله أن يلقى بالألواح وهم بأخيه هارون بنى الله ظنا منه أنه قد قصر فى أداء مهمة الخلافة فيعتذر له بأن الأمر كان خارجا عن طوقه وأن القوم قد هموا باغتياله فيعذره موسى عليه السلام ويطلب المغفرة من الله له ولأخيه وادخالهما فى رحمته فهو أرحم الراحمين . قال تعالى :

{ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين} . (الأعراف : ١٥٠-١٥١)

ويختار موسى عليه السلام سبعين رجلا من صفوة القوم لميقات الله طلبا للغفران فاذا بالصفوة تطلب من موسى رؤية الله جهرة قبل أن يؤمنوا له فاذا بالرجفة تأخذهم فصعقوا ، أما موسى عليه السلام فتوجه الى ربه مبتهلا يطلب المغفرة والرحمة ويعلم الخضوع والاعتراف بالقدره ، راجيا من

الله ألا يهلكهم بما فعل السفهاء منهم وأن يرد عن القوم فتنته التي يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء ، وأن يكتب لهم حسنة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

{واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدانا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} . (الأعراف : ١٥٥-١٥٦)

وتتحدث سورة طه عن الموقف ذاته لبنى اسرائيل حيث اتخذوا عجلا معبودا من دون الله ولكن العرض فى هذه السورة يتسم بنوع من التفصيل والبسط لمشاهد هذا الموقف حيث نجد اجابات لكثير من مسائل الموقف كاخبار الله لموسى فتنة قومه واضلال السامرى لهم مما سبب رجوعه اليهم غضبان أسفا ، كما نجد هنا تفسيرا لما هنالك من قول موسى "أعجلتم أمر ربكم" وجواب القوم لهذا الاستفهام وذكر لمن تولى كبر الجريمة وهو السامرى .

وإذا كانت سورة الأعراف قد طوت محاولة هارون عليه السلام صرف القوم عن الشرك ، فان سورة طه قد ذكرت تلك المحاولة حيث يقول تعالى {ولقد قال لهم هارون من قبل ...} الخ ، كما ذكرت موقف القوم من دعوة هارون عليه السلام قوليا {لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى} . كما أن سورة طه قد فصلت حوار موسى مع هارون عليهما السلام مما أتاح لها ذكر اضافات خلت منها سورة الأعراف فى هذا الموقف ، وأخيرا ذكر حوار موسى عليه السلام مع السامرى وتفصيلات هذا الموقف ، وهو ما طوته سورة الأعراف ولم تذكر منه شيئا .. قال تعالى :

{وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على اثرى وعجلت اليك ربي لترضى . قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع

موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتهم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى . قال يا هارون مامنك اذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبغى أفعصيت أمرى . قال بينؤمن لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى . قال فما خطبك ياسامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا . انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما } . (طه : ٨٣-٩٨)

وفى سورة المائدة يقف بنو اسرائيل من موسى عليه السلام ومن ميشاق الله ووعدهم بالملك والعزة فى الأرض موقف الجبن والتمحل والنكوص على الأعقاب عن الأرض المقدسة ونقض ميشاق الله الذى واثقهم به وعدم الثقة بوعد الله رغم ماشاهدوا مرارا من تحقق وعده لهم ووعيده لأعدائهم ، فهم لا يريدون أرضا ولا ملكا ولا عزة ان كان ذلك كله سيكلفهم جهدا قليلا وانما يريدون أن ينزل عليهم النصر مريحا كتزول المن والسلوى وعندئذ يعترفون بربوبية الله لهم أما ان كان النصر سيكلفهم ثمنا أو كانت ربوبية الله ستكلفهم قتالا فلتكن ربوبيته لموسى عليه السلام : { اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون } .. هكذا وقف بنو اسرائيل من موسى عليه السلام وأمر ربه ، موقفا ملؤه النكوص والجبن ، رغم محاولة الرجلين اللذين امتلأ قلباهما بخوف الله فخرج منهما خوف سواه كائنا من كان ، فاستهاننا بالجبارين وتمثلا بالشجاعة أمام الخطر الموهوم . { وقال رجلان من

الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين } . وما كانوا مؤمنين حقا حتى يتوكلوا على الله فيقتحموا الباب على الجبارين ويدهمهم في عقر دارهم لتتكسر قلوبهم فيتم لهم النصر والتمكين من عند الله .

وازاء هذا الموقف المزرى تأتى نهاية المطاف بموسى عليه السلام ، نهاية الجهد الجهيد والسفر الطويل ، واحتمالات الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى اسرائيل ، فلا يملك سوى الابتهاال الى ربه والاستجارة به {قال رب انى لأملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} ، ويستجيب الله لدعوته ويقضى بالجزاء العادل على الفاسقين :

{قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلاتأس على القوم الفاسقين} .

انه عدل السماء والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدا .

قال تعالى :

{واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا تترددوا على أدياركم فتتقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون . قال رب انى لأملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلاتأس على القوم الفاسقين} . (المائدة : ٢٠-٢٦)

وهكذا عانى موسى عليه السلام من بنى اسرائيل معاناة شديدة أهلتهم بأن يكون من أولى العزم من الرسل ، على أن مواقف بنى اسرائيل المتلوية مع موسى ومعاناته من نكوصهم وجبنهم وايدائهم له بحاجة الى افراد بحث مستقل بحيث يتناول جميع جوانبها بشيء من التفصيل والاحاطة .

(167)

الباب الثاني

الخصائص التركيبية والصور البيانية
فد خطاب الأنبياء

(١٦٨)

الفصل الأول

مسائل علم المعانيذ الواردة في خطاب الأنبياء

مقامات التقديم فى خطاب الأنبياء

ويأتى تقديم المسند فى خطاب الأنبياء لافادة التقوية والتوكيد فى مقام الدعوة الى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان والأصنام ، كقوله تعالى : {اعبدوا الله مالكم من اله غيرهه} (الأعراف : ٥٩)

فان تقديم المسند الجار والمجرور "لكم" على المسند اليه "من اله" يؤكد نفسى الشركاء ويقويه أضف الى ذلك دلالة أسلوب القصر بالنفى والاستثناء على التوكيد لأن المعنى "اعبدوا الله مالكم من اله الا اياه" . وقد تكررت هذه العبارة على ألسنة كثير من الأنبياء لمواجهة انكار أقوامهم حقيقة التوحيد ، وغرابتها عنهم فاقتضى المقام مضاعفة التوكيد لمواجهة هذا الانكار وتلك الغرابة ، وتقديم المسند للتقوية مع ما فى جملة القصر بالنفى والاستثناء من افادة التوكيد المضاعف مناسب لمواجهة أحوال الانكار لدى القوم .

ويأتى تقديم المسند لافادة الاختصاص فى مقامات الدعوة والعقيدة كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : {إن هؤلاء متبرما هم فيه وباطل ماكانوا يعملون} (الأعراف : ١٣٨)

فان خير "ان" متبر ماهم فيه "جملة مكونة من المبتدأ والخبر ، قدم فيها الخبر "متبر على المبتدأ" ماهم فيه" لافادة قصر عملهم على التبار لايتجاوزه الى غيره ، تحقيرا لقوم موسى وتبغيضا اليهم ماملوا اليه من اتخاذ الأصنام آلهة وفى هذا الأسلوب من التنفير عن عبادة الأصنام ما فيه ، أما التقديم الواقع فى الجملة المعطوفة "وباطل ماكانوا يعملون" فيفيد تأكيد البطلان وقصره على عملهم بخلاف أهل الايمان ، وفى ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبرا لها ، وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لايعدوهم ألبتة وأنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة

ماطلبوا ويبغض اليهم ماأحبوا" (١).

ومن قبيل تقديم المسند للتخصيص قول فرعون لموسى عليه السلام :
 {أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض} .
 (يونس : ٧٨)

أى وتكون الكبرياء لكما ، فقدم المسند الجار والمجرور "لكما" لفائدة التخصيص ، ظنا منهم أن موسى وهارون عليهما السلام لم يدعيا النبوة والرسالة الا لمنازعتهم فى السلطان والسيطرة والاستئثار بالملك دونهم وفى ذلك تمويه من فرعون على قومه وصرف لهم عن قبول الدعوة .
 أما تقديم المسند اليه فغالبا ما يكون فى مقامات المحاجة بين الرسل والأقوام فى قضية العقيدة فيلجأ اليه الأقوام لتقوية موقفهم الراض من دعوة الأنبياء وتأكيد اعراضهم ، فمن تقديم المسند اليه المفيد لمجرد التقوية قول قوم هود عليه السلام فى انكار البعث والعقاب :

{إن هذا الا خلق الأولين ومانحن بمعذبين} . (الشعراء : ١٣٧-١٣٨)
 ففى قولهم "وما نحن بمعذبين" قدم المسند اليه "نحن" على خبره "بمعذبين" وهو اسم بمعنى الفعل ، والمراد من هذا التقديم تأكيد نفى أن يعذبوا ، ولم يقصدوا نفى العذاب عنهم خصوصا واثباته لغيرهم ، اذ أنهم لايؤمنون بالبعث أصلا وتبعاً لذلك فانهم لايؤمنون بوقوع العذاب فيه سواء عليهم أم على غيرهم وفى ذلك تكذيب لقول هود عليه السلام لهم : "انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" . ويفيد هذا التقديم الاختصاص أيضا باعتبار أن المقصود من العذاب عذاب الدنيا ، فنفوا العذاب عنهم خصوصا وأثبتوه لغيرهم كقوم نوح عليه السلام .

ومما هو لمجرد التقوية والتوكيد قول نوح عليه السلام فى رده على تعريض قومه بطرد المؤمنين به :

{وماأنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم} . (هود : ٢٩)

ليس المراد وماأنا خصوصا بطارد الذين آمنوا وإنما تأكيد انه لا يطردهم وقد قالوا له : "وما نرى اتبعك الا الذين هم أراذلنا" ، وقد قال بعد هذا :
ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم ، وكل هذا يؤكد أن المراد بالتقديم التقوية لا غير ، وان احتمل افادة التخصيص كما سبق .

ومن تقديم المسند اليه المفيد للتقوية والتأكيد قوله تعالى - حكاية عن قوم هود في موقف الاستهانة به ورفض دعوته :

{وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين} . (هود : ٥٣)
فقدموا المسند اليه في الآية لتأكيد عدم صدورهم عن رأيه وتقوية عدم ايمانهم به ، وفي ذلك دلالة على أنهم لا يرجى منهم ترك آلهتهم لمجرد قوله ولا الايمان به بأى وجه من الوجوه تيئيسا لنبى الله فى استجابتهم له واقناطا له فى طمع ايمانهم به (١).

ويحتمل التقديم فى المثال السابق الاختصاص على أن المقصود نفى أن يكونوا هم خصوصا الذين يتركون آلهتهم عن قوله ، وليسوا خصوصا الذين يؤمنون له ، وفى كلا الاعتبارين دلالة على أن القوم لا يصدر عن عقل أو منطق وأنهم يحتكمون فى موقفهم من نبى الله الى مجرد الهوى فهم فى غيرهم يعمهون .

ومما يحتمل الاختصاص أو مجرد التقوية قول شعيب عليه السلام فى ترغيب قومه فيما عند الله ليصرفهم بذلك عن بحس الناس أشياءهم : "بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وماأنا عليكم بحفيظ" فتقديم المسند اليه المنفى "ماأنا عليكم بحفيظ" قد يفيد الاختصاص بمعنى "ماأنا عليكم بحفيظ ولكن الله" . وقد يفيد مجرد التقوية والتأكيد وهو ما يؤيده السياق هنا ان فسر قوله "ماأنا عليكم بحفيظ" بمعنى لست مكرهكم على فعله ، ويترجح الاختصاص ان فسر بمعنى لا أحفظكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم

فأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أنذرت (١).
ونلاحظ فيما سبق من الشواهد أن تقديم المسند اليه غالبا ما يكون اذا
كان خبره اسما بمعنى الفعل ، مع وجود الباء في المسند في هذه الشواهد
الستة .

أما تقديم المسند اليه على الخبر الفعلي في الاثبات فتجده يفيد التقوية
والتأكيد في خطاب الله موسى عليه السلام ردا على طلبه المغفرة والرحمة
والحسنة له ولقومه :

{قال عذابي أصيب به من أشياء ورحمتي وسعت كل شيء} . (الأعراف

: ١٥٦)

فان في تقديم المسند اليه "ورحمتي" تأكيدا وتقوية يضيفان على الحكم
حسما وقطعا في سياق ضراعة موسى الى ربه {أتهلكنا بما فعل السفهاء منا} .
(الأعراف : ١٥٥)

ويفيد هذا التقديم الاختصاص في مقام الدعوة الى التوحيد عن طريق
التذكير بنعم الله في قول صالح عليه السلام {هو أنشأكم من الأرض
واستعمركم فيها} (هود : ٦١) ، أى لم ينشئكم من الأرض الا هو ولم
يستعمركم فيها غيره .

ومنه قول موسى عليه السلام في مواجهة جهل بني اسرائيل في طلبهم
أن يجعل لهم الها على غرار آلهة المشركين : {أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم
على العالمين} . (الأعراف : ١٤٠)

فتقديم المسند اليه "هو" في الآيتين يفيد اختصاص الله بابتداء الخلق
من الأرض واختصاصه بتفضيل بني اسرائيل على عالمي زمانهم .

ويفيد تقديم المسند اليه بعد النفي على الخبر اذا لم يكن فعلا بل كان
اسما بمعنى الفعل الاختصاص في تهديد قوم شعيب عليه السلام له {ولولا
رهطك لرحمنك وما أنت علينا بعزیز} . (هود : ٩١) . والآية تحتمل الأمرين
الاختصاص والتقوية ، ويترك للسياق تحديد المترجح منهما ، وحين يفيد

التخصيص فالتقوية ملحوظة فيه أيضا مما يجعل لاختلاف البلاغيين فيه مسوغا (١).

ويقوى الاختصاص قوله تعالى على لسانهم "ولولا رهطك لرجمناك" والمعنى وما أنت خصوصا علينا بعزير بخلاف رهطك بدليل ما سبق .

أما تقديم المتعلقات في الخطاب فيكثر على النحو التالي :

تقديم المفعول مسبقا بالاستفهام ويفيد الاختصاص في قول موسى عليه السلام {أغير الله أبغيكم الاها} .

فتقديم المفعول الثاني "أغير الله" للاختصاص ، مبالغة في الانكار ، أى اختصاص الانكار ببغى غير الله الاها (٢).

وفي الاستفهام معنى أن غير الله ليس بمثابة أن يكون الها وليست فيه الأهلية وأن الذهاب الى ذلك ذاهب الى غير ماينبغى والى غير ما يذهب اليه العقلاء .

تقديم الجار والمجرور - الظرف - على الجملة الفعلية ويفيد الاختصاص في خطاب موسى لبني اسرائيل {وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين} . (يونس : ٨٤)

فتقديم المجرور على متعلقه في قوله "فعليه توكلوا" وقولهم "على الله توكلنا" لافادة التخصيص وهو قصر توكلهم على الله دون غيره ، وهو قصر اضافى يفسره قوله تعالى قبل ذلك : {فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم} . (يونس : ٨٣)

فنهاهم موسى عليه السلام عن مخافة فرعون ومصانعته لأن ذلك ينافى كمال الايمان الذى يقتضى شدة التوكل على الله وعدم التردد في قدرته الغالبة ووعده الحق ، وقد أسرعوا الى الاستجابة والامتثال فبادروا الى

(١) ينظر الخلاف في المسألة في : شروح التلخيص ٤٢٢/١ ، حاشية الشهاب ١٣٠/٥ .

(٢) انظر : التحوير والتنوير ٨٣/٩ ، ارشاد العقل السليم ٣٨٩/٢ .

التجرد عن التخوف والمصانعة والى عقد العزم على التوكل على الله "على الله توكلنا" ، ومنه قول شعيب في مقام الاعتصام بجبل ربه والاحتماء بحماه {وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا} . (الأعراف : ٨٩)

وقوله أيضا : {وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب} . (هود :

٨٨)

فتقديم الجار والمجرور فى الآيتين السابقتين يفيد الاختصاص حثا للنفس على التمسك بجنب الله .

تقديم المتعلق بالفعل على الفاعل ويفيد التوكيد والتقوية على لسان رسل الله الى لوط فى قولهم : {فأسر بأهلك بقطع من الليل ولايلتفت منكم أحد} فتقديم الجار والمجرور "منكم" على الفاعل "أحد" لتأكيد تحقق النهى فى كل فرد منهم ، لأن أية مخالفة فى ذلك تؤدى الى وخامة العقابة وسوء المصير .

ومنه فى مقام اللوم والتأنيب قول موسى عليه السلام : {ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى} . (طه : ٨٦)

فقد قدم الجار والمجرور "عليكم" المتعلق بـ"طال" على الفاعل "العهد" فى قوله : "طال عليكم العهد" وصنع فى قوله "يحل عليكم غضب" مثل ذلك وفى تقديم الجار والمجرور "عليكم" فى "أفطال عليكم العهد" اشعار بأنه لا موجب لهذه المخالفة من طول زمان العهد وطول الانتظار المؤدى الى استئثار النفس له ، أما تقديمه فى " .. أن يحل عليكم غضب من ربكم" فللاشارة الى عنادهم فى مخالفة مواعده ، فلم يخافوا أن يتزل عليهم العذاب بسبب عبادة العجل .

وفى مقام الرفض والتعنت نجد التقديم يفيد الاهتمام فى رد قوم موسى على هارون عليه السلام :

{قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى} . (طه : ٩١)

وفى تقديم المتعلق "الينا" على الفاعل "موسى" اهتمام يدل على

تعنتهم ورفضهم لدعوة هارون عليه السلام .

ونجد هذا الاهتمام أيضا بالمقدم في تقديم الجار والمجرور "لى" المتعلق على الفاعل في مقام الشكر والاحساس بالنعمة في قول موسى عليه السلام : {ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين} . (الشعراء : ٢١)

أما تقديم مايتعلق بالخبر عليه ، فنجده يفيد التخصيص أو الاهتمام في قول ابراهيم عليه السلام في انكاره آلهة قومه :

{ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون} . (الأنبياء : ٥٢)

ففى تقديم الجار والمجرور "لها" على الخبر "عاكفون" اشعار بشدة ملازمتهم لها الى حد الالتصاق . وقد يفيد التخصيص أى أنتم ملازمون لها لا تفارقونها الى غيرها .

ونجد تقديم مايتعلق بخبر كان عليه ، فى موقف رفض قوم صالح عليه السلام لدعوته يفيد الاهتمام فى قولهم :

{قالوا يا صالح قد كنت فىنا مرجوا قبل هذا} . (هود : ٦٢)

فنجد تقديم الجار والمجرور "فىنا" يشعر بمكانته فيما بينهم وأنه كان مقدما بينهم مرجوا لمهمات الأمور لما يتصف به من العقل والرأى وكرم المحتد ، فهم يهددونه سلب هذه المكانة بهذا التقديم كما يشعر التقديم اعتداد القوم بمكانتهم .

ومن هذا التقديم المشعر بالاهتمام قول عيسى عليه السلام فى مقام تأكيد براءته من شرك قومه {وكنتم عليهم شهيدا ما دمت فىهم} . (المائدة :

(١١٧)

عليهم متعلق بخبر كان وهو "شهيدا" وقد قدم هذا المتعلق على الخبر للاشعار بشدة مراقبته لهم وعنايته بما يتعاطون من أمور دينهم وعبادتهم ومشاهدته لأحوالهم من إيمان أو كفر مع حملهم على العمل بموجب أوامر الله ونهيهم عن اتیان زواجره ونواهيه ، وكأنه فى ذلك يرقب أحوالهم من عل لدلالة حرف الاستعلاء "عليهم" .

ويأتى تقديم مايتعلق بخبر ان عليه ليفيد التخصيص والاهتمام معا في مواقف دعوات الرسل أقوامهم الى التوحيد ، كقول نوح عليه السلام :
 {انى لكم رسول أمين} . (الشعراء : ١٠٧)

فتقديم الجار والمجرور على خبر "ان" "رسول أمين" يفيد تخصيص الرسالة الأمانة للقوم خاصة دون غيرهم وفي ذلك أيضا شدة اهتمام الرسول بالقوم واخلاصه لقومه وحرصه الشديد على مصلحتهم وخيرهم فيما يدعوهم اليه ، وقد وردت هذه العبارة بلفظها عن هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في نفس السورة مما يشعر بوحدة الرسل والرسالات (١).

ومن ذلك في مقام الاعتداد بالقوة والقهر قول فرعون :
 {قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وانا فوقهم قاهرون} > (الأعراف : ١٢٧)

ففى تقديم الجار والمجرور "فوقهم" تصوير لاحساس فرعون المفرط بقوته وتجبره وشعوره بالاستعلاء والتحكم وحبه الاذلال ورغبته السريعة في القيام به ، وبهذا يعد التقديم من الوسائل النافذة في ابراز نفسيات الأشخاص وتصوير دخائل نفوسهم .

ومما سبق يلحظ كثرة ارتباط الشواهد السابقة للتقديم بالفواصل ، وهذا يعنى أن رعايتها مقرون برعاية الأمر المعنوى المرتبط بالتقديم ، كما نلاحظ أن الخبر في تلك الشواهد بمعنى الفعل ولهذا صح أن يكون له متعلق - كالفعل - كما صح أن يتقدم عليه هذا المتعلق لأغراض مرتبطة بالسياق .
 أما تقديم بعض المتعلقات على بعض فيدور في فلك الاهتمام سواء أكان من جانب الرسل في خطابهم الأقوام أم من جهة الأقوام في مواقفهم الراضية ، ويكثر هذا التقديم في الفواصل رعيًا للتوافق والانسجام الذين يخدمان الغرض ويحدثان في النفس وقعا مريحا ومؤثرا .

(١) الآيات : ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨ من سورة الشعراء .

من ذلك في خطاب الرسل أقوامهم في مقام الدعوة الى مكارم الأخلاق وحسن المعاملة قول شعيب عليه السلام :

{وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين} . (هود : ٨٥)

فقد قدم الظرف "في الأرض" على الحال المؤكدة "مفسدين" للاهتمام بالظرف لأنه محل الافساد فهو مقدم في الوجود وأن أثره يكون ظاهرا منتشرا بما يؤدي الى قلق الناس وانتزاع الأمن من حياتهم ، وهذا مما لانشر به لو أخر الظرف ، كما أن تقديم الظرف يدل على النهي عن قمة الفساد الذي يشمل جميع أنواع الفساد وهو الافساد في الأرض كله^(١).

وفي ترتيب الجمل في هذه الآية قمة البلاغة التي تخرج عن طوق البشر وتصل الى عنان الاعجاز ، فقد قدم الأمر بالوفاء ، طلبا لتحقيق الأمانة فيهم وهي مطلب عزيز في الأمم ثم ثنى بالنهي عن البخس وهو داخل في الأول وان كان أكثر تعميما لأنه قال "أشياءهم" فأطلق فصار أشمل ليتناول جميع المعاملات المادية والمعنوية ثم ثلث بالنهي عن الفساد في الأرض ليتناول ماسبق ويدخل فيه جنس الفساد كله ، والذي ينغص على الناس حياتهم ، لأن الافساد في الأرض افساد في من فيها .

ومنه قول صالح عليه السلام في مقام التذكير بنعم الله :

{وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا} .

(الأعراف : ٧٤)

قدم الجار والمجرور وهو في موضع المفعول الثاني لـ "تتخذون" على المفعول الأول "قصورا" للاهتمام بموضع العجب والروعة من أول الأمر للدلالة على أنهم أوتوا من الامكانيات ما يستوجب شكر المنعم بها عليهم ، فيفردونه بالعبادة ولا يشركون معه غيره مما لم يشاركه في هذا الانعام .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣٨/١٢ .

وفي ترتيب المعاني في مقالة صالح عليه السلام بلاغة عالية ، حيث قدم القصور التي تبنى بالطين واللين والآجر التي تتخذ من سهول الأرض مما يدل على حذقهم لفن العمارة ثم ثنى بما يدل على غاية التفوق والحذق في هذا الفن وهو نحتهم الجبال بيوتا ليدل على مدى ماأنعم الله عليهم من القدرة والحذق وكانوا يسكنون القصور في الصيف والبيوت في الشتاء . ومن هذا التقديم في مواقف الأقوام ما حكاه الله عن قوم نوح عليه السلام : {ومأثرى لكم علينا من فضل} . (هود : ٢٧)

فهم ينفون أن يكون لنوح عليه السلام وأتباعه أى فضل لأنهم لا يرون آثار هذا الفضل وعلاماته وتقديم الجار والمجرور "علينا" للاشعار بأن هذا الفضل الذى انتفت رؤيته لانتفاء آثاره انما ينفون كونه لهم عليهم ، فلو وجد فانه يكون على غيرهم لاعليهم ، وفي هذا التقديم ابراز لمدى تكبرهم واعجابهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم . كما أن فيه شدة اهتمام القوم بأنفسهم ، فالتقديم في هذه الآية اذن يجمع بين التخصيص والاهتمام . ومنه في موقف فرعون تجاه معجزة موسى عليه السلام :

{ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها} . (الأعراف :

(١٢٣)

فتقديم الجار والمجرور "منها" يشعر بخوف فرعون على ملكه واستيائه اخراج رعاياها من المدينة لأن ذلك يؤدى الى خراب المدينة التي هى بلاط ملكه ، فالتقديم اذن يشعر باهتمام فرعون وملأته بالمدينة وخوفهم عليها أكثر من خشيتهم على أهلها ، وهذا يصور لك أنانية فرعون وحرصه البالغ على ملكه ومدى استعداده للقيام بأية مخالفة للحفاظ عليه ، وكأنه كان قوى الاحساس بما سيكون وكأنه كان تنبأ بخراب ملكه لأنه أحكم فهم ما عليه موسى وأنه حق غالب وكان ملكا من دهاة الملوك وطواغيتهم وقد مات وهو يقول : "آمنت بالذى آمنت به بنو اسرائيل" .

وتتضح هذه الطريقة في تصوير حب الذات وشدة الالتفات الى النفس في مخاطبات بنى اسرائيل أنبياءهم كقولهم لعيسى : {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء} . (المائدة : ١١٢)

وقولهم لموسى عليه السلام : {ادع لنا ربك يبين لنا ماهى} . (البقرة : ٦٨) وقولهم : {ادع لنا ربك يبين لنا مالونها} . (البقرة : ٦٩) ، {ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ان البقر تشابه علينا} . (البقرة : ٧٠) .

فان تقديم الجار والمجرور "لنا" على المفعول "ربك" يوحى بكثرة التفاتهم الى أنفسهم واهتمامهم بذواتهم أكثر من اهتمامهم بأى شىء آخر ، حتى الرب الذى يطلبون من موسى عليه السلام من أجلهم "لنا ربك" قدموا أنفسهم عليه ، وتطرد هذه الطريقة المنبئة عن نفسية بنى اسرائيل في حبهم لذواتهم وايثارها على كل شىء في خطابهم عندما يطلبون شيئاً ، طاعة أو كفراً ، كقولهم لنبي لهم : {ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله} . (البقرة : ٢٤٦)

وطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم الها {أجعل لنا الها كما لهم آلهة} . (الأعراف : ١٣٨) فقدموا أنفسهم على المطلوب في كل ، التفاتا الى النفس وتقديمها لها على كل شىء .

وقد يقدم المتعلق رعاية للفاصلة التى يؤدى تناسقها وانسجامها الى عرض المعانى في صورة متناهية في الروعة والانسياب لتؤثر على النفس من كل أقطارها ، ومن ذلك قول ابراهيم لأبيه في مقام الدعوة الى الله : {ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . ياأبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً . ياأبت انى أخاف أن يمسخ عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً} .

فتقديم الجار والمجرور على المفعول فى الآية الأولى وعلى خير كان فى الآية الثانية والثالثة يشعر بأن لرعاية الفاصلة اعتبارا ملحوظا فى أداء المعنى

لأن رعايتها تساعد على الاهتمام بالمعنى وأدائه في صورة حسنة ومؤثرة ،
فالتقديم في الآية الأولى تفيد التقوية والتأكيد وتفيد بأن مناط العبادة جلب
نفع للعابد أو دفع ضرر عنه وهذا غير متوفر في معبود أبى ابراهيم وإنما هو
يتحقق في معبود ابراهيم الذى يتصف بالسمع والبصر وكل صفات الكمال
المطلق ، كما يشعر التقديم في الآية الثانية بقبح العصيان وشناعته لأنه
للرحمن الذى عم عباده برحمته وتربيته ، أما التقديم في الآية الثالثة
فيعت على الاستنكاف والاستنفار بداية من ولاية الشيطان الذى عصى
الرحمن ، وهكذا ساعدت رعاية الفاصلة على تحقيق الغرض من التقديم على
أحسن صورة . والتقديم أفاد فائدة معنوية هنا ، هى الأساس وذلك لأن
المهم المقدم ، فالأهم فى الاغناء أنه لا يغنى عنه ، وهذا مناط الفائدة وكيف
تعبد الها ليس لك فيه أرب فى أى شىء والثانى مناط الفائدة هو أن
عصيانه للرحمان - كان للرحمن - تقدمت جهة المعصية لأنها أبشع من
المعصية والثالثة أن الخطورة فيها أن يكون للشيطان وليا ، فالولاية أمر كبير
ولا يجوز أن يكون الا للذى خلق ، فاذا انتكس الانسان وصيرها للشيطان
فذلك هو البلاء .

مقامات الایجاز

ویأتی ایجاز الحذف فی الحرف فی مقام التضرع والدعاء استشعارا للقرب من الله وطلبا لسرعة تحقیق المطلوب فی مثل قول نوح علیه السلام یستنصر ربه علی قومه المكذبین :

{قال رب انصرنی بما کذبون} . (المؤمنون : ٢٦)

فقد حذف حرف النداء لاحساسه بالقرب من الله الذی وعده بالنصر والله لا یخلف وعده ، كما أن فی الحذف اشارة الى استعجال وقوع العذاب علی القوم بعد أن أیأسه الله من ایمانهم .

وقد یحذف حرف النداء لنفی التهمة مع الاحساس بالقرب أيضا كما فی قول الحواریین {ربنا آمننا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين} . (آل عمران : ٥٣)

فقد أحسوا بأن عیسی غیر مطمئن الى ایمانهم ونصرتهم بسبب موقف الکفر الذی لمسه من بعضهم فدفعوا عن أنفسهم التهمة باثبات الايمان واتباع الرسول واشهاده علی مطلق تسلیمهم {واشهد بأنا مسلمون} وذلك لطمأنته ثم توجهوا الى ربهم یغمرهم الاحساس بالقرب لیشهدوه علی ذلك وهذا سر حذف حرف النداء ، واطافة الرب الى ضمیرهم "ربنا" .

ویحذف المسند الیه لأغراض متعددة ترتبط بالسياق والمقام ، ففي مجال الدعوة یحذف المسند الیه أحيانا تخاشيا من الشقاق وتضييقا لهوة الخلاف ، من ذلك ماجرى بین المستکبرین والمستضعفین من قوم صالح :

{قال الذین استکبروا للذین استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا انا بما أرسل به مؤمنون} . (الأعراف : ٧٥)

فحذفوا الفاعل فی قولهم : "انا بما أرسل به مؤمنون" لعدم مواجعتهم ولكون الفاعل قد بلغ الغاية ووصل النهاية فی أوصافه المحمودة التي من جملتها ارسال الرسل رحمة للعالمین ، فلم یذكر ایماء الى أنه لا یشارکه فی

صفة الارسال أحد فيذكر لامتيازه عنه (١).

وحين يحذف ذلك الفاعل في خطاب الأقوام الرسل في مواقف الرفض والعناد ، فانه يستهدف انكاره وتجاهله ، كقول فرعون لقومه في معرض انكار رسالة موسى عليه السلام :

{ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون} . (الشعراء : ٢٧) فلم يذكر الذات العلية .

ومنه قول الكفرة من قوم نوح وعاد وثمود : {وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب} . (ابراهيم : ٩) فلم يذكر فاعل الارسال وهو الذات العلية انكارا وتجاهلا .

وقد يحذف الفاعل خوفا منه وتبرما به ، كقول قوم موسى عليه السلام في معرض الشكوى من اساءة فرعون اليهم : {قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا} . (الأعراف : ١٢٩)

فحذفوا فاعل الايذاء خوفا منه وتبرما به ، ولكونه قد بلغ النهاية في أوصافه المذمومة التي من بينها الايذاء ، وكأنه لا يشاركه فيها غيره حتى يذكر ليمتاز عنه ، وفي هذا الحذف أيضا تصوير لمدى معاناة بنى اسرائيل من سوم فرعون اياهم سوء العذاب الذى أنهمكهم حتى لا يحبون تفصيل الحديث فيه ضيقا منه ، فهم يختصرون الحديث فيه اختصارا يدل على رغبتهم في سرعة زواله .

ونلاحظ أن هذا الحذف للفاعل يطرد في الخطاب عند بناء الفعل للمجهول ليحقق تلك الأغراض والمعاني الرائعة التي ماكانت لتتحقق مع ذكر الفاعل أو المسند اليه .

ويحذف المبتدأ في خطاب الأنبياء في مقام مواجهة انكار الأقوام الدعوة كقول موسى عليه السلام في مواجهة فرعون بدعوته الى التوحيد :

{قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون} . (الشعراء : ٢٣-٢٨)

فقد حذف المبتدأ فى أجوبة موسى عليه السلام على فرعون ، وهو الضمير العائد الى رب العالمين الذى أنكر فرعون وجوده ، لأنه متعين لا يصار فى الذهن الى غيره وبهذا يواجه ادعاء فرعون للربوبية ، وفى الحذف أيضا التعجيل بوصف رب العالمين بأخص ما يعرفه من الخلق والقهر والهيمنة .

ويحذف المفعول فى خطاب الأنبياء فى مقام الدعوة الى التوحيد عن طريق اثبات العجز المطلق لمعبودات الأقوام من الأصنام والأوثان ، كقول ابراهيم لأبيه :

{ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا} . (مريم : ٤٢)
فقد حذف مفعولى "يسمع ويبصر" لأنه لا يتعلق بذكرهما غرض ولأن المراد سلبهما صفتى السمع والبصر مطلقا لأن ذلك أدعى الى تأكيد عجزها والتنفير من عبادتها .

ومنه قوله تعالى فيما دار بين ابراهيم عليه السلام والنمرود إذ قال ابراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت} . (البقرة : ٢٥٨)
فان المفعول غير مقصود فى "يحيى ويميت" ولا ينبغى تقديره لأن المقصود انشاء الحياة والموت وهو ما يفسر انتقال ابراهيم الى الحجّة الثانية عندما قال الخصم "أنا أحيى وأميت" مريدا بذلك اجراء الحياة والموت ، وهو فهم خاطئ لمقصود ابراهيم الذى هو خلق الحياة والموت ، الأمر الذى حمل ابراهيم عليه السلام على طلب تغيير ظاهرة كونية ثابتة ، فأبته الخصم فأبلس والتجم (١) .

وفى مقام الانذار والتهديد يحذف المفعول لادخال الرعب والفظع فى قلوب المنذرين كقول هود للمكذبين من قومه :

(١) الحجّة الثانية هى قوله تعالى : {فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر} . (البقرة : ٢٥٨)

{قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء
سميتموها أنتم وآبائكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من
المنتظرين} . (الأعراف : ٧١)

وقول شعيب عليه السلام : {ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل
سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب}
(هود : ٩٣)

فحذف المفعول فى "انتظروا" وفى "وارتقبوا" تخويفا وتفظيحا حتى
تذهب النفس فى تصور فظاعته كل مذهب وهذا أبلغ للانذار والتهديد .
وفى ساعة العذاب يحذف المفعول لضيق المقام واستعجالا لتحقيق
المطلوب كقول نوح عليه السلام لابنه فى ذلك الموقف العصيب طلبا لنجاته:
{يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين} . (هود : ٤٢)

فان التقدير اركب السفينة ، فحذف المفعول لتعيينه ولضيق المقام لأن
بين النجاة والهلاك لحظات خاطفة ولأن حرصه على نجاة ابنه ومعيته له
والنص على ذلك أهم من تعيين المفعول فى هذا المقام الذى لامركوب ينجى
منه سوى السفينة .

وفى مقام المعارضة والمحاجة يحذف المفعول به فى كلام الأقوام
المكذبين لعدم تعلق غرض بذكره وللمناورة والمغالطة كقول فرعون لموسى
عليه السلام : {ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين} فحذف
المفعول "فأتبها" وهو ضمير فرعون ليكون الاتيان عاما لاخاصا له ، حتى
لا تكون الآية لو أتت ملزمة له ، وهذا يصور مكابرة فرعون وعناده وأنه
لايطلب المعجزة من أجل التصديق والايان وانما يطلبها تعنتا .

ويكثر حذف الجار والمجرور فى خطاب الأنبياء ، فأحيانا يكون حذفهما
لرعاية الفواصل التى يساعد توافقها وائتلافها على أداء المعنى فى أحسن
صورة وأبهى قالب ، حتى ان تقدير الجار والمجرور ليذهب برونق الكلام
وروعة النظم أحيانا ، من ذلك قول هود عليه السلام :

{أُتَبِنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} . (الشعراء : ١٢٨)
أى تعبثون بينائها . {وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون} . (الشعراء :

(١٢٩

أى تخلدون فى الدنيا . فان حذف الجار والمجرور فيما سبق لرعاية
الفاصلة .

ومنه قول قوم شعيب فى مقام تكذيبه فيما يدعو اليه :
{انما أنت من المسحرين . وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين}
(الشعراء : ١٨٥-١٨٦) أى فيما تدعيه من النبوة والرسالة .
ومن هذا الحذف الذى يفسد تقدير الجار والمجرور فيه بهاء النظم
ورواه قول قوم لوط عليه السلام فى موقف تأليب القوم ضده :
{وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم انهم أناس
يتطهرون} . (النمل : ٥٦)

فان عدم التقدير أولى من تقدير شىء يتعدى اليه الفعل لأن مقصود
القوم أن لوطا وآله يتكلفون الطهارة وليست سجية فيهم وهذا هو الأنسب
بسخرية القوم بلوط وآله وهو ما يدل عليه التضعيف فى "يتطهرون" لأن
صيغة التفعّل يدل على المجاهدة والمعاناة . يقول البقاعى : ثم عللوا
اخراجهم بقولهم : "انهم أناس" ضعفاء "يتطهرون" وكأنهم قصدوا بالتفعّل
نسبتهم الى محبة هذا الفعل القبيح ، وأن تركهم له انما هو تصنع وتكليف
لنفوسهم بردها عما هى مائلة اليه ، واقبال على الطهر من غير وجهه واظهار
له رياء بما أشار اليه اظهار تاء التفعّل وفيه مع ذلك حرف من السخرية^(١) .
ومن هذا الحذف فى غير الفواصل قول موسى عليه السلام للسامرى :
{فاذهب فان لك فى الحياة أن لاتقول لامساس وان لك موعدا لن تخلفه}
(طه : ٩٧)

فان المقصود من "فاذهب" هو الزجر والطرده أو عدم الاكتراث بحاله ،
لاذهابا الى شىء مقصود بعينه .

وقد يحذف الجار والمجرور اختصارا لدلالة الكلام عليه كقول شعيب
عليه السلام :

{وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل} . (هود : ٩٣) أى على مكانتى .
فحذف متعلق "انى عامل" للتعميم مع الاختصار^(١) لتذهب النفس في
تقديره كل مذهب .

ومنه قول قوم موسى عليه السلام في مقام الاعتذار :

{قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها}

(طه : ٨٧)

أى في نار السامرى للصوغ ، ولما كان القوم في مقام الاعتذار
والاعتراف بجرمهم الشنيع فان النفس لاتعتنى بالامتداد حين الاعتذار استكانة
وخجلا ، وخاصة اذا كانت أعضارها أو هى من بيت العنكبوت "وشأن
المعتذر بعذر واه أن يكون خجلان من عذره فيختصر الكلام"^(٢).

ومثل ذلك يقال في حذف متعلق "فنبذتها" في قول السامرى :

{بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها} (طه :

٩٦) أى في الحلى المذابة فقد طوى الكلام ولم يكمل لأنه في موقف الاعتراف
بذنبه ، فلاتسعه نفسه على الامتداد والتعويل فاختصر بحذف مايفهم من
العبارة .

وقد يحذف الجار والمجرور لتخفيف الكلام مما يولد المجافة لدلالة

الكلام على المحذوف وذلك في مقام دعوة الرسل أقوامهم الى التوحيد
ومكارم الأخلاق كقول شعيب عليه السلام :

(١) انظر التحرير والتنوير ٩٠/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٤/١٦ .

{ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين} (الأعراف : ٨٥) أى ان كنتم مؤمنين بالله وحده .

وفى قوله :

{واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم} . (الأعراف : ٨٦) حذف الجار والمجرور للتكثير أى فكثركم بالبركة فى النسل والمال^(١)، وقد حذف لتذهب النفس فى تقدير المحذوف كل مذهب اشعارا بأن نعمة التكثير هذه فوق العد والحصر .

وقد يكون حذف الجار والمجرور لدلالة الكلام على المحذوف كقول شعيب عليه السلام :

{وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا} . (الأعراف : ٧٨٧) أى بى أو بالذى أرسلنى به من أيدنى بما علمتم من البيئات^(٢) .

وقد يحذف الجار والمجرور فى كلام الأقوام المكذبين رغبة عن تناوله وعن اطالة الكلام مع الخصم فيه ، كقول فرعون لموسى : {ان كنت جئت بأية فأت بها ان كنت من الصادقين} . (الأعراف : ١٠٦) ، فالتقدير ، ان كنت جئت بأية "من عند من أرسلك كما تدعيه"^(٣) .

أما حذف فعل الشرط فيقع غالبا فى خطاب الأنبياء بعد الطلب ويكون الغرض منه التعجيل بالجواب اغراء به ولهفة اليه .

ومن حذف الشرط وفعله بعد الطلب قول ابراهيم فى دعوة أبيه الى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام {ياأبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا} . (مريم : ٤٣)

أى "ان تتبعنى أهدك صراطا سويا" فحذف الشرط وفعله لدلالة الطلب والجواب عليه وسر الحذف هو الاشعار بسرعة حصول الهداية الى الصراط المستقيم فور حصول المطلوب الذى هو "الاتباع" .

(١) ارشاد العقل السليم ٣٧/٢ .

(٢) انظر نظم الدرر ٤٦٣/٧ .

(٣) ارشاد العقل السليم ٣٨٦/٢ .

ويحذف جواب الشرط في الخطاب في مقام دعوة الرسل أقوامهم لزيادة الحث وتأکید النصح من ذلك قوم شعيب عليه السلام : {ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين} . (الأعراف : ٨٦)
وتقدير الجواب "فلا تفسدوا" واستحسن البقاعى تقدير : "فهو خير لكم ، لأن المؤمن يثاب على فعله لبنائه على أساس الايمان والكافر أعماله فاسدة فلا يكون فعله لهذه الأشياء خيرا له من جهة اسعاده فى الآخرة لأنه لا ثواب له" (١).

وقد دل على المحذوف جملة "ذلكم خير لكم" قبل جملة الشرط ، وفيها مسارعة الى اغرائهم بالقبول لأن النفس مجبولة على حب الخير وجلبه لنفسها ثم علق حصول الخير بالايمان بالله وحده اشارة الى أن التخلى عن تلك المعايير الخلقية والاجتماعية الى التحلى بمقابلها من المكارم الخلقية يجب أن يكون فى اطار الايمان بالله والتصديق برسوله .
ومثله قول موسى عليه السلام لقومه :

{وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين} .
(يونس : ٨٤)

فقوله : "ان كنتم مسلمين" شرط ثان مؤكد للشرط الأول "ان كنتم آمنتم بالله" . وجوابه محذوف مماثل لجواب الشرط الأول "فعليه توكلوا" للدلالة على أن حصول التوكل مهم جدا لكمال الايمان والاسلام ، وأنه يجب أن يكون ملازما لهما (٢). وفى الشرط اشارة لصدق ايمانهم والهيب لقلوبهم لتنبذ منها خوف فرعون وملائته وتعتصم بجمى ربها وتطمئن الى صدق وعده بنصر المؤمنين واهلاك الكافرين .

وقد يحذف جواب الشرط فى خطاب الأنبياء فى مواقف الدعوة ومواجهة انكار الأقوام مجارة للأقوام ودفع الخصم الى التأمل واعمال

(١) نظم الدرر ٤٦١/٧ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٦٢/١١ بتصرف .

الذهن فلعل ذلك يدعو الى مراجعة نفسه في انكاره ، كقول شعيب عليه السلام : {قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وورقني منه رزقا حسنا} (هود : ٨٨)

فقد حذف جواب الشرط لتذهب النفس فيه كل مذهب ، لأن ذلك أدعى الى التأمل واعمال الفكر ومخاطبة العقل الذى يؤدى الى قبول الحق لاجالة (١).

وقد قدر أبو السعود الجواب بقوله : "أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ماتقولون مما لاخير فيه ولاشر وراءه ، هذا هو الجواب الذى يستدعيه السياق والسياق ويساعده النظم الكريم" (٢).

أما حذف جواب الشرط فى كلام الأقوام فلتنأكيد رفضهم الدعوة وتحديهم للرسول كقول فرعون لموسى عليه السلام : {قا ان كنت جئت بأية فأت بها ان كنت من الصادقين} .

فان الجواب المحذوف يدل عليه جواب الشرط الأول ، وتكرار الشرط مع بناء الجواب على الشرط بالفاء يشعر بالحاح فرعون على هذه الآية وطلبه على جناح السرعة تحديا واظهارا للثقة بضعفها وعدم الزامها ، وفى الحذف توكيد للرفض واشعار بعدم وجود الآية ، ومثله قول عاد لهود عليه السلام : {قالوا جئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} . (الأعراف : ٧٠)

وقول فرعون فيما دار بينه وبين موسى عليه السلام : {قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين} . (الشعراء : ٣١) .

فلعل جواب الشرط فيما سبق يدل على احساسهم بأنهم حتى لو جاء بها لا يصدقونها ولا تلزمهم فلذلك لا يلحون على طلبها فهم يشيرون اليها اشارة عابرة .

(١) انظر نظم الدرر ٣٥٨/٩ .

(٢) ارشاد العقل السليم ٨١/٣ .

وفي مرحلة يأس الرسل من ايمان أقوامهم يأتي حذف جواب الشرط معبرا عن هذا اليأس ومؤكداً له ، كقول نوح عليه السلام :
{ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون} . (هود : ٣٤)

فان جواب الشرط محذوف يدل عليه ما دل على جواب الأول وكأن التقدير : وان أردت أن أنصح لكم - ان كان الله يريد أن يغويكم - فلا ينفعكم نصحي وهو من حيث المعنى كالشرط اذا كان بالفاء نحو : ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي^(١).
واقتران الارادتين يدل على أن ارادة البشر غير مغنية^(٢). وفي طي الجواب ايجاء الى الاحساس باللهجة اليائسة التي تصبغ خطاب نوح عليه السلام والتي لم تأت الا بعد استنفاده جميع وسائله وتيئيس الله اياه من ايمان قومه .

وحذف جواب "لو" في رد نوح على شبهات قومه :
{وما علمى بما كانوا يعملون . ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون} .
(الشعراء : ١١٢-١١٣)

والتقدير : لو تشعرون لشعرتم بأن حسابهم على الله لاعلى فلما سألتموني^(٣). وفي هذا تحميل لهم ورغم لغرورهم واعجابهم الباطل بأنفسهم .

وقد حذف جواب لو لدلالة ما قبله عليه ، ومع ملاحظة معنى التمني في "لو" يكون المراد استبعاد أن يكونوا من أهل الشعور لبلادة احساسهم كأنه يتمنى أن يكون لديهم شيء من الحس والشعور ليدركوا الحق به .
ويحذف القسم في كلام الأقوام المعارضين للدعوة بقصد التعجيل بالمراد والتهديد به كقول قوم شعيب عليه السلام :

(١) انظر : الدر المصون ٣٢٠/٦ ، البحر المحيط ١٤٧/٦ .

(٢) المحرر الوجيز ١٣٩/٩ بتصرف .

(٣) التحرير والتنوير ١٦٢/١٩ .

{لنخرجنك يا شعيب أو لتعودن في ملتنا} . (الأعراف : ٨٨)
 أما حذف الجملة فيطرده في خطاب الأنبياء بعد همزة الاستفهام للتقرير
 أو التعجب أو الإنكار مع العطف على المحذوف بالواو أو الفاء .
 ومن أمثلة ما حذف بعد همزة الإنكار وعطف على المحذوف بالواو
 قول نوح عليه السلام في الرد على شبهة قومه في كون البشرية مانعة للنبوة
 {أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم} . (الأعراف :
 ٦٣) . والتقدير استبعدتم وعجبتم أو أغفتم وعجبتم . وقد حذف ما حذف
 ليدخل في العموم فيتناول إنكار كل مابدر منهم ويستحق الإنكار ولعدم
 مواجهتهم بإنكار جملة أشياء مما قد يولد المجافاة .

ومنه بعد همزة التقرير والتعجب مع العطف على المحذوف بالواو
 قول شعيب في مواجهة تهديد قومه إياه وأتباعه :

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك
 من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين} . (الأعراف : ٨٨)
 والتقدير : "أُعيدوننا إلى ملتكم ولو كنا كارهين"^(١) وقد حذفت
 الجملة للاشعار بكراهة جريان لفظ العود على لسانه عليه السلام ، وللتعجيل
 بإيقاع الخصم في الحرج .

ومن الحذف بعد الهمزة والعطف على المحذوف بالفاء قول هود عليه
 السلام في مقام الدعوة إلى التوحيد :

{يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون} .
 (هود : ٥١)

فإن التقدير : أتغفلون أو أتجهلون أو ألا تتفكرون فلا تعقلون ، وقد
 حذف لتذهب النفس في تقدير المحذوف كل مذهب من شأنه أن يؤدي إلى
 التفكير السليم الذي ينتج عنه مراجعة النفس في عنادها وتكذيبها .
 ومنه قول إبراهيم عليه السلام لقومه :

{أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون} . (الأنبياء : ٦٧)
وهناك جانب من جوانب الإيجاز بالحذف غاية في الروعة وقمة في
البلاغة وهو ما يكون بحذف موقف كامل واقامة الكلام على طيه كما في
خطاب رب العزة والجلال لموسى وهارون عليهما السلام : {فأتيا فرعون
فقولا انا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل} . (الشعراء :
١٦-١٧)

فقد انتقل الكلام من خطاب الحق جل جلاله موسى وهارون الى
خطابهما لفرعون "أن أرسل" والمطوى هو أنهما ذهبا الى فرعون وطلبا
الدخول عليه فدخلا وقالوا له : أرسل معنا بنى اسرائيل ، وقد حذف هذا
الحدث أو المواقف لأنها ليس لها قيمة ولايتعلق بذكرها غرض ، وآية ذلك
أنها لم تذكر في سورة من القرآن ولا في آية منه .

ومن المواقف والأحداث التي حذفتم لكونها مفهومة من السياق
ولايتعلق بذكرها غرض ، ما تجده في مثل قوله تعالى : {لقد أرسلنا نوحا الى
قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم
عظيم} . (الأعراف : ٥٩) ، فقد طوى السياق ما بين ارسال الله نوحا الى
قومه وبين قول نوح لقومه "اعبدوا الله مالكم من اله غيره" والمطوى هو
امثال نوح لأمر ربه وذهابه الى قومه وجمعه لهم على صعيد واحد أو عدة
أصعدة ، فأقيم الكلام على طى ذلك كله لأنه مفهوم من السياق ولايتعلق
بذكره غرض ، وانتقل الكلام من ارسال الله نوحا الى خطابه قومه بالتوحيد
وانذاره بالعذاب . وهذا الحذف كثير شائع تجده في حكاية ارسال معظم
الأنبياء ، كقوله تعالى :

{والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا
تتقون} . (الأعراف : ٦٥)

وقوله : {والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله
غيره} . (الأعراف : ٧٣)

وقوله : {والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره} . (الأعراف : ٨٥)

ومن قبيل حذف موقف كامل واقامة الكلام على طيه خطاب رب العزة لموسى وهارون عليهما السلام فى سورة طه : {فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . انا قد أوحى اليانا أن العذاب على من كذب وتولى . قال فمن ربكما ياموسى} . (طه : ٤٧-٤٩)

فقد انتقل الكلام من خطاب الله موسى وهارون واصدار تعليمات السماء بمضمون الرسالة الى خطاب فرعون لهما "فمن ربكما ياموسى" والمطوى هو أنهما امتثلا للأمر فحملا الرسالة وذهبا الى فرعون وطلبا مقابلته فدخل عليه فقالا له مضمون الرسالة "انا رسولا ربك فأرسل معنا ..." وقد حذفت هذه الأحداث وأقيم الكلام على طيها لكونها مفهومة من السياق ولأنه لايتعلق بذكرها غرض ولكون الحذف يدل على سرعة الامتثال والتبليغ من جهة موسى وهارون عليهما السلام وسرعة التكبر والانكار من فرعون . وهناك ايجاز آخر لايسلك هذا المسلك الذى وصفناه وانما يسلك مسلكا أغمض وأدق وأبلغ ، وهو اختيار الكلمات الجامعة كقول موسى عليه السلام لفرعون لما سأله "ومارب العالمين" {قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم مؤمنين} . (الشعراء : ٢٣-٢٤)

تأمل هذه الكلمات الثلاثة ، "السموات والأرض وما بينهما" تجدها جامعة للوجود كله ، ناطقه وصامته ، وأرضه وسمائه وبره وبحره وحيه وميته ، لم تدع هذه الكلمات الثلاثة جنسا ولا نوعا ولا شجرا ولا مدرا ولا انسانا ولا حيوانا ولابرا ولافاجرا ولاعالما ولاجاهلا ولاشيئا فى هذا الوجود الا دخل فيها ، وليس فى الايجاز أبلغ من ذلك ، وهو مايسمى عند البلاغيين بايجاز قصر .

ومن شواهد هذا النوع من الايجاز قول فرعون لموسى {وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين} . (الشعراء : ١٩)

فقد قال فرعون "وفعلت فعلتك" بدل قوله مثلا : قتلت القبطى ظلما ومتعصبا لشيعتك ولم تكن ذا عدل ولا اصلاح ، فكيف تأتينا اليوم فى ثوب التقوى والاصلاح .

ومن هذا الحذف الذى يعتمد على اختيار الكلمات الجامعة ماورد فى قصة ابراهيم وقومه عندما كسر الأصنام ضربا باليمين . قال تعالى : "فأقبلوا اليه يذفون" .

وهناك طريقة أخرى فى الایجاز هى أن سورة من السور توجز مافصلته غيرها وقد أشبعنا هذا النوع من الایجاز درسا وأمثلة فى فصلى الدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق ومواقف الأقوام ، وذلك فى محاولتنا دراسة ماتكرر من المواقف والتماس أسرار التكرار والاضافات بما يغنينا عن الاطالة هنا فى ذكر الأمثلة ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى فيما دار بين ابراهيم وقومه : {فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا اليه يذفون . قال أتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وماتعملون} . (الصافات : ٩٣-٩٦)

فقد ذكرت هذه السورة وسيلة كسر الأصنام وأنه كان بالضرب القوى باليمين وذكرت اسراع القوم اليه يذف بعضهم بعضا وبعد ذلك انتقلت الى توبيخه وانكاره عليهم عبادة آلهة مصنوعة بأيديهم ، وترك عبادة من له الخلق والأمر .

ونلاحظ أن سورة الصافات قد طوت وأوجزت مشاهد من هذا الموقف من القصة نجدها مبسوطه فى سورة الأنبياء {وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون { . (الأنبياء : ٥٧-٦٧)

فقد بسط الموقف هنا وذكرت أحداث كانت مطوية هناك مثل مصير الأصنام بعد الضرب جذاذا وقبل ذلك ابطانه كيده المؤكد للأصنام ثم تركه كبير الأصنام للرجوع اليه تهكما وتبكيئا لأنه لا يسمع ولا يحس ولا ينطق ثم تعريضهم بشدة عقوبة كاسر الآلهة لأنه من الظالمين . ثم تذكر بعضهم ابراهيم لكونه الوحيد الذي كان يذكر آلهتهم بسوء ، ثم ارادتهم التنكيل به وجعله عبرة لمن تسول له نفسه عملا مثل ذلك ثم تقريرهم له بالفعل ، وتهكمه بهم بالصاق التهمة الى كبير الأصنام وطلبه سؤالهم للاقرار بذلك ان كانوا ينطقون ، وهكذا ... وخطاب الأنبياء ملء بهذا النوع من الایجاز .

مقامات القصر

أسلوب القصر كثير شائع في خطاب الأنبياء ، ولوحظ كثرة القصر بالنفى والاستثناء في مواقف الرسل مع أقوامهم لمواجهة انكارهم ورفضهم الدعوة ، ولتصحيح أخطاء وقعوا فيها ، وهو أسلوب يلبي حاجة الرسل الى الحسم والتأكيد والزام الخصم الحجة على سبيل الاقتناع من غير لجوء الى عصا الاكراه .

وبالنظر في الآيات الواردة في خطاب الأنبياء لاحظت أن أسلوب القصر بالنفى والاستثناء جاء في واحد وأربعين موضعا معظمه في مواجهة الانكار ، وجاءت ما النافية في واحد وعشرين موضعا ، وان النافية في أربعة عشر موضعا ولا النافية في ستة مواضع ... وجاءت "انما" في سبعة مواضع ، وجاء القصر بطريق التقديم في ثلاثة عشر موضعا ، وجاء بطريق العطف أربع مرات ، ثلاث مرات بـ"لكن" وواحدة بـ"بل" ، أما القصر عن طريق التعريف فورد مرتين فقط وورد بضمير الفصل أربع مرات .

مواقع القصر بالنفى والاستثناء في خطاب الأنبياء :

وقد جاء القصر بالنفى والاستثناء في مواقف الدعوة الى التوحيد وفي مواجهة انكار الأقوام وأكثر من خوطبوا بطريق النفى والاستثناء هم قوم نوح عليه السلام ولعل مرد ذلك الى كثرة الشبهات التي أثاروها حول رسالة نوح عليه السلام وشدة اصرارهم على التمسك بأصنامهم ، وكثرة الحاحهم "قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا" .

وقد خوطب بهذا الطريق جميع الأقوام الا قوم ابراهيم عليه السلام ولعل السر في ذلك يعود الى قوة الحجة التي أعطها الله ابراهيم مما أفحم قومه وألغمهم الحجر فلانت شكيمتهم في اللجاج ، فهم الذين قالوا : "أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين" .

وقد جاء عرض التوحيد على لسان الأنبياء جميعا ماعدا ابراهيم بأسلوب القصر بالنفى والاستثناء فى أغلب مواقف الدعوة .
وقد جاء القصر بالنفى والاستثناء فى مواقف الدعوة الى التوحيد فى قول نوح عليه السلام :

{لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره} .
(الأعراف : ٥٩)

أى اعبدوا الله وحده ، وترك التقييد به للايذان بأنها العبادة حقيقة وأما العبادة مع الاشراك فكلا عبادة ولدلالة قوله تعالى : {مالكم من اله غيره} أى مستحق للعبادة^(١)، ففى قوله "مالكم من اله غيره" قصر الألوهية المؤهلة للعبادة على الله دون غيره ، أى هو الاله لأوثانكم ، فأفردوه بالعبادة دون غيره ، اذ ليس غيره لكم بالاله .

وقد تكررت هذه العبارة عند معظم الرسل ، وتناولتها بالتحليل والبيان فيما سبق بما يعنى عن الاعادة هنا^(٢).

ومثل هذا قاله قوم هود : {ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون} . (المؤمنون : ٣٣) .

وقاله قوم صالح : {ما أنت الا بشر مثلنا فات بآية ان كنت من الصادقين} (الشعراء : ١٥٤)

وقال قوم شعيب : {وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين} . (الشعراء : ١٨٦)

وكل نفى واستثناء فيما سبق ، يعبر عن انكار القوم رسالة الرسل بسبب البشرية ، وبهذا تكون هذه العقيدة الفاسدة قديمة فى تاريخ البشرية من قوم نوح أبى البشر الثانى الى يوم أن قال أهل مكة لآخر الأنبياء عليهم

(١) ارشاد العقل السليم ٣٥٣/٢ .

(٢) يراجع فصل الدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق ص ٢٧ .

جميعا الصلاة والسلام : كما حكى عنهم القرآن : {وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون} . (الأنبياء : ٣) وقد ورد القصر بالنفى والاستثناء قصر صفة على موصوف قصر حقيقيا ادعائيا في قول موسى عليه السلام : {رب انى لأملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} . (المائدة : ٢٥)

فقد قصر اجابته الى طاعة الله وتنفيذ أوامره على نفسه وأخيه قصر حقيقيا ادعائيا لوجود من يوافقه على الطاعة من بين القوم وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ، ولكن موسى لضيقه من تلون القوم وتقلب آرائهم وخذلانهم لم يعتد بهما فكأنه لم يثق بهما ولم يعتمد عليهما ، لقلة ثقته بالقوم وتضجره من أحوالهم المتقلبة (١).

ومما ورد بالنفى والاستثناء من قصر الصفة على الموصوف قصر اضافة ما تجده في مواقف دعوة الرسل أقوامهم الى التوحيد ، كموقف قوم نوح من دعوته في قولهم :

{فقال الملأ الذين كفروا من قومهم ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا} . (هود : ٢٧) .

فهم في هذا القصر نزلوا نوحا منزلة من ادعى أنه ملك لأن الرسول عندهم ينبغي أن يكون ملكا لابشرا ، فردوا عليه بالنفى والاستثناء ليؤكدوا بذلك بشريته وأنه غير جدير بالرسالة بأى حال وهو ما صرحوا به في قولهم "وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين" .

ومن هذا النوع من القصر قول نوح عليه السلام لابنه في محاولة اقناعه بالركوب معه وتصحيح اعتقاده بأن الجبل يعصمه من الماء ، {قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم} . (هود : ٤٣)

فالقصر هنا اضافى بمعنى : الا من رحم الله لا من رحمت .

وقد ورد بالنفى والاستثناء قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا ادعائيا فى قول هود فى دعوة قومه الى التوحيد : {والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون} . (هود : ٥٠)
فقد قصرهم على الاتصاف بالافتراء قصرا حقيقيا ادعائيا اذ ليس المراد نفى كل ماعدا الافتراء من الصفات وانما المراد نفى مقابلها من الصفات كالصدق والحق والانصاف ومالى ذلك .

ومنه قول قوم هود فى موقف انكار رسالته والبعث :
{ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين} . (المؤمنون : ٣٨)

فهو من قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا ادعائيا للمبالغة ، امعانا فى التكذيب والرفض .
ومنه قول موسى فى موقف الضراعة :

{واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا . ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء} . (الأعراف : ١٥٥)

فقد قصر طلب الرؤية على صفة كونها فتنه الله لاتتعداها الى غيرها كتنجلية الايمان مثلا ، فهو من القصر الحقيقى الادعائى ، وشواهد هذا النوع من القصر قليل جدا فى خطاب الأنبياء مما يشهد بوجاهة كلام علماء البلاغة فى أن قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا لا يكاد يوجد ، لتعذر الاحاطة بصفات الشىء اذ مامن متصور الا له صفات يتعذر احاطة المتكلم بها فكيف يصح منه قصره على صفة ونفى ماعداها بالكلية^(١) . ومن العلماء من يرى أن المقصور هو عبادة العجل^(٢) .

ومما ورد بالنفى والاستثناء من قصر الموصوف على الصفة قصرا اضافيا للقلب قول نوح عليه السلام {ويا قوم لاأسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله} . (هود : ٢٩)

(١) انظر المطول ص ٢٠٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٢٦/٩ .

فهو يقصر أجره بكونه على الله لاعليهم وقد صرح بما تضمنه القصر قبله "لأسألكم عليه مالا" وهو من الارتقاء في التأكيد وسر القصر هو مواجهة انكارهم وتصحيح اعتقادهم ، وقد قال مثل ذلك هود من بعد : {ياقوم لأسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى أفلا تعقلون} . (هود : ٥١)

وقال صالح : {وماأسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين} (الشعراء : ١٤٥)

وقال مثل ذلك لوط : {وماأسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين} . (الشعراء : ١٦٤)

وقال ذلك أيضا شعيب : {وماأسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين} . (الشعراء : ١٨٠)

وقد تناولت فيما سبق تحليل هذه الآيات والتمست السر وراء تكررها ووحدة التعبير عن مضمونها على السنة الأنبياء^(١). وقد أمر آخر الأنبياء وخاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لقومه مثل ذلك : {قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله وهو على كل شىء شهيد} . (سبأ : ٤٧)

مواقع انما فى خطاب الأنبياء :

وردت "انما" فى خطاب الأنبياء سبع مرات أربع منها على السنة الأنبياء وثلاث منها فى كلام الأقوام ، مرة فى كلام قوم صالح فى مقام التكذيب {انما أنت من المسحرين} (الشعراء : ١٥٣) ، وأخرى توارثه قوم شعيب فى موقف شبيه لما سبق {قالوا انما أنت من المسحرين} (الشعراء : ١٨٥) وكلتاهما من قصر الموصوف على الصفة قصرا اضافيا قلبيا ، أى أنت مسحور لا كما تزعم أنك مرسل من الله . وفى ذلك عندهم دلالة على أن

(١) انظر ص ٢٨ من هذه الرسالة .

ما يصدر منه ليس وحيا من الله بل هو من تأثير السحر عليه أو الجنون ... وثالثة في كلام السحرة بعد ايمانهم برب موسى وهارون في مواجهة انكار فرعون وتصحيح خطئه {قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا} (طه : ٧٢) . والقصر فيه قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيا فهو مقصور على القضاء في الدنيا لا يتجاوزه الى القضاء في الآخرة ، وفيه تصحيح لخطأ في اعتقاد فرعون أنه أشد عذابا وأبقى . وماورد على ألسنة الأنبياء أيضا كان في مواقف مواجهة الانكار وتصحيح الأخطاء .

وقد ورد القصر بانما قصر صفة على موصوف قصرا اضافيا قلبيا في قول نوح عليه السلام في مواجهة تعنت قومه واستعجالهم بالعذاب تحديا لتصحيح خطئهم ومواجهة انكارهم {قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين} . (هود : ٣٣)

والقصر في قوله : انما يأتيكم به الله ان شاء {قصر قلب بناء على ظاهر طلبهم ، حملا لكلامهم على ظاهره على طريقة مجازاة الخصم في المناظرة والا فانهم جازمون بتعذر أن يأتيهم بما وعدهم لأنهم يحسبونه كاذبا وهم جازمون بأن الله لم يتوعدهم^(١) وشبيه بهذا الموقف قول هود عليه السلام : {انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون} . (الأحقاف : ٢٣) ردا على تحديهم وتعنتهم بطلب العذاب .

أما القصر عن طريق التقديم في خطاب الأنبياء فلوحظ أنه يأتي كثيرا حين يحتدم الخلاف ويتصاعد بين المؤمنين والكافرين فيحتمى المؤمنون بحمى ربهم مستعصمين به دون غيره ومن أمثلة ذلك ما جاء بالتقديم من قصر الصفة على الموصوف قصر حقيقيا قول شعيب عليه السلام : {إن أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب} . (هود :

فان توكله مقصور على الله لا يتعداه الى غيره كما أن انابته مقصورة عليه كذلك لا تتعداه الى سواه ، وفي ذلك استعصامه بربه وتفويض أمره كله اليه مع ما يشعره هذا التوكل من الثقة التامة بالله ووعدده ، وفي اقتران قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا بطريق التقديم بمثله بطريق النفي والاستثناء ارتقاء في التوكيد حيث أكد المعنى بوسائل تخصيص متنوعة ومناسبة لكل معنى وفي ذلك تأكيد التسليم والتفويض في جميع الأحوال ، وهناك شواهد أخرى لهذا النوع من التقديم تناولتها فيما سبق .

وقد جاء هذا النوع من تقديم الجار والمجرور على متعلقه المفيد للاختصاص ثمان مرات في خطاب الأنبياء وأتباعهم^(١).

وهذا التقديم للمسند اليه المسبوق بالنفي على الخبر المشتق قد ورد في خطاب الأنبياء ثمانى مرات ثلاث منها على السنة الأنبياء وخمس منها في كلام الأقوام ، واحدة منها تفيد الاختصاص قطعا هي من قصر الصفة على الموصوف قصرا اضافيا مرادا به القلب وذلك في قول قوم شعيب : {وما أنت علينا بعزيز} . (هود : ٩١) أى العزيز علينا قومك لانت وقد بسطت القول في هذه الآية في مسائل التقديم^(٢) ، وثلاث منها تحتل التخصيص أو التقوية وهى على النحو التالى :

قوم هود عليه السلام : {ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين} . (المؤمنون : ٣٨) .

وقول فرعون وملأئه : {قالوا أجتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين} . (يونس : ٧٨) . وقولهم أيضا : {وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} (الأعراف : ١٣٢) ، وأخرى للتقوية فقط وهى قول قوم هود فى التكذيب بالبعث :

(١) انظر : المائة ٢٣ ، الأعراف ٨٩ ، يونس ٧١، ٧٨، ٨٤، ٨٥ ، هود ٨٨ ، الممتحنة ٤

(٢) انظر ص ١٧٢-١٧٣ .

{ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين} . (المؤمنون : ٣٧) ، فالتقديم هنا لا يفيد الا التقوية والتوكيد ولايحتمل التخصيص لأن القوم لا يؤمنون بالبعث أصلا فكيف يخلصون غيرهم به أو كيف ينفونه عن أنفسهم ويشبتونه لغيرهم وهم له منكرون؟

أما فى خطاب الأنبياء فورد هذا التقديم مرة للتخصيص وذلك فى قول شعيب عليه السلام : {بقيت الله خير لكم وماأنا عليكم بحفيظ} . (هود : ٨٦) وجاء مرتين محتملا للتقوية والتخصيص وذلك فى قول نوح عليه السلام : {وماأنا بطارد المؤمنين} . (الشعراء : ١١٤)

وقوله أيضا : {وماأنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون} . (هود : ٢٩) فهو ينفى أن يكون طرد المؤمنين منه خصوصا ويحتمل أن يكون النفى لتأكيد عدم طردهم .

أما القصر بطريق العطف فورد فى مقام دفع الاتهام ، ومن ذلك من جانب الرسل قول نوح عليه السلام : {قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين} . (الأعراف : ٦١)

وقد نفى ماأثبتوه بلفظه لشناعة الاتهام ولكونه يمس العقل الذى هو منبع الفكر الذى يستند اليه الرسول فى دعوته الى الله ، وفى القصر قلب لمعتقدم بعد نفيه ، واثبات مايقضى كونه فى غاية الرشد والهداية وهو كونه رسولا من رب العالمين .

ومن هذا قول هود :

{قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين} . (الأعراف

: ٦٧)

فانهم يشبتون له السفاهة وينفون عنه الرسالة فجاء القصر ينفى ماأثبتوه ويثبت مانفوه ، وتعين طريق العطف للتصريح بالمشتب والمنفى معا . وذلك أكد فى نفي التهمة الموجهة اليهما .

ومنه في كلام الأقوام قول بني اسرائيل لموسى في موقف الاعتذار لموسى عليه السلام :

{قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامرى} . (طه : ٨٧)

فقد نفوا أن يكون الخلف باختيارهم ومحض ارادتهم وأثبتوا أنه من تسويل السامرى ومساعدة بعض الظروف والأحوال وبهذا يكون من قصر القلب ، ويحتمل أن يكون قصر افراد باعتبار اعتقادهم أن موسى عليه السلام يظن أنهم أخلفوا الموعد باختيارهم مضافا اليه تسويل السامرى فنفوا كونه باختيارهم وأثبتوا حصوله بتسويل من السامرى . على أن افادة لكن للقصر في الآيات السابقة هي على رأى ابن يعقوب الذى يرى حمل لكن الاستدراكية وبل الاضراية على بل ولكن العاطفتين لافادتهما معنى العطف أيضا ، وهذا خلاف رأى الجمهور .

أما العطف ببل فنجده في قول صالح عليه السلام في موقف الدعوة ومواجهة تبرم القوم به وتشاؤمهم :

{قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون} . (النمل : ٤٧) فقد أضرب بيل عن مضمون قولهم "اطيرنا بك وبمن معك" فنفى بذلك كون شؤمهم بسببه هو وبسبب من معه ، وأثبت أن الذين زعموا ذلك قوم فتنهم الشيطان فتنة متجددة بالقاء الاعتقاد بصحة ذلك في قلوبهم^(١) . ويكون تقدير الكلام : لسنا سبب شؤمكم وحلول المضار بكم ولكن سبب ذلك هو قدرة الله .

ومنه قول ابراهيم في مواجهة أبيه وقومه بالتوحيد :

{قالوا أجنئنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين} . (الأنبياء : ٥٥-٥٦) فقلوه : بل ربكم رب السموات والأرض "اضراب عما بنوا عليه مقالتهن من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم : {نعبد أصناما

(١) انظر بغية الايضاح ١١-١٠/٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٨١/١٩ .

فنظّل لها عاكفين { كأنه قيل ليس الأمر كذلك، بل ربكم رب السموات والأرض" (١). أو أنه اضراب عن كونه لاعبا . وهو في الحالتين من قصر القلب .

على أن افادة "بل" القصر في الآيتين السابقتين إنما هي على رأى ابن يعقوب المغربي والا فان الجمهور يشترطون في افادتها للقصر أن تكون مسبوقة بالنفى كقولك : ماجاءني زيد بل عمرو (٢).

أما القصر بضمير الفصل فنجده في قول صالح عليه السلام في مقام الدعوة الى التوحيد :

{قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها} . (هود : ٦١)

وقد سبق بيان وجه الاختصاص في هذه الآية في حديثي عن تقديم المسند اليه (٣)، ومنه في كلام الأقوام في موقف تخاذل قوم ابراهيم واستكانتهم عندما كسر أصنامهم :

{فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون} . (الأنبياء : ٦٤)

أما القصر بطريق التقديم فقد سبق في بحث التقديم بما لا يحتاج الى اعادته هنا (٤).

وقد تتعاقب أساليب القصر في خطاب الأنبياء في الدعوة الى الايمان والتوحيد كقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن :

{ياصاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (يوسف : ٣٩-٤٠)

(١) ارشاد العقل السليم ٧١٠/٣ .

(٢) انظر بغية الايضاح ١١-١٠/٢ .

(٣) انظر ص ١٧٢ .

(٤) انظر ص ١٦٩ .

فقد توالى ثلاث جمل قصرية وتعاقت وهى كلها من قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا بطريق النفى والاستثناء ، وفى الجملة الأولى أشار بالقصر الى حماقة القوم وضعف عقولهم حيث عبدوا أسماء فارغة ليس وراءها حقائق بل هى أوهام وخزعبلات لا طائل تحتها ، وفى الجملة الثانية أكد قضية هامة وهى تفرد الله بالحكم والأمر لتفرد به بالقهر والسلطان وهذه القضية ممهدة للغاية للحقيقة الأساسية التى خاطب صاحبى السجن من أجلها وهى توحيد الله ، فاذا سلمنا بأن الحكم والأمر له سبحانه وهو كذلك حقيقة ، فقد "أمر ألا تعبدوا الا اياه" وهذا هو المعنى الذى بدأ يوسف يقرر به ويحرك الأذهان اليه ويشحذ الفكر له : "أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار" فالباعث على تعاقد هذه الجمل القصرية هو ترسيخ عقيدة التوحيد فى نفوس المخاطبين .

ومما سبق نلاحظ بأنه لا يصر الى القصر فى خطاب الأنبياء الا لتصحيح خطأ وقع المخاطب فيه كما نلاحظ أن خطاب الأنبياء قد استوفى - تقريبا - جميع أساليب القصر ، ولعل علة ذلك تكمن فى مناسبة أساليب القصر للرد على مقامات الرفض والانكار وهى المواقف التى تشيع فى كلام الأقوام لرسول الله ، الأمر الذى يفسر كثرة هذه الأساليب فى خطاب الأنبياء الذى يقوم على الحوار والاقناع ولا يتكىء على عصا القوة والاكراه .

مقامات الاستفهام

بعد استقراء أساليب الخطاب في القرآن الكريم لاحظت أن الاستفهام قد جاء كثيرا في سياق دعوة الرسل أقوامهم المعاندين اشارة الى ماكان بين الرسل وأقوامهم من توبيخ وانكار وتكذيب الى غير ذلك ، تسرية عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يضيق صدره لاعراض قومه وايدائهم له ولأتباعه ، وتكذيبهم اياه فيما يبلغ عن الله ، فيعرض له نماذج مشابهة من معاندات الأقوام وتكذيبهم لرسول الله ، وصبر الأنبياء عليهم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وقد لاحظت أن الاستفهام بالهمزة أكثر أدوات الاستفهام ورودا في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم حيث ورد الاستفهام بها ثلاثا وستين مرة ، ويليهامن حيث الكثرة الاستفهام بما التي وردت عشر مرات ثم الاستفهام بمن التي وردت خمس مرات وكيف التي وردت مرة واحدة ، وأى التي وردت مرة فقط . ويرجع السر في كثرة الاستفهام بالهمزة - على ما يبدو لي - الى كونها وحدها التي يسأل بها عن كل شيء في الجملة ، فهي يطلب بها تصور كل مافي الجملة كما يطلب بها حصول النسبة أى التصديق مما يجعل الاعتبارات تكثر في صياغة الجمل الداخلة عليها ، وتدق حتى تحتاج الى حذر ووعى في استعمالها والكشف عنها كشف عن حكمة بالغة الدقة ينطوى عليها منطوق هذا اللسان^(١).

وقد جاءت الهمزة على وجوه منها الانكار كقول نوح عليه السلام في مقام الدعوة : {أنلزمكموها وأنتم لها كارهون} . (هود : ٢٧)

(١) انظر دلالات التراكيب ص ٢١٦ .

ففى الاستفهام انكار تكذيبى لأن يلزمهم بالرحمة وهى هدى النبوة الذى لاريب فيه وماداموا لم يقتنعوا فليس فى شرع الله أن يلزم عقل الانسان بأمر أنكره مهما كانت حجة البراهين وقوة الحجج ووضوح الأدلة لأن المطلوب هو أن يقنع هذا العقل وأن يتصرف باختياره حتى يقع الجزاء والعقاب على سلوك حر مختار .

وجاء الانكار على ألسنة الأقوام فى موقف التعنت والتكذيب والتحدى لرسول الله فقالوا :

{أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان} . (الأعراف : ٧٠-٧١)

فقد دخلت الهمزة على "جئتنا" لأن هذه الكلمة تشير الى ثبوت نبوته ورسالته فهم ينكرون مجيئه بما جاء به أى ينكرون نبوته ورسالته ويلخصون ماجاء به فى قولهم "لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا" . وقد وضعوا عقيدته التى دعاهم اليها وهى الوحداية فى محاذاة ماألفوه ، أى عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم ورفضوا الجديد الصالح وتشبهوا بالتقليد الفاسد ولم تكن لهم حجة فى هذا الرفض وانما هو الانكار والتوبيخ الذى لايرتكز على حقيقة ، وفى مقابل هذا يأتى انكار هود عليه السلام الموجه الى هذه المجادلة حول وهم وفساد آلهة ليس لها كنه ولاحقيقة ، وليست الا ألفاظا وأسماء ماأنزل الله بها من سلطان ، فانكار هود مسلط على فعل "تجادلوننى" لأنه هو رأس المعنى فالمجادلة قد ارتبطت بها عدة معان ، أسماء ، سميتموها أنتم وآباؤكم - ماأنزل الله بها من سلطان ، وكأنه يطلب منهم الحجة وأن هذه الأسماء لو كان لها سلطان ، ويعنى به برهان فهاتوه .

وان المتتبع لأنواع الاستفهام الانكارى فى خطاب الأنبياء ليجد قلة الانكار التكميلى وكثرة الانكار التوبيخى من جانب الأنبياء ، وهو أمر طبعى جدا لأن الأنبياء والرسول أمروا بتبليغ الدعوة وطلب الايمان بها ولأنهم

ينهون أقوامهم عن مساوىء الأخلاق ويدعونهم الى مكارمها ، فلا ينبغي أن يكون منهم ما يחדش أخلاقهم لأنهم قدوة .. أما في كلام الأقوام فيكثر فيه الانكار التكذيبى ويقل الانكار التويخى وهو من جانبهم أمر طبعى أيضا اذ لارادع لهم من دين ولاوازع لهم من خلق .

أما الأداة فى الاستفهام الانكارى فتحتل الهمزة المكانة الأولى من حيث الكثرة حتى انه لم يستعمل غيرها فى هذا المعنى الا ما ومن وكيف ، وقد ورد على النحو التالى :

ففى موضع الانكار التكذيبى وردت "ما" فى قول فرعون {ومارب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين} . (الشعراء : ٢٣)

فقد سمع فرعون من موسى ماخالف تصوره وتصور قومه القبط الذى يثبت آلهة متفرقة تقتسم التصرف فى عناصر العالم وأجناس الموجودات وأن فرعون مظهر الآلهة الأخرى فى تدبير المملكة ، فلما سمع فرعون ماخالف هذه العقيدة باثبات اله واحد هو رب العالمين سأل عن ماهية هذا الرب وحقيقته وشرح اسمه ، فأجاب موسى بشرح اللفظ بما هو تفصيل لمعناه وخصائصه ، {قال رب السموات والأرض} .

فعرف الله بآثار خلقه ومظاهر قدرته ، والاستفهام فى الآية انكارى "انكار من فرعون أن يكون للعالمين رب سواه" (١) . ويرى ابن عاشور أن دلالة الانكار والتعجب انما هى بطريق الكناية (٢) . على أن دلالة الاستفهام للانكار انما هى بالنظر الى حال فرعون كما قال الزمخشري (٣) ، والا فان السؤال عن الماهلية يجعل الاستفهام حقيقيا .

وجاءت "من" للانكار فى قول صالح : {فمن ينصرنى من الله ان عصيته} . (هود : ٦٣)

(١) الكشاف ١٠٩/٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١١٧/١٩ .

(٣) انظر الكشاف ١٠٩/٣ .

أى لا ينصرنى من الله أحد ان عصيته ، فهو انكارى تكذيبى ومثلهما
فى الانكار قول نوح عليه السلام : {وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم
أفلا تذكرون} . (هود : ٣٠)

وجاءت كيف للانكار فى قول ابراهيم عليه السلام : {وكيف أخاف
مأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا} . (الأنعام :
٨١) .

فكيف للاستفهام الانكارى لأنهم دعوه الى أن يخاف بأس الآلهة فأنكر
عليهم دعوتهم اياه الى الخوف من آلهتهم فى حال اعراضهم عن الخوف
ممن هو أعظم سلطانا وأشد بطشا ، وتفيد "كيف" مع الانكار معنى التعجب
، وقيل أنكر عليهم ذلك وأنكر عليهم أيضا أنهم لم يخافوا الله حين أشركوا
به غيره بدون دليل نصبه لهم فجمعت "كيف" الانكار على الأمرين (١).
أما موقع المنكر فى الاستفهام الانكارى بالهمزة فهو مابعد الهمزة فعلا
كان أو فاعلا أو مفعولا وجاء من قبيل انكار الفعل قول فرعون فى موقف
الرفض والتكذيب لموسى عليه السلام :

{أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى} . (طه : ٥٧)

فالانكار واقع على المجيء ومسلط عليه حالة كونه لاجراجهم من
أرضهم ، ومنه قول قوم هود : {أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد
آباؤنا} . (الأعراف : ٧٠) ، وقول ملأ فرعون : {أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه
آباءنا} . (يونس : ٧٨) ، وقول قوم نوح : {أنؤمن لك واتبعك الأردلون} .
(الشعراء : ١١١) .

وجاء من انكار الفعل فى كلام الأنبياء قول هود عليه السلام : {أتبنون
بكل ريع آية تعبثون} . (الشعراء : ١٢٨) .

ومن ذلك أيضا قول موسى عليه السلام : {أتقولون للحق لما جاءكم
أسحر هذا ولا يفلح الساحرون} . (يونس : ٧٧) .

وغيره كثير تناولناه في الفصلين السابقين .

وجاء من انكار الفاعل بعد الهمزة قول شعيب عليه السلام :

{أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط} . (هود : ٩٢)

فهو ينكر أعزية رهطه من الله سبحانه وتعالى .

ومن انكار الفاعل أيضا بعد الهمزة في قول قوم ابراهيم :

{أأنت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم} . (الأنبياء : ٦٢)

يقول عبد القاهر : "واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان وانكار له لم كان وتوبيخ لفاعله عليه"^(١). وقد أوردت كلام الشيخ عبد القاهر لكونه يرى في الآية السابقة معنى الانكار والتوبيخ الى جانب التقرير الذى هو أظهر المعانى فيها .

أما الاستفهام التقريرى فيطرد أيضا في خطاب الأنبياء غير أنه أقل من الانكار باعتبار التقرير أقل حدة وعنفا من الانكار الذى يناسب مواقف الأقوام التى تعج بكثرة اللجاجة والحصومة والاثارة ، ويرد التقرير لمعان متعددة منها استدراج الخصم والجاؤه الى الاعتراف وتوبيخه ، وفي ذلك اثارة لعقله على التفكير السلم المتزن ، ومما جاء فى ذلك قول نوح عليه السلام : {قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون} . (هود : ٢٨)

فالاستفهام فى صدر الآية تقريرى جاء يمهّد للانكارى التكميلى اللاحق ، اشعارا بأنه فى غنى عن الالزام لوضوح الحجة والرحمة التى هو عليها من ربه وهى من الوضوح بحيث تلوح للأبصار .

ومنه قول صالح عليه السلام : {قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير} . (هود : ٦٣)

وقول شعيب : إقال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقنى منه رزقا حسنا} . (هود : ٨٨) .

فالاستفهام فى قولهم : "أرأيتم ان كنت على بينة من ربي" تقرير لاستدراجهم والجاههم الى الاعتراف لأن فيه اثاره لعقولهم الى التفكير والتأمل وأن أمر نيوتهم لاحتياج الى أكثر من تأمل برىء ، فلو تأملوا تأملا بريئا لقالوا بصدقهم .

وقد تنوعت أدوات الاستفهام التقريرى غير أن الهمزة أكثر هذه الأدوات استعمالا وخاصة فى الاستفهام التقريرى الذى يعقب الأداة فيها النفى كقول فرعون : {ألم نربك فينا وليدا} . (الشعراء : ١٨) .

فالاستفهام تقريرى وقد ولى الهمزة النفى ليساعد على حمل المخاطب على الاعتراف والاقرار ، وفى النفى عتاب وتوبيخ لما يشعر به من عدم القيام بحق هذه التربية أو الاتهام بعدم العمل بمقتضاه الذى هو الشكر والامتنان والطاعة لاشق عصاها .

ومثله قول موسى عليه السلام : إقال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا} . (طه : ٨٦)

وقول نوح عليه السلام : {ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا} (نوح : ١٥)

أما موقع المقرر به فى الاستفهام التقريرى بالهمزة فهو ما بعد الهمزة فعلا أو فاعلا أو مفعولا تماما كما فى الاستفهام الانكارى بالهمزة ، غير أن تحديد معنى الاستفهام يظل رهن السياق ومعطياته اذ قد يحتتمل الاستفهام الحقيقة أو التقرير أو الانكار . ومن أمثلة التقرير بالفاعل قول قوم ابراهيم عليه السلام : {أأنت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم} . (الأنبياء : ٦٢)

وقد تعددت وجهات نظر البلاغيين فى المراد بالاستفهام فى الآية فذهب عبد القاهر والسكاكى الى أنه للتقرير بالفاعل بدليل جوابه بقوله : {بل فعله كبيرهم هذا} . (الأنبياء : ٦٣) ، فلو كان التقرير بالفعل لكان الجواب

"فعلت أو : لم أفعل^(١). وخالفهما الخطيب بأنه يجوز أن تكون الهمزة على أصلها اذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذى كسر الأصنام^(٢)، ورد عليه السعد بأنه يدل عليه ما قبل الآية . وهو أنه عليه السلام قد حلف بقوله : {تالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين} (الأنبياء : ٥٧) ، ثم لما رأوا كسر الأصنام {قالوا من فعل هذا بالهتتا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم} . (الأنبياء : ٦٠) ، فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه الأصنام^(٣). وعلى هذا فان اعتقاد قوم ابراهيم أن ابراهيم هو الفاعل قوى جدا ، لكونه وحده من ينكر عبادتها ويذكرها بسوء وعليه فانهم يقررون بأن هذا الكسر للأصنام كان منه لامن غيره ، حملا له على أن يقر لهم بأنه الفاعل ولم يريدوا تقريره بالفعل^(٤). ومما تقرر عند البلاغيين أن التقرير بالفاعل يعنى تحقق وقوع الفعل وأنه ثابت وإنما الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه فاذا قلت "أنت فعلت هذا" كنت قد رددت الفعل الثابت بينه وبين غيره ولم يكن منك في نفس الفعل تردد ، ودليل ثبات الفعل هنا الاشارة اليه وهو "أنت فعلت هذا" ، وقد تتخلف هذه القاعدة فيراد بالتقرير ما يعرفه المخاطب من مضمون الكلام سلبا أو ايجابا كقوله تعالى : {واذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله} . (المائدة) ، "فالمراد والله أعلم التقرير بما يعرفه من أنه لم يقل هذا وليس المراد التقرير بما دخلت عليه الهمزة لأنه صلوات الله عليه لم يقل ذلك^(٥)، وهذا خروج عن قاعدة التقرير بالحكم الذى يلي الهمزة .

-
- (١) دلائل الاعجاز ص ١١٣ ، مفتاح العلوم ص ١٥١ .
 (٢) بغية الايضاح ٤٦/٢ .
 (٣) المطول ص ٢٣٦، ٢٣٧ .
 (٤) دلالات التراكيب ص ٢٣٧ بتصرف .
 (٥) انظر دلائل الاعجاز ص ١١١ .
 (٦) دلالات التراكيب ص ٢٣٨ ، المطول ص ٢٣٨ .

ونجد في خطاب الأنبياء استعمال الاستفهام في معنى التفجع والاستعطاف وذلك في قول موسى عليه السلام متضرعا الى ربه عندما أخذتهم الرجفة ، قال تعالى :

{واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا . ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} . (الأعراف : ١٥٥)

فالهزمة في "أهلكنا" للاستعطاف أى لاتهلكنا^(١) وقيل ان الاستفهام مستعمل في التفجع ، أى أخشى ذلك ، لأن القوم استحقوا العذاب ويخشى أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المستحقين وان لم يشاركهم في سبب العذاب^(٢) ، وهذا أليق بمقام النبوة العاصمة من تفسير الاستفهام بالانكار أو التعجب .

ويستعمل الاستفهام في معنى التوبيخ في مقام المحاجة والجدل بين الرسل وأقوامهم ، ويترد اقترانه بالتعجب والانكار والتقريب ، فكل أمر منكر أو متعجب أو مقرر به هو موبخ عليه ، وقد جاء مايتناول الاستفهام استعماله في التعجب والانكار والتوبيخ قول صالح عليه السلام في مقام الدعوة ومواجهة تحدى قومه :

{ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون}

فهو يوبخ عليهم استعجالهم العذاب ويتعجب منه وينكره عليهم . وجاء من اقتران التقرير بالانكار قول نوح عليه السلام : {ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا} . (نوح : ١٥) ، فالتقرير مشوب بالانكار^(٣) .

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٤١١/٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٢٦/٩ .

(٣) المرجع السابق ٢٠٢/٢٩ .

واقتران التوبيخ مع الانكار مما لا تكاد تخطئه العين مع حذف المنكر بعد الهمزة والعطف عليه بالفاء أو الواو بل ان ذلك يطرد في خطاب الأنبياء كقول نوح عليه السلام في مواجهة انكار قومه رسالته : {أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون} . (الأعراف : ٦٣) . أى أكذبتم وعجبتم ، والاستفهام للانكار التوبيخي . وقول هود عليه السلام في مقام الدعوة الى التوحيد : {والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون} . (الأعراف : ٦٥)

أى أغفلم فلا تتقون والاستفهام للانكار التوبيخي .
ويأتى الاستفهام المستعمل في اللوم والعتاب في خطاب ابراهيم عليه السلام لأبيه لعبادته الأوثان ، حيث يقول : {ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا} . (مريم : ٤٢) .
ولما كان اللوم والعتاب أخف من التوبيخ ، فقد استعمله أبو الأنبياء عليه السلام في خطاب أبيه هنا تأدبا مع أبيه ورفقا به .
واستعمل الاستفهام في معنى التأنيب في خطاب موسى لهارون عليهما السلام .

{قال ياهارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى أفعصيت أمرى} . (طه : ٩٢)

وفي التأنيب انكار أيضا أى لامانع لك من اللحاق بي^(١) . والاستفهام في الثاني "أفعصيت أمرى" مفرع عن الأول .

أما التحريض والاعزاء فنجده في كلام الأقوام في موقف ملاً فرعون من دعوة موسى عليه السلام :

{وقال الملاً من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك} . (الأعراف : ١٢٧)

فان الاستفهام لاغراء فرعون وتحريضه على اهلاك موسى وقومه ، وقد استجاب فرعون لاغرائهم وهش لاثارتهم فجاء جوابه منما عن هذا التحريض :

{سقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وانا فوقهم قاهرون} . (الأعراف : ١٢٧)

واستعمل الاستفهام في التهكم في موقف قوم شعيب عليه السلام : {قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد} . (هود : ٨٧)

ونلاحظ أن التهكم مشوب بالسخرية والتندر .

ونجد التهكم المشوب بالانكار في قول موسى عليه السلام في مواجهة انكار فرعون وملائته {أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون} (يونس : ٧٧)

وفي الاستفهام انكار وتوبيخ وتجهيل وتكذيب لقولهم^(١) وكل تهكم يحمل في دخائله معنى الانكار الشديد .

واستعمل الاستفهام في معنى التسوية في قول قوم هود عليه السلام في موقفهم الراض للدعوة :

{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} . (الشعراء : ١٣٦)

فالهزمة هنا للتسوية وفي استعمال الاستفهام في معنى التسوية تأييس لنبى الله هود من استجابتهم له فسيان عندهم وعظه وعدمه .

واستعمل الاستفهام في معنى التهديد في قول فرعون للسحرة بعد ايمانهم برب العالمين رب موسى وهارون عليهما السلام :

{قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون} . (الأعراف : ١٢٣)

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٦٩٧/٢ .

فالاستفهام للتهديد المشوب بالانكار (١).

وقد لوحظ في خطاب الأنبياء ظاهرة تعاقب الاستفهام مما يسترعى الانتباه والنظر ، ويشيع ذلك في مقامات الخصومة والجدل ، سواء أكان ذلك من أحد المتخاطبين قبل جواب الآخر أم بعد جوابه ، وسواء كان جواب الطرف الثاني بالاستفهام أيضا أو بغيره ومما كان تعاقب الاستفهام من أحد المتخاطبين قبل جواب الآخر قول هود في مقام الدعوة {كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ... أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين} . (الشعراء : ١٢٤-١٣٠)

فان المقام مقام موعظة وعليه فقد أنكر هود على القوم عدم التقوى ثم أتبع هذا الانكار بانكار آخر تناول جملة من المنكرات التي تمثل مساوىء القوم الأخلاقية عن طريق العطف بالواو بما يوحي بمدى فساد القوم وتأصله فيهم وشدة عنادهم مما يشهد له جوابهم بعد هذه الموعظة {سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} . (الشعراء : ١٣٦)

وهذا غاية العناد والتعنت وهو أنسب للتسرية عن محمد صلى الله عليه وسلم الذى يبخع نفسه لعدم ايمان قومه وشدة تعنتهم ، والتسلية في مقدمة مقاصد هذه السورة الأساسية ومن أجلها صدرت قصة معظم الأنبياء فيها بالتكذيب "كذبت قوم نوح المرسلين" .

ويبلغ هذا التعاقب للاستفهام ذروته في خطاب موسى عليه السلام بنى اسرائيل المتعنتين الجدلين كقوله تعالى : {فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى} . (طه : ٨٦)

فهو ينكر عليهم عدم الوعد ونفيه ويقررهم بوجوده بحيث لاسبيل الى انكاره كما ينكر عليهم مخالفته ، وفي ترديد سبب اخلاف الموعد بين الغفلة وطول العهد وبين رغبتهم في حلول غضب الله المحسن اليهم بالتريبة

والانعام قمة السخرية والتهكم بهم والعجب من أمرهم وقد تعدد الاستفهام وتعاقب ليناسب جرائمهم المتعددة بما يثير هذا التعاقب من معاني متعددة يواجه بها نبي الله موسى عليه السلام جرائم القوم وتستوعب أسفه وغضبه (١).

وقد يحذف أداة الاستفهام لدلالة السياق عليه كقول سحرة فرعون :
{وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين} .
(الأعراف : ١١٣)

فقد حذف أداة الاستفهام في قولهم : "ان لنا لأجرا" بدليل جواب فرعون بنعم ، واثبات الهمزة في موقف آخر :
{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين} .
(الشعراء : ٤١)

وحيث أثبتت الهمزة فان الاستفهام يبرز ثقتهم في الغلبة ، وحيث حذفت الهمزة فان الاستفهام يوحي بثقتهم في حصول الأجر لهم حتى صيروه في حيز المخبر به عن فرعون فيكون جواب فرعون "بنعم" تقريراً لما أخبروا به عنه (٢).

ومنه في قراءة حفص عن عاصم بهمزة واحدة : {آمنتكم به قبل أن آذن لكم} . (الأعراف : ١٢٣) فهو ينكر على السحرة إيمانهم بموسى عليه السلام بعد غلبته عليهم ، وحذف الهمزة لآظهارهم في صورة المتعجل بالايان بموسى عليه السلام تأمراً عليه .

(١) انظر : الحوار في القرآن الكريم ص ١٥١ ، ارشاد العقل السليم ٦٥٦/٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٤٦/٩ .

مقامات الأمر في خطاب الأنبياء

الأمر من صيغ التعبير التي وردت في خطاب الأنبياء وقد استعملت في معان متعددة منها :

الالتماس الذي كثر استعماله فيما دار بين الرسل وأقوامهم في مواقف الدعوة الى التوحيد التي تقتضى التلطف واللين ، والأمر اذا كان على سبيل التلطف فهو التماس ، ومن أمثلة ذلك قول نوح عليه السلام في مقام الدعوة الى التوحيد : {قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} . (الأعراف : ٥٩)

وقول هود : {والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون} . (الأعراف : ٦٥)

وقول صالح : {والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب} . (هود : ٦١)

ومنه في كلام الأقوام ، خطاب بنى اسرائيل لموسى عليه السلام : {قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون} . (الأعراف : ١٣٨)

وقوله تعالى حكاية عن ملاء فرعون : {ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل} . (الأعراف : ١٣٤)

وقوله تعالى : {ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى} . (طه : ٩٠)

ونجد الالتماس مشوبا بالتضرع الذى لا يصل الى درجة الدعاء في خطاب نوح عليه السلام ابنه وفضلته كبده : {ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين} . (هود : ٤٢)

فان حرص الأب على ابنه جعله يلتمس التماسا مشوبا بتضرع لتلين
شكيمة ولده ويستجيب لطلبه لينجو من الهلاك المحقق وتلك من أفاعيل
عاطفة الأبوة في الآباء .

والارشاد من المعاني المستعملة فيها الأمر وهو قرين الالتماس في كثير
من أوامر الرسل أقوامهم حتى انه ليصعب التمييز بينهما في كثير من المواقف
والسياق هو الفيصل وبه يترجح أحدهما على الآخر ومن أمثلة الأمر
للارشاد قول موسى لبني اسرائيل :

{وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من
يشاء من عباده} . (الأعراف : ١٢٨)

والملاحظ أن أوامر الأنبياء لأقوامهم ان لم تكن للارشاد والنصح
والالتماس فان الباعث عليها هو أمر الله لهم بالبلاغ مضافا اليه تلك المعاني
الانسانية النبيلة والأخلاقية الكريمة والمعاني الدينية التي تتصف بها الرسالات
جميعا ، ولا تخرج أوامرهم عن ذلك الا اذا أصرت الأقوام على العناد
والرفض وجنحت الى السخرية والأذى كموقف هود عليه السلام ردا على
قومه في تطاولهم عليه وسخريتهم به عندما قالوا : {قالوا يا هود ماجئتنا بينة
ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين . ان نقول الا اعتراك
بعض آلهتنا بسوء} . فرد عليهم بقوله :

{قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى
جميعا ثم لا تنظرون} .

فقد حذرهم بقوله : "انى أشهد الله" ثم قابل سخريتهم واستهانتهم
بمثليهما بقوله : {واشهدوا أنى برىء مما تشركون} فعبر في جانبهم بصيغة
الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة بهم^(١). وفي الأمر في قوله :
"فكيدونى" تعجيز لهم ولآلهتهم ، وقد لجأ الى هذا التحدى والتعجيز ليلزمهم

(١) انظر الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بذييل كتاب الكشاف ص ٢٧٦ .

الحجة - بأن آلهتهم من الضعف والعجز بحيث لا تحرك ساكنا فضلا من أن تضر أو تنفع وفي ذلك اثاره لقوى التفكير فيهم وتحريك عقولهم نحو الخالق الكامل القادر الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض .

ومن هذا القبيل قول نوح فيما حكاه الله عنه من مواجهته لموقف قومه الرافض المتضجر بالدعوة {واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا الى ولا تنظروني} . (يونس : ٧١)

واستعمل الأمر للدعاء فى موقف نوح من تكذيب قومه : {قال رب انصرنى بما كذبون} . (المؤمنون : ٢٦) .
وفى موقف هود من قومه : {قال رب انصرنى بما كذبون} . (المؤمنون : ٣٩)

وفى موقف شعيب من قومه : {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين} . (الأعراف : ٨٩)
ويستعمل الأمر فى الدعاء فى مواقف استنصار الرسل بربهم وذلك عندما يصل التكذيب ذروته ويأس الرسل من ايمان أقوامهم أو يصل الأمر بهم الى تهديد الرسل بالاغتيال ، أو يطلب القوم أمرا خارقا للعادة كقول نوح أيضا : {رب ان قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين} . (الشعراء : ١١٨) .

وقول لوط : {رب نجنى وأهلى مما يعملون} . (الشعراء : ١٦٩)
وفى قول عيسى عليه السلام : {اللهم أنزل علينا مائدة من السماء} . (المائدة : ١١٤)

وقول موسى : {قال رب اغفر لى ولأخى ولأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين} . (الأعراف : ١٥١)

وقوله أيضا : {قال رب انى لأملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} . (المائدة : ٢٥)

وفى العدول من لفظ الدعاء الخبرى الى الأمر تفاعل بالاستجابة مع السرعة لأن من شأن الأمر الحقيقى أن يجاب على الفور ، ومثل هذا يقال فى سائر المعانى التى يستعمل فيها الأمر فانه مهما أريد به من معنى فانه لاينفك عن الأصل الذى وضع له ، على أن الدعاء معنى من المعانى التى يقصد بها النفس ، والنفس تواقه دائما الى ماتصبو اليه ، تتعجله ولاتنفك عن التطلع اليه حتى لكأنها تتوهمه حاصلًا لمجرد طلبه بصيغة الأمر (١). واستعمل الأمر بمعنى التخيير أو التسوية فى خطاب موسى السحرة فى موقف المعارضة :

{قالوا ياموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم} . (الأعراف : ١١٥-١١٦)

فان ما قبل الأمر "ألقوا" يدل على أن الأمر للتسوية أو التخيير لأنهم يجيرونه بين أن يبدأ هو باللقاء أو يبدأوا هم ، اذ يتساوى عندهم الأمران اظهارا لمدى ثقتهم بمقدرتهم واختبارا لمدى ثقة موسى عليه السلام بنفسه فاختر موسى عليه السلام أن يتقدموا استهانة ببدايتهم وثقة بتأييد ربه . والمقصود من التخيير استرهاب موسى عليه السلام وتهويل شأنهم فى نفسه ، ويدل على ذلك اعتناؤهم بأنفسهم وشدة اعتدادهم بمقدرتهم وهو مايسفر عنه تعبيرهم بتأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر "واما أن نكون نحن الملقين" .

ويأتى الأمر للتهديد حين تصل المحاوره بين الرسول وقومه الى طريق لامنفذ فيه ، فيلجأ الرسول الى التهديد والتخويف كقول هود عليه السلام :

(١) انظر الحوار فى القرآن الكريم ص ١٧٤ بتصرف .

إِقال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتوها
أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين } .
(الأعراف : ٧١)

ومنه موقف صالح من قومه المعاندين : {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى
دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} . (هود : ٦٥)
ومنه قول شعيب : {فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}
(الأعراف : ٨٧)

وقوله أيضا : {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنى مَعَكُمْ رَقِيبٌ} . (هود : ٩٣)
أما استعمال الأمر للتهديد من جانب الأقوام فنجده فى مثل قول آزر
لابراهيم :

{لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا} . (مريم : ٤٦)

فقد هدده بعقوبة آجلة هى الرجم ان لم يقلع عن كفره بالهتهم
وبعقوبة عاجلة وهى طرده عن معاشرته وقطع مكالمته^(١) .

واستعمل الأمر فى التهكم فى خطاب الأنبياء فى موقف ابراهيم من
قومه المشركين عندما كسر الأصنام وجعلهم جزاذا الا كبيرا لهم ليثبت
للقوم عجزها المطلق وتجردها من كل ما يمت الى الألوهية بصلة، فهى
لاستطيع دفع الضر عن نفسها فضلا عن دفعه عن غيرها أو جلب النفع له .
{قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا
فاسألوهم ان كانوا ينطقون} . (الأنبياء : ٦٢-٦٣)

فان فى قوله "فاسألوهم" تهكما وتبكيता لعبادتهم أصناما لاجيب لكونها
لا تنطق ، على أن كل ما يصدر من الرسل من سخرية وتهكم فانما هو رد فعل
مناسب لما صدر من الأقوام من مواقف أشد سخرية وتهكما فهو من باب
المشاكلة ، ومع ذلك نجد سخرية الرسل وتهكمهم مغايرا لما عند القوم لأنه

يكون في ثوب من الأدب الرباني الذي حلوا به ، وتسمية موافقهم بمثل هذه الألفاظ التي لاتليق بمقام النبوة انما هي من باب المشاكلة لما يصدر عن الأ أقوام .

وورد استعمال الأمر في معنى التحدى من جانب الأ أقوام عندما يبلغ بهم التكذيب غايته والتعنت ذروته فيطلبون من الرسل انزال العذاب - تحديا وعنادا - ان كانوا صادقين في دعواهم ، كقول قوم نوح : {قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} . (هود : ٣٢) ومنه قول قوم هود : {قالوا أجتنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} . (الأعراف : ٧٠)

وقول قوم صالح : {ففقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اثنتا بما تعدنا ان كنت من المرسلين} . (الأعراف : ٧٧) واستعمل الأمر للتعجيز في حجة ابراهيم النمروذ : {قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر} . (البقرة : ٢٥٨)

وقد يتعدد الأمر ويتعاقب في خطاب الأنبياء الأ أقوام فيتعدد معانيه من التماس وتوجيه ونصح ليناسب مقام الدعوة الذي يقتضى المعاودة والالاح والاصرار ، لمواجهة عناد الأ أقوام وشدة شكائهم واصرارهم على الكفر والشرك ورفض الدعوة والداعية ، من ذلك قول هود عليه السلام {والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون ... ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ماجئتنا بينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين . ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون} . (هود : ٥٠،٥٢-٥٥)

فقد تعاقبت الأوامر وتعلق كل أمر بمعين ، وروعى فى ذلك الأولوية
فقد تعلق الأمر بالتوحيد أولا ثم الاستغفار فالتوبة ، ولما رأى منهم الاصرار
على الكفر والعناد أشهد عليهم الله تهديدا وتخويفا ثم أشهدهم على براءته
مما يشركون بصيغة الأمر تهكما ثم تحادهم وآلهتهم بصيغة الأمر أيضا
تعجيزا وقله مبالاة بهم وبآلهتهم ثقة بربه العزيز القهار .

مقامات النهى فى خطاب الأنبياء

والنهي أقل استعمالا فى خطاب الأنبياء لأن المقام اقتضى استعماله أقل من الأمر لما فيه من الحدة والزجر أو التحذير ، ولأن الأمر أليق بخطاب الأنبياء الذى يكثر فيه التلطف والاشفاق لما فيه من اللين ، فهو أليق فى الخطاب من النهى ، ولكون خطابهم مشحونا بكثرة النصح والتوجيه والتعليم والحث والتكليف وهو ما يكون غالبا بالأمر ، ويندر استعمال النهى الا فى هذا الاطار ، فاذا استعمل من جانب رب العزة فان الغالب فيه أن يكون للنصح والمواساة والتسرية كقوله تعالى تثيتا لموسى عليه السلام ومواساة له :

{قلنا لاتخف انك أنت الأعلى} . (طه : ٦٨)

ويقل استعماله لغير ذلك كاستعماله للتزييه فى خطاب نوح : {قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلاتسألنى ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين} . (هود : ٤٦)

"والمقصود من النهى تزييه عن تعريض سؤاله للرد" (١).

وقد استعمل النهى فى الدعاء وذلك فى كلام قوم موسى عليه السلام: {فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين} . (يونس :

(٨٥)

وقول ابراهيم : {ولاتخزنى يوم يبعثون} . (الشعراء : ٨٧)

وقول ابراهيم : {ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا انك أنت العزيز

الحكيم} . (المتحنة : ٥)

وقول نوح : {وقد أضلوا كثيرا ولاتزد الظالمين الا ضلالا} . (نوح :

(٢٤)

وقوله أيضا : {وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا} .
(نوح : ٢٦)

وقوله : {ولاتزد الظالمين الا تبارا} . (نوح : ٢٨)
واستعمل النهى فى الالتماس فى قول هارون لموسى عليه السلام عندما
أخذ بلحيته يجره اليه : {قال ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولابرأسى} . (طه : ٩٤)
وقوله أيضا : {قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى
فلاتشمت بى الأعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين} . (الأعراف : ١٥٠)
وشواهد النهى المراد به الالتماس أكثر من أن يخصى فى خطاب
الأنبياء .

واستعمل النهى فى التهكم والاستخفاف فى قول هود عليه السلام :
{قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى
جميعا ثم لاتنظرون} . (هود : ٥٥)

فهو يأمرهم بكيده تعجيزا لهم وينهاهم عن التريث فى ذلك تبكيئا بهم
واستخفافا بقوتهم وقدرة آلهتهم .

وقد يقترن الأمر مع النهى لأهمية ماوردا بشأنه كقوله تعالى فيما دار
بين نوح وابنه :

{ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين}
(هود : ٤٢)

فان ملاحظة الظروف النفسية التى عاشها نوح عليه السلام وهو يرى
ابنه وفلذة كبده يخرج عنه الى الهلاك يفسر تجاوز الأمر والنهى ومايقدمانه
من مقارنة بين أمرين بينهما غاية التنافر ، أى معية الأب العطوف على ابنه
المشفق عليه الحريص على نجاته ومعية الكافرين الموردة للهلاك .

وقد يتوسط الأمر نهيين وذلك في المقامات الخصومة والنهي عن خصال فاسدة واعتقادات متأصلة سيئة يحتاج اجتثاثها من جذورها الى وسائل متعددة من أمر ونهي على طريقة معينة كقوله تعالى فيما دار بين لوط عليه السلام وقومه العصاة العتاة :

{وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون} . (الحجر : ٦٧-٦٩)

فان الأمر والنهي يتصلان بشيء واحد لكن اجتماعهما على هذا الترتيب يفيد ضربا من التأكيد على مدى معاناة لوط عليه السلام من قومه . وقد يفيد هذا الترتيب للأمر والنهي التدرج في النهي عن المساوىء الأخلاقية المترسخة في القوم كقول شعيب عليه السلام : {... قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين} . (هود : ٨٥)

وقد تعددت النواهي لتفيد التدرج في نهيمهم عن مساوئهم الأخلاقية المتأصلة فيهم على نحو يشعر بمدى تمكن المنهى عنه في نفوسهم وتعدده ، وانتشار الفساد فيهم الى درجة يصعب اقتلاعه الا بوسائل نافذة ومتعددة .

مقامات الفصل والوصل

واضح أن الفصل والوصل شائع في الكلام كله لأن الجملة مع الجملة
أما مفصولة وأما موصولة ، فمادام بين أيدينا كلام فلامفر من أن يكون بين
أيدينا فصل ووصل ، وقد كثر الفصل في خطاب الأنبياء ، في المواقف
الخاصة بمواجهة الإنكار والتكذيب ، كما كثر الوصل في مواقف التذكير بنعم
الله التي لاتعد ولاتحصى ، لما في الوصل أو العطف من اقتضاء المغايرة التي
تساعد على تكثير هذه النعم وتعديدها :

أما الفصل في خطاب الأقسام فيكثر في مواقف الرفض والتكذيب ،
كما يكثر الوصل في ذات المواقف ايهاا منهن بتعدد أسباب الرفض ودواعي
التكذيب .

ويجدد بي قبل الخوض في تفاصيل الفصل والوصل أن أتحدث عن
الرباط في خطاب الأنبياء ، وأبدأ بالروابط اللفظية التي هي أكثر أدوات
الربط استعمالا في خطاب الأنبياء وهي : الفاء ، وثم ، والواو .
أما الفاء ، فتأتي في خطاب الأنبياء لمعان متعددة منها :

(١) التعليل أو السببية :

وغالبا ماترد في المقامات التي يكثر فيها الطلب وذلك عندما يأتي الفعل
مقرونا بالفاء ومسبوقا بعلته كقوله تعالى حكاية عن بني اسرائيل :

{واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما
تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها} . (البقرة : ٦١) .

فان ما قبل الفاء سبب أو علة لما بعده ، والفاء لسببية عدم الصبر
للدعاء^(١) ، ومثله قولهم لموسى أيضا :

{قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا
انا هاهنا قاعدون} . (المائدة : ٢٤)

(١) روح المعاني ١/٢٧٣ .

فقد اقترن الفعل بالفاء "فاذهب" مسبوقا بعلته "لن ندخلها ماداموا فيها" ، وقد أوماً الى ذلك البقاعى حين قال : "ثم سببوا عن الذهاب قولهم فقاتلا" (١).

واقترنت الفاء بدعاء موسى عليه السلام المشفوع بعلته فى قوله تعالى :
 {رب انى لأملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين} .
 (المائدة : ٢٥)

وعطف بفاء التعليل فى دعوة الرسل أقوامهم بتذكيرهم بنعم الله التى تستوجب الشكر والطاعة المقتضية للتوحيد كقول صالح عليه السلام : {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب} . (هود : ٦١)

على أن الفاء فى كل ماسبق - وهى للتعليل - لم تخل من أصل معناها الذى هو الترتيب والتعقيب . فالفاء فى قول بنى اسرائيل "فادع لنا" توحى بشدة تعجلهم ما يطلبونه ولهفتهم اليه الى جانب معنى التعليل والسببية ، والفاء فى قول موسى عليه السلام "فافرق" تدل على شدة تيرمه وضيقه بقومه وشدة لهفته الى أن يفرق الله بينه وبينهم ، كما أن الفاء فى قول صالح عليه السلام : "فاستغفروه" يشير الى أن مقتضى هذه النعمة عدم البطء فى الاستغفار وضرورة الاسراع اليه حتى لا تتحول النعمة الى نقمة وهكذا نجد أن الفاء وان انتقلت من معناها الأصلى الى معنى آخر تظل تعبق بأريجها القديم وان وجدت فيها نسمة أخرى جديدة .

(٢) أما الترتيب والتعقيب :

فهما الأصل فى استعمال الفاء وان لم تلتزم به فى خطاب الأنبياء الا قليلا ، ويرجع السبب فى ذلك الى مرونتها وسهولة التصرف فيها والعدول بها عن أصل معناها الى معان أخر تكتسبها من السياق وتدل عليها القرائن وقد وردت على الأصل فى مقامات الخصومة والجدل ، للاشعار بالحدة والسرعة كقول قوم نوح :

{قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} . (هود : ٣٢)

فان الفاء في "فأتنا" ترتب طلب العذاب على جداله وذلك على الفور امعانا في التحدى واستهتارا بما أنذرهم به ، ومنه في كلام الأقوام قول قوم هود :

{أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين} . (الأعراف : ٧٠) .

(٣) أما التفريع :

فهى التى ترتب أو تفرع أمرا على آخر مع ملاحظة عدم تقيدها بالترتيب على الفور غالبا وقد يلحظ منها التعليل لكنه ليس فى قوة التفريع واستعمال الفاء بهذا المعنى كثير فى خطاب الأنبياء نظرا لكثرة الأخبار المتفرعة عن أخرى فى كلام الطرفين أو أحدهما ولا يختص بمقام دون مقام بل لا يكاد يخلو منه مقام من مقامات الخطاب من ذلك قول قوم ابراهيم عليه السلام : {قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين} . (الشعراء : ٧١) [أى نعبد أصناما فيتسبب عن عبادتنا لها أنا نوفي حق العباداة بأن ندوم لها عاكفين] (١) .

وقد يعطف بها العام على الخاص كقول صالح عليه السلام : {واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين} . (الأعراف : ٧٤)

وقول هود من قبل : {واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون} . (الأعراف : ٦٩) فان الفاء فى الآيتين فرعت طلب تذكر كل أنعم الله مظهر منها ومابطن على مظهر لهم مما ذكر وتسمى هذه الفاء فصيحة ، وهى التى يقدر فيها الشرط : والتقدير : "ان ذكرتم وقت جعلكم الله خلفاء فى الأرض

ووقت زادكم بصطة فاذكروا نعمه الكثيرة تفصيلا" (١).
التفاوت الرتبي :

"وهو من أعظم مواقع الفاء وأكثرها امتلاء بالمعاني والاشارات التي تغرى الباحث بالكشف عنها ، واستجلاء أسرارها ، وهو معنى افترعه الزمخشري وأكثر من تطبيقه على النصوص القرآنية في حرفي التعقيب والمهملة" (٢). ومن أمثلته في التفاوت بين الجمل قول قوم نوح : {قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا} . (هود : ٣٢)

فقد عطفت جملة "فأكثرت جدالنا" على التي قبلها ، وليس اكثار الجدال شيئا آخر غير ماعطف عليه بل هو جدال واحد تتابع وتزايد ، فاستحق دخول الفاء للإشارة الى التدرج والارتقاء حيث شرع نوح في هذا الجدال فتمادى حتى ضاق القوم ذرعا بتماديه على الدعوة ، فالفرق ما بين الشروع والاطالة هو التفاوت الرتبي الذي يجعل المعطوف أشد وأقوى ، حتى كأنه لشدته على النفس مغاير للمعطوف عليه فاستحق أن يعطف عليه بالفاء ، وهذا يصور لك مدى استئثارهم لدعوة نوح وتبرمهم به ، كما يصور لك في الوقت ذاته مدى صبر نوح على الدعوة والحاحه بها على القوم ومداومته عليها ليلا ونهارا بلاخمول أو فتور .

وتظهر روعة هذا الفاء في مواقف الاستعطاف التي تتطلب البيان والايضاح كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : {ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين} . (هود : ٤٥)
فعطف جملة "فقال رب" على التي قبلها من عطف المفصل على المجرم "فما بعد الفاء تفصيل للنداء وتعقيبه بالفاء دلالة على أنه أبلغ في الاستعطاف لما تضمنه من بسط الشكوى واستنجاز الله وعده بانجاء أهله والثناء عليه بما

(١) التحرير والتنوير ٢٠٦/٨ .

(٢) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ص ٣٤ .

هو أهله من العلم والعدل" (١).
وقد أيد هذا الوجه البقاعى عندما قال : "الفاء تفصيل لمجمل "نادى"
مثل ما فى "توضأ فغسل" (٢).

وهذه الفاء العاطفة هى التى تأتى بمعنى الترتيب الذكري عند
النحاة (٣)، وهو عطف مفصل على مجمل كما فى الآية السابقة .

وأما ثم ، فان استعمالها أقل من استعمال الفاء فى خطاب الأنبياء ،
الذى يقتضى غالبا الحدة للمتابعة المستمرة واللاحاح فى الدعوة التى لا تتوقف
لأنها مهمتهم ، وقد أدت هذه المتابعة والمراجعة الى تتابع جملة وعباراته
تتابعا متلاحقا ، والفاء هى الأنسب للربط بين هذه الجمل المتتابعة والعبارات
المتلاحقة ، بخلاف ثم التى تفيد التراخى والتوانى فى الغالب .

وقد جاءت ثم للربط بين معاهد الكلام فى خطاب الأنبياء اثنتى عشرة
مرة ثلاث منها على ألسنة الأقوام ، وواحدة فى كلام رب العزة ، وثمان منها
على ألسنة الأنبياء ، من ذلك فى مقام الشكوى قول نوح عليه السلام : {رب
انى دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائى الا فرارا} الى قوله : {ثم انى
دعوتهم جهارا ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا} . (نوح : ٩) .

فان حرف المهلة هنا بما فيها من معنى التراخى تدل على طول معاناة
نوح عليه السلام وشدة تحمله ، وأن المجاهرة بالدعوة قد أخذت خطأ وافرا
من المراخاة ولم يتخللها فتور أو تقصير أو انقطاع ومع ذلك لم يستجيبوا
فانتقل الى المزاجية بين الاعلان والاسرار ، عل ذلك يجدى معهم ، وظل
على الاعلان والاسرار ردحا من الزمن ، لايسأم مواصلة الدعوة والصبر
عليها ، وكان ذلك ضربا على حديد بارد ونفخا فى الرماد ، اذ لم يزدتهم الا
فرارا من الدعوة والداعية .

(١) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٢) انظر الدرر ٢٩٤/٩ .

(٣) انظر مغنى اللبيب ١٦١/١ .

وقد ساعدت "ثم" بما أفادته من مط الزمن بين مراحل الدعوة على اعذار نبي الله نوح عليه السلام نفاذ صبره مع قومه ، بعد نفاذ جميع وسائله للدعوة "وأنه لم يتعجل الانتقال من طور الى طور بل كان دؤوبا صبورا يطرق كل باب ويبذل كل جهد"^(١).

وفي مقام الدعوة عن طريق الترغيب جاء قول صالح : {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب} . (هود : ٦١)

وقول هود عليه السلام : {وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين} . (هود : ٥٢)
وقول شعيب : {واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود} . (هود : ٩٠)

وسر العطف بثم في الآيات السابقة ، الاشارة الى مد حبل الاستغفار زمنا طويلا بمراخاة بين الاستغفار والتوبة حتى يأخذ الاستغفار حظه من تطهير النفس ، المؤدى الى الاقلاع من الذنب والندم على مافات والعزم الأكيد على عدم العودة . وهذا عندى أولى من اعتبار ثم للتراخي في الاخبار^(٢).
فالتوبة مرحلة أرقى لاتنال الا بمجاهدة وصبر ، وقد أشار البقاعي الى مثل هذا في قوله عند تفسير قوله تعالى : "فاستغفروا ربكم ثم توبوا اليه" ، فاطلبوا مغفرته بأن تجعلوها غرضكم ثم توصلوا اليها بالتوبة فثم على بابها في الترتيب وأما التراخي فباعتبار عظم مقدار التوبة وعلو رتبته لأن الغفران لا يحصل بالطلب الا ان اقترن بها"^(٣). ولله دره وان ضاع في الناس دره .

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ص ١٧١ .

(٢) انظر حاشية زاده ٤٩/٣ .

(٣) نظم الدرر ٣٦١/٩-٣٦٢ .

وتأتى ثم لافادة الاذلال والتحقير فى قول نوح عليه السلام فى مقام تحدى الآلهة المزعومة وعابديها ، إياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولاتنظرون} . (يونس : ٧١)

فمجيء ثم المفيدة للتراخى^(١) والمهلة للاشعار بأن الكيد قد أخذ حظا وافرا من المراهقة وأن عدم المناظرة قد جاء بعد هذه المراهقة فى الكيد ، فناسب أن يكون العطف بينهما بضم التى تفيد التعاقب والتراخى ، وفى ذلك استخفاف وعدم مبالاة بقوة القوم وآلهتهم ثقة بربه الذى لا يهزم جنده ولا يخلف وعده .

وقد جاءت "ثم" مفيدة مد حبل المراهقة فى قول السحرة : {فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى} . (طه : ٦٤) فقد أفادت "ثم" شدة احكام الكيد وأنه قد أخذ حظا وافرا من المراهقة فى الجمع والاحكام وأن الاتيان صفا جاء بعد هذه المراهقة فى الاستعداد وجمع العدة واحكام الكيد لهذه المباراة الفاصلة التى احتشد السحرة لها كل قواهم وتدبيرهم . وجاءت أيضا فى كلام فرعون لافادة الترتيب والمهلة فى قوله للسحرة بعد ايمانهم :

{الأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين} . (الأعراف :

(١٢٤)

وفى صلبهم بعد القطع نكال يندعر الناس به حتى لايقدم أحد على عصيان أمره بعد ذلك فتكون "ثم" دالة على الترتيب والمهلة ، أما الترتيب فيفيد أن القطع كان قبل الصلب وأن الصلب ، صلب دون قتل ، فيكون القصد من المهلة مدة كى واندمال موضع القطع .

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٦٩٢/٢ .

وقد أكسبت ثم فعل التقطيع قوة وكثرة ومبالغة فوق ما فيه من المبالغة بالتضعيف وكأنه سيستمر على التقطيع حتى لا يبقى شيء يقطعه ، انه تمثيل لاتعذيب ، يريك تفلت أعصاب فرعون وشدة حنقه وخوفه من أن يكون ايمانهم هذا بداية انهيار مملكته^(١) ، وهو الذى نبيء بذلك من قبل .
وأما الواو فهى أكثر هذه الأدوات استعمالا للربط بين معاهد الكلام وتتناول العطف بين المفردات وبين الجمل التى لها محل من الاعراب والتى لا محل لها من الاعراب .

أما العطف بين المفردات فورد في خطاب الأنبياء في كلام الأقوام لمجرد التشريك في الاعراب كقول قوم هود : {أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا} . (الأعراف : ٧٠)

فالفعل "نذر" منصوب بالعطف على الفعل "نعبد" وهذا الاشتراك الاعرابى أدى الى اشتراكهما في المعنى وهو كونهما موضع تعجب القوم واستنكارهم فيكون الاستنكار منصبا على أمرين لأمر واحد وهما انكار مجيئه بعبادة الله وحده وترك دين الآباء .

وأما عطفها بين الجمل التى لها محل من الاعراب فأذكر هنا مثلا فقط لهذا النوع من العطف بالواو لكثرة ماتناولت من هذا القبيل في الفصلين الأولين كقوله تعالى على لسان موسى في مقام تذكير بنى اسرائيل بنعم الله تعالى المستوجبة للشكر والطاعة : {وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين} . (المائدة : ٢٠)

فالجملة المعطوفة وقعت في محل جر باضافة "اذ" اليها لتكون هى وماعظفت عليه بيانا لما قبلها ، وهى النعمة المجملة في قوله "اذكروا نعمة الله عليكم" ومقتضى تذكر هذه النعم هو تلبية ما يطلب بعدها ، ولأن المقام مقام تذكير بنعم الله العميمة كانت الواو المفيدة لمغايرة المعطوف بها

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ص ١٦٨ .

للمعطوف عليه أنسب للجمع بين أشياء كل منها نعمة مغايرة للأخرى ، وان كان بين الجميع تداخل في النعم . وأن كل واحدة منها تستوجب العمل بمقتضاها .

وقد سبق لهذا نظائر في الفصلين السابقين ، مما يغنى عن الاعادة هنا . وجاءت الجملة المعطوفة بالواو صفة في خطاب ابراهيم عليه السلام أيه في مقام دعوته الى التوحيد : {ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً} . (مريم : ٤٢)

فقد وقعت الجملة المعطوفة صفة في محل نصب وقد أشركت الواو معطف بها في هذا الحكم الاعرابي ايدانا بالمشاركة المعنوية التي تجمع هذه النقائص وتعددتها بالواو المفيدة للمغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه اشعارا بأن كل تقيصة من هذه النقائص كقيلة لوحدها بسلب هذه الأصنام معنى الألوهية المقتضية للكمال المطلق ، وهذا أدعى الى تنفير العقلاء من عبادتها لأنها عاجزة وناقصة لاتضر ولا تنفع ، هذا على القول بأن "ما" في قوله "لم تعبد ما لا يسمع" نكرة موصوفة ، وقيل انها موصولة ، وبذلك يكون العطف من قبيل عطف الجمل التي لا محل لها من الاعراب^(١).

أما العطف بالواو بين الجمل التي لا محل لها من الاعراب فكثير شائع في خطاب الأنبياء وقد حللته في فصلي الدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق ومواقف الأقوام ، ولا بأس من ذكر أمثلة له هنا ، وقد جاء من عطف جملة فعلية على مثلها متفقة معها في الزمن في مقام دفع التهمة قول نوح عليه السلام : {ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون} . (الأعراف : ٦٢)

فمجيء هذه الجمل الثلاث : أبلغكم ، وأنصح لكم ، وأعلم ... على هذا النسق مما يحسن العطف ويؤدى الى الانسجام ويبعث على التأثير ، وناهيك بما في الواو من معنى المغايرة التي تشير الى أن كل مهمة من هذه

(١) انظر : روح المعاني ٩٦/١٦ ، البحر المحيط ٢٦٧/٧ .

المهام الثلاث كافية يجعل صاحبها في غاية الهداية والرشاد فما بالكم بكونها جميعا في نوح عليه السلام . هذا على القول بأن جملة "أبلغكم" استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها ، وقيل انها صفة لرسول^(١) . وبالقول بالصفة يكون العطف من قبيل عطف الجمل التي لها محل من الاعراب .

وجاء من عطف اسمية على مثلها قوله تعالى : {عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء} . (الأعراف : ١٥٦) . فكل من المسند اليه في الجملتين يقابل الآخر وقد أضيف كل منهما الى ما أضيف اليه الآخر لأنه أقرب شيء الى الحضور بالبال وهذا أدعى الى الاعتبار .

تأمل هنا قدم العذاب على الرحمة لأن السياق يقتضى هذا لأن القوم أخذتهم الرجفة وقال موسى قبل ذلك : {وقال موسى ربى لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ...} . (الأعراف : ١٥٥) . ومادام السياق سياق رجفة ومناجاة من موسى فالعذاب هو المقدم ثم انه تعالى لما أخرج الرحمة أشار الى عمومها وشمولها فقد وسعت كل شيء ثم خص أقواما بمزيد منها وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآياته سبحانه ويتبعون الرسول النبي الأمى صلوات الله وسلامه عليه ، فصارت الرحمة بهذا التأخير رأس كلام جديد مع أنها جزء من الكلام الأول ، وهذا من النظم المعجز الذى لانجده في غير كلام الله .

وجاء عطف الجملة الاسمية المؤكدة على مثلها في كلام الأقوام على السنة قوم هود في موقف الرفض والتكذيب {قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين} . (الأعراف : ٦٦)

فالمسند اليه واحد والمسند في الجملتين متغاير والتغاير يقتضى العطف وفي العطف اشعار بتعدد أسباب الرفض والتكذيب ايهاا منهم بأنهم لم

(١) انظر ارشاد العقل السليم ٣٥٤/٢ .

يرفضوا دعوته جزافا ولاكذبوا عن فراغ ، ولاشك أن قولهم انالزرك في سفاهة يتضمن قولهم وانا لنظنك من الكاذبين لأن الذى هو في سفاهة ويدعى أنه نبي لا يكون صادقا أبدا ، وانما قالوا الثانية " وانا لنظنك من الكاذبين " ونصوا عليها مع تضمن الأولى لها لأنها تصريح برد كلام هود عليه السلام وهى مناط المعنى وأصله ورأسه ، ولهذا جاءت الواو المؤذنة بالمغايرة ، وهذه طريقة فى كلامهم اذا كانت الجملة الثانية تفيد معنى الأولى وتزيد عليها شيئا يراد لهذا الشيء أن يكون أكثر ظهورا وابرارا جىء بالواو لظهار معنى المغايرة واذا لم يرد ذلك جىء بغير الواو كقوله تعالى : { ذلك الكتاب لاريب فيه } فان قوله لاريب فيه مؤكد لذلك الكتاب وزائد معنى وهو أنه لاريب فيه ولكن المقصود هو تأكيد تفرده بالكتاب وأنه هو وحده الكتاب الذى اكتمل فى معناه اكتمالا مطلقا لايشوبه شىء فى جانب من جوانبه ، وعلى حد طريقة الآية {واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا} . (الأحزاب : ٧) ، فان الثانى يزيد معنى وصف الميثاق بالغلظ وأنه ميثاق وثيق أكيد لايقطعه أحد من هذه الكوكبة المختارة ، وأريد ابراز هذا المعنى الزائد فى الجملة الثانية فجىء بالواو .

وجاء عطف الجملة الاسمية على الفعلية فى كلام فرعون فى موقف الاعتداد بقوته : {قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وانا فوقهم قاهرون} . (الأعراف : ١٢٧)

وتعدد العطف هنا يوحى بشدة اعتداد فرعون بنفسه وأن موسى وقومه لا يستطيعون أن يفسدوا فى الأرض ولأن يخرجوا عن طاعته لاستطاعته قهرهم "ايدانا بعدم المبالاة بهم وأن أمرهم فيما بعد كأمرهم فيما قبل وأن قتلهم عبث لاثره فيه" (١) ، وأنه لايعجزه استئصالهم ، وتأمل مغايرة الاسمية

وتأكيدها واختيار ألفاظها وذكر كلمة فوقهم وقاهرون كل هذا ليؤكد معنى هو أعم وأشمل من تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم لأنه يحدث بعموم الكلية وعموم السلطان وعموم الاستعلاء والفوقية والقهر .

وقد جاءت الواو للعطف بين الجمل الانشائية كقول نوح عليه السلام: {أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم} . (الأعراف : ٦٣)

وقول هود : {أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم} . (الأعراف : ٦٩)

فان هناك محذوفاً قبل الواو في "أوعجبتم" والتقدير - والله أعلم - أستبعدتم وعجبتم . وهذا العطف يؤكد الانكار المقصود اليه بالهمزة ، ايماء الى أن هذا الاستبعاد والانكار والتعجب ماكان ينبغي أن يكون ومما لايقع من عاقل أصلاً ، وكأن حذف المعطوف عليه هنا يشير الى أن ما بدر منهم من الاستنكار والتعجب محذوف في صحائف عقول أولى النهى .

وجاء من عطف الأمر على مثله قول موسى لهارون عليهما السلام : {وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين} (الأعراف : ١٤٢)

وجاء من عطف النهى على الأمر قول صالح عليه السلام : {وياقوم هذه ناقة الله فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب} . (هود : ٦٤) ، فقد عطف النهى "ولا تمسوها" على الأمر "فذروها" للمبالغة فى النهى عن مسها بأذى سوء لما فى الواو من اشعار المغايرة بين الأمر والنهى وفى ذلك تأكيد ومبالغة لتكرار الطلب بالفعل وبالكف عن الفعل .

وجاء من عطف النهى على مثله قول هارون لموسى عليهما السلام : {قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى فلا تسمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين} . (الأعراف : ١٥٠)

وقد جاء من عطف الجملة الانشائية لفظا ومعنى على مثلها قول نوح عليه السلام فى موقف طلب التأييد والنصر من الله اثر تهديد القوم اياه : {قال رب ان قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين} . (الشعراء : ١١٨)

ومن الجدير بالملاحظة فيما سبق أن العطف بالواو بين الجمل التى عطفت ثانيها على الأولى للتوسط بين الكمالين متوافقة خيرا وانشاء ، لفظا ومعنى ، وهذا متفق مع مقررات علماء البلاغة فى ضرورة وجود التوافق فى الخبرية والانشائية عند العطف بين تلك الجمل وقد حداهم شدة التمسك بهذا الشرط الى تأويل مآظاهرة عطف الانشاء على الخبر أو العكس . وقد ورد فى خطاب الأنبياء ما فيه هذه المخالفة اللفظية بين الجملتين اللتين وصلت بالواو من ذلك قول هود عليه السلام فى مقام التحدى لمواجهة التكذيب : {قال انى أشهد الله واشهدوا انى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى ثم لا تنظرون} . (هود : ٥٥)

فقد عطف الجملة الانشائية "واشهدوا" على الخبرية "انى أشهد الله" وهذا خرق للقاعدة المستقرة عند البلاغيين ، وقد ورد فى الكلام المعجز فلا بد اذن من تأويل يسوغ هذه المخالفة ، فقالوا ان المخالفة لفظية ، اذ أن الجملة المعطوفة انشائية لفظا وخبرية فى المعنى ، وبهذا يحصل التوافق المطلوب فىكون التقدير "انى أشهد الله وأشهدكم" (١).

وقد التمس الزمخشري سر العدول الى هذه المخالفة اللفظية فقال : "فان قلت هلا قيل انى أشهد الله وأشهدكم؟ قلت لأن : اشهاد الله على البراءة من الشرك اشهاد صحيح ثابت فى معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده ، وأما اشهادهم فما هو الا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : اشهد على أنى لأحبك ،

تهكما به واستهانة بحاله" (١). وهذا كما ترى كلام نفيس يسير أغوار المعاني ليستخرج محبّاتها ودقائقها ، ولابن المنير لفتة ظريفة في تفسير المخالفة التي أوماً الزخشرى الى سرها باختلاف ما بين الخطابين ، وقد فسر ابن المنير هذا الاختلاف بقوله : "وانما عدل الى صيغة الأمر عن صيغة الخبر للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر والله الموفق للصواب" (٢)، وهو كلام جيد يحسنه ما فيه من مقابلة بين تهكمه واستخفافه بهم واحتقارهم وبين اجلاله لله وتوقيره جل جلاله .. وهذا التحليل الملتمس لأسرار المخالفة أولى عندي من اللجوء الى التأويل الذي همه تصحيح المخالفة وتسويغها وخاصة أن القرآن زاخر بما هو من قبيل عطف الانشاء على الخبر ، فمنعه على الاطلاق يحتاج الى مراجعة وعلى البلاغيين أن يراجعوا مقرراتهم في هذا العطف لتتسع قواعدهم لمثل هذه التراكيب التي تطفح روعة وبلاغة كما رأينا في تحليل الزخشرى وتعليق ابن المنير رحمهما الله .

ومما جاء من عطف الانشاء على الخبر خطاب نوح عليه السلام في شكواه الى ربه اصرار قومه على الرفض وتكذيب دعوته : {وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا} . (نوح : ٢٤)

فقد قيل ان جملة "ولا تزد الظالمين الا ضلالا" معطوفة على قوله من قبل رب انهم عصوني . وفي ذلك عطف الانشاء على الخبر وهو محذور في قواعد البلاغيين ولا يجوز العمل به في مقرراتهم ولذلك راح بعضهم يقدر محذوفاً هو المعطوف عليه : "فاخذلهم" ليخرج الآية من مخالفة القاعدة البلاغية وهو تقدير لضرورة اليه ، وقد علل الشهاب الخفاجي للمخالفة بأنها لفظية لأن قوله "رب انهم عصوني" ليس المقصود به اخبار علام الغيوب بل الشكاية والاعلام بعجزه ويأسه منهم فهو طلب للنصرة عليهم

(١) الكشاف ٢/٢٧٦ .

(٢) الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ص ٢٧٦ في هامش الكشاف ٢/

كما في قوله : " رب انصرني بما كذبون " وعليه تكون الآية كناية عن قوله اخذلهم وانصرني واطهر دينك ونحوه فهو من عطف الانشاء على الانشاء واستأنس لرأيه هذا بأن الله سمي مثل هذا التعبير دعاء حيث قال : فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون^(١). وأنت ترى أن الشهاب في محاولته الموفقة لا يخرج عن تصحيح العطف الى الكشف عن سر العدول ، وعندى أنها واقعة موقع العطف بالفاء مجازا والتقدير - والله أعلم - "وقد أضلوا كثيرا فلا تزد الظالمين الا ضلالا"^(٢)، وسر العدول عن الفاء الى الواو هو ماتشيعه الواو من معنى المغايرة التي تجعل اضلال الله لهم مغايرا لاضلالهم الناس فقد فسر اضلال الله لهم بأنه "الضلال في تمشية مكرهم وترويجه ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك كما في قوله تعالى : ان المجرمين في ضلال وسعر"^(٣)، وهو تفسير وجيه لا ينسحب عليه الاعتراض بأن الدعاء بالضلال لا يليق بالنبي المبعوث للهداية .

وقد أظهر موضع الاضمار فلم يقل "ولا تزدهم" وقال "ولا تزد الظالمين" تسجيلا عليهم بالظلم المفرط وتعليقا للحكم بالوصف وتعليل الدعاء عليهم به .

ومما ورد مما ظاهره مخالفة شرط التوافق في الخبرية والانشائية وأول بأنه من عطف الخبر لفظا وهو انشاء معنى على الانشاء لفظا ومعنى قول موسى عليه السلام في موقف الاعتذار والاستغفار {أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} (الأعراف : ١٥٥) ، فقد عطفت جملة وأنت خير الغافرين على "فاغفر لنا وارحمنا" لأنها خير في معنى طلب المغفرة العظيمة ، فعطف على الدعاء^(٤).

-
- (١) انظر حاشية الشهاب ٢٥٣/٨ .
 (٢) انظر نظم الدرر ٤٥١/٢ .
 (٣) انظر : ارشاد العقل السليم ٤٠٠/٥ ، حاشية الشهاب ٢٥٣/٨ .
 (٤) انظر التحرير والتنوير ١٢٨/٩ بتصرف .

ويرى أبو السعود أن جملة {وأنت خير الغافرين} "اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام"^(١)، وعندى أن سر العدول أو المخالفة بين الجملتين في الانشاء والخبر هو الاشعار بمغاير المغفرتين ، فقد طلب في الأول المغفرة والرحمة لما ارتكبه القوم السفهاء من اتخاذ العجل الها ثم طلب ثانيا أن تشمل المغفرة جميع الذنوب والخطايا وأن يبدل السيئات بالحسنات لأن من تمام العفو اتباعه بالاحسان . وهكذا نجد أن هذه القاعدة البلاغية بحاجة الى المراجعة وتوسيع دائرتها لتشمل وتستوعب هذه الخصائص التركيبية الممتلئة بدقائق المعاني وجلائلها والتي لم تكن لتظهر لولا هذه المخالفة المرفوضة عند علماء البلاغة وعلى القول بالاعتراض التذييلي السابق يسقط الاستدلال لأن القوم مختلفون فيه وأنه لا يكون الا في وسط الكلام وقيل انه يأتي في آخر الكلام وهذا ما يسميه ابن هشام باعتراض البيانيين الذى خالفوا فيه اصطلاحات النحاة^(٢)، ويكون المقصود من الاعتراض هنا دفع ما يراودهم من أن الهلاك مصيبهم بما فعل السفهاء منهم فجاءت جملة "وأنت خير الغافرين" لتدفع هذا التوهم ، وهى تجعل الأمل فى مغفرته سبحانه أقوى من أن يهلكهم .

أما الروابط المعنوية بين المفردات والجمل التى لها محل من الاعراب فتأتى فى مقامات متعددة فى خطاب الأنبياء وحسبنا هنا أن نذكر مثالا أو مثالين لها استغناء بما ورد منها فى دراسة آيات الخطاب فى الفصلين الأولين ، فقد جاء البديل رابطا بين المفردات ربطا معنويا فى قول السحرة فى اعلان ايمانهم بعد أن أبهرتهم معجزة موسى عليه السلام وأيقنوا أنها من عند الله وليست من قبيل ما يتقنونونه من السحر {قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون} . (الشعراء : ٤٧) . فرب موسى وهارون ، بدل من رب العالمين ،

(١) ارشاد العقل السليم ٤١٢/٢ .

(٢) انظر معنى اللبيب ٣٩٩/٢ .

وللابدال هنا دور في تجلية المعنى وتوضيح المقصود توضيحا مهما لا يتأتى بدونه ، ففرعون هو الذى قال : {أنا ربكم الأعلى} (النازعات : ٢٤) وقال : "ما علمت لكم من اله غيرى" . فلكى لا يظن فرعون أنه المقصود برب العالمين أتوا بالابدال دفعا لتوهم ارادة فرعون "رب العالمين" حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك واشعارا بأن الموجب لايمانهم ما أجراه الله على أيدي موسى وهارون من معجزة قلب العصا حية تسعى وتلقف ما يافكون^(١)، ولم يقولوا ابتداء آمنا برب موسى وهارون لبيان أن ربهما هو رب العالمين وأن من يدعى ربوبية العالمين من أهل الأرض فقد كذب ثم هو تأكيد لقول موسى لفرعون أول الأمر وعند ابتداء الدعوة {ومن رب العالمين} . قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين} . (الشعراء : ٢٣-٢٤) .

ومن هذا القبيل من الربط المعنوى بين الجمل التي لها محل من الاعراب دعاء عيسى عليه السلام ربه : {اللهم انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين} . (المائدة : ١١٤) . وهذه الآية فيها أكثر من ربط معنوى ، ففي قوله : "أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا" ربط بين جملتين بالصفة لأن قوله : "تكون لنا عيدا" صفة للمائدة المطلوب انزالها من السماء وهى جملة مكونة من تكون واسمها وخبرها فى محل نصب صفة للمائدة^(٢)، وقوله : "لأولنا" فى محل نصب بدل من الجار والمجرور "لنا" الواقع حالا من خبر تكون "عيدا" فى أحد القولين . والغرض من الابدال هو ادخال البدل فى حكم المبدل منه وهو التعليل لهذا الطلب الغريب .

وتأتى الروابط المعنوية بين الجمل التي لا محل لها من الاعراب فى خطاب الأنبياء عندما تكون الجملة الثانية بمنزلة البدل أو التوكيد أو البيان ولكثرة ماورد من ذلك فى خطاب الأنبياء فى الفصلين الأولين نكتفى هنا

(١) المصدر السابق بتصريف ٢١٢/٤ .

(٢) انظر روح المعاني ٦٠/٧ .

بذكر مثال فقط على ذلك كقول هود عليه السلام في مقام الدعوة عن طريق التذكير بنعم الله الجليلة المستوجبة للشكر والطاعة : {واتقوا الذى أمركم بما تعلمون . أمركم بأنعام وبنين وجنات وعيون} . (الشعراء : ١٣٢) . فقد ترك العطف بين جملة أمركم بأنعام وبنين . وبين ما قبلها ، واتقوا الذى أمركم بما تعلمون ، لوقوع الثانية منزلة عطف بيان للأولى ، والبيان كالمبين منه ، ولا يعطف الشيء على نفسه ، أو أنها واقعة موقع البدل من الأولى بدل البعض من جملة "أمركم بما تعلمون" ، ولكون البدل يقتضى الفصل لم تعطف الجملة الثانية ، وفي الابدال أو البيان تفصيل بعد الاجمال الذى هياً به السامعين لتلقى ما يرد بعده ليتمكن ذلك في أنفسهم بعد التطلع اليه والتلهف اليه^(١) . والمقام يقتضى هذا التفصيل لأن القوم يجحدون المنعم بهذه النعم الكثيرة التى لاتعد ولا تحصى وهى شاهدة على وجوده وتفردته فى ملكه وتزهره عما يشركون به .

وهذا ما يسمى عند البلاغيين الفصل لكمال الاتصال أو ترك العطف لكمال الاتصال ، غير أن مسألة ايجاب الفصل لكمال الاتصال مما يحتاج الى مراجعة وتصحيح لوجود شواهد كثيرة فى القرآن الكريم على خلاف هذه القاعدة أى ظاهرة اجتماع وصلين بين جملة وأخرى أحدهما معنوى والآخر ظاهر بالواو ، وعندى أن الفيصل فى ذلك هو المقام ومقتضياته فللمقام سلطانه الغلاب أحيانا فى اقتضاء العطف أو تركه تلبية لحاجته واستجابة لمقتضياته ، فمثلا نجد ترك العطف فى قوله تعالى حكاية عن قوم صالح عليه السلام فى موقف الرفض والتكذيب : {إنما أنت من المسحورين ما أنت الا بشر مثلنا} . (الشعراء : ١٥٣، ١٥٤)

ثم يأتى العطف فى موقف آخر شبيه بذاك وذلك فى كلام قوم شعيب عليه السلام : {قالوا انما أنت من المسحورين . وما أنت الا بشر مثلنا ...} . (الشعراء : ١٨٥-١٨٦)

فيعلل الزمخشري ذلك بقوله : "إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم : التسخير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا ، وإذا تركت الواو فلم يقصد الا معنى واحد هو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا" (١).

ولم يخرج الزمخشري في تعليله عن بيان معنى الفصل والوصل في الآيتين والمقصود بهما ، فيأتي ابن الزبير ليتمسك سر العدول عن العطف وعدم العدول عنه في الآيتين مسترشدا السياق ومقتضياته ، فيرى أن تعدد الأوامر والنواهي في سياق قصة شعيب عليه السلام {أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين} . (الشعراء : ١٨١-١٨٤) يرى أن تعدد الأوامر والنواهي التي تسجل على القوم تعدد مساوئهم الأخلاقية وراء العطف في كلامهم "إنما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا" فعطفوا قاصدين تعدد أسباب رفضهم تصديقه والاستجابة لدعوته ، ولما لم يكن يتضمن موقف صالح من قومه من المعطوفات أمرا ونهيا سوى قوله : "وأطيعون ولا تطيعوا أمر المفسدين" ، فاكتفوا بدعوى التسخير مقررنا عليها بدعوى المماثلة البشرية (٢).

ومن هذا القبيل قول قوم شعيب عليه السلام أيضا :
 {قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز} (هود : ٩١) ، فجملة "وما أنت علينا بعزيز" مؤكدة لمضمون "لولا رهطك لرجمناك" لأنه اذا انتفى كونه قويا في نفوسهم تعين أن كفهم عن رجمه مع استحقاقه اياه في اعتقادهم ، ما كان الا لأجل اكرامهم رهطه لالخوف منهم ، وانما عطفت هذه الجملة على التي

(١) الكشاف ١٢٧/٣ .

(٢) انظر ملك التأويل ٨٩٥/٢-٨٩٦ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥٠/١٢ .

قبلها مع أن حق الجملة المؤكدة أن تفصل ولا تعطف لأنها مع افادتها تأكيد مضمون التي قبلها قد أفادت أيضا حكما يخص المخاطب فكانت بهذا الاعتبار جديرة بأن تعطف على الجمل المفيدة أحواله مثل "مانفقه كثيرا مما تقول ، والجمل بعدها" (١).

ومنه قول صالح عليه السلام : {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} . (الشعراء : ١٥١-١٥٢)

وعطف "ولا يصلحون" على جملة "يفسدون في الأرض" وهي بمنزلة التوكيد لها لأنها بمعناها ، وكان حقها أن تفصل ، ولكن عطف تأكيديا لوقوع الشيء بنفى ضده مثل قوله تعالى : {وأضل فرعون قومه وما هدى} (٢) ، وفي العطف ائذان بأن فسادهم لا يشوبه صلاح ، كما أن الواو بافادتها المغايرة تشير الى تعدد جرائمهم ومساوىء أخلاقهم .

ومنه قول رسل الله الى لوط : {وأتيناك بالحق وانا لصادقون} . (الحجر : ٦٤)

فان الجملة الثانية معطوفة على ما قبلها بمنزلة التوكيد المعنوي وكان حقها أن تفصل عنها ، وقد عطفت للاشعار بالثقة وزيادةطمأنة لوط عليه السلام في مقام يبعث الرهبة والارتباب والخوف من شنشنة قومه ، فهو الذى حكى عنه عندما جاءته الملائكة "قال انكم قوم منكرون" ، وحكى عنه عندما هرع القوم اليه بعد وصول ضيفه "قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد" (٣).

ومنه قول لوط عليه السلام في موقف التبرم والضيق عندما هرع قومه اليه طمعا في ضيوفه :

{قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون} . (الحجر :

(٦٨-٦٩)

(١) التحرير والتنوير ١٥٠/١٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧٦/١٢ .

(٣) انظر ارشاد العقل السلم ٣١٩/٣ . هود : ٨٠

فلشدة ضيقه بالقوم وتيرمه من إلحاحهم فى مرأودة ضيفه ، عطف النهى الثانى على النهى الأول والمعطوف مؤكّد ومقرر للمعطوف عليه ، وكان حقه عند البلاغيين أن يفصل ، وقد عطف للتغليظ فى الطلب وللإشعار بشدة ضيقه بسبب إلحاحهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى (١).

ومنه أيضا قول نوح عليه السلام فى موقف الاستمالة والالتماس على سبيل النصح والخوف على المنصوح له {ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين} . (هود : ٤٢)

فعطف جملة "ولا تكن مع الكافرين" على ما قبلها ، والمعطوفة بمنزلة التوكيد المعنوى للمعطوف عليه ، وكان مقتضى هذه الصلة المعنوية ترك العطف ، لكن لما كان الأمر بالركوب اغراء للنجاة والنهى عن معية الكافرين تحذيرا من الهلاك عطفت الجملة التى بمنزلة التوكيد لهذه المغايرة ، كما أن الواو تشعر بالتنافى بين معية المؤمنين ومعية الكافرين . وكأن نوحا يطلب من ولده أمرين مختلفين ومستقل كل منهما عن الآخر وان كان عند التحقيق يرجعان الى أمر واحد ، الأمر الأول هو معية أهل الايمان والأمر الثانى هو النهى والتحذير من معية أهل الكفر كما تقول كن معه ولا تكن عليه وصدقه ولا تكذبه أنت فى هذا كله تجعل الأمرين اللذين هما وجهان لحقيقة واحدة كأنهما أمران مستقلان ومطلبان متغايران وكأن لك عند مخاطبك أمرين الأول أن يكون له والثانى ألا يكون عليه مع أنه حين يكون له يقتضى هذا بالضرورة ألا يكون عليه ولكنه التوكيد والتشديد وهكذا أكرمه ولا تهنه ، واركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

وبناء على ماسبق يمكن القول بأن مقتضيات المقام وأحوال السياق هى التى تختم العطف أو تركه .

ويترك العطف لشبه كما الاتصال ، ويسمى ذلك عند البلاغيين استئنافا كما تسمى الجملة الثانية استئنافا كذلك (٢) . والتسمية منظور فيها

(١) انظر : المصدر السابق ٣/٣٢١ ، حاشية الشهاب ٥/٣٠٤ .

(٢) انظر : بغية الايضاح ٢/٧٩ ، شروح التلخيص ٣/٥٦ .

الى تلك الصلة المعنوية التي تربط بين الجملتين ربطا يغنى عن العاطف الظاهر وشواهد هذا الباب في خطاب الأنبياء أكثر من أن تحصى لكثرتة وارتباطه بكل خطاباتهم المحكية بـ"قال" التي تتكرر في مراجعاتهم وكأنها جواب لسؤال مقدر نابع عن الكلام قبلها . والى ذلك يشير عبد القاهر بقوله :
"واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه والله أعلم^(١). وقد ذكر الشيخ عبد القاهر جملة من الشواهد منها ما يتصل بخطاب الأنبياء كالذى ذكره من قصة فرعون عليه اللعنة ، ورد موسى عليه السلام عليه :

{قال فرعون ومارب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جنتك بشيء مبين . قال فأت بها ان كنتم من الصادقين} . (الشعراء : ٢٣-٣١)

جاء ذلك كله ، والله أعلم ، على تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين فلما كان السامع منا اذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال : "ومارب العالمين" وقع فى نفسه أن يقول : "فما قال موسى له؟" أتى قوله : "قال رب السموات والأرض" ، مأتى الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف . وهكذا التقدير والتفسير أبدا فى كل ماجاء فيه لفظ "قال" هذا المجيء^(٢).

على أن مسألة تقدير السؤال والجواب مسألة توضيحية لاغير لأن الحقيقة أن لاسؤال ولاجواب وانما هى مراعاة لحال المخاطب وتتبع لخلجات

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤١ .

نفسه وما عسى أن يقع فيها تجاه كلام المتكلم السابق على الاستئناف ، فيستجيب المتكلم لما عسى أن يثيره كلامه في نفس المخاطب قبل أن تبوح بها نفسه ، وتلك لعمرى أمانة مرونة هذه اللغة التي نزل به القرآن وحيويتها ودليل عبقريتها المتمثلة في قدرتها الفائقة على استيعاب مشاعر المتكلمين بها وتحسس قنمات نفوسهم وهمسات وجدان المخاطبين بها ، وتقدير السؤال والجواب انما هو تقريب للمسألة وتحديد لنوع الصلة الرابطة بين الجملة المستأنفة وما سبقها ، وأن هذه الصلة كالصلة بين السؤال والجواب فلما لم يعطف بين السؤال والجواب لم يعطف كذلك بين الاستئناف وما قبله من كلام لقوة الشبه بين الاستئناف وجواب السؤال في صلة كل واحد منهما بما قبله ولكون هذه الصلة المعنوية لم تبلغ درجة الكمال في الاتصال سميت بشبه كمال الاتصال اذ ان ما بين السؤال والجواب من صلة ليس في قوة ما بين التابع والمتبوع - في البيان والتأكيد والبدل - لأن التابع والمتبوع كالشيء الواحد ولا كذلك السؤال والجواب ، لكونهما غالبا من ذاتين مختلفتين^(١) . ويكثر الاستئناف في خطاب الأنبياء في مقامات دعوة الرسل أقوامهم وفي مجالات الخصومة والجدل حيث يحاول كل طرف تأييد وجهته ومسلكه بالتعليل لها عن طريق الاستئناف كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : { لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } . (الأعراف : ٥٩) فان قوله " ما لكم من اله غيره " استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها .. وقوله " انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " استئناف آخر لتعليل العبادة ببيان الصارف عن تركها اثر تعليلها ببيان الداعى اليها^(٢) ، وقد ورد مثله على لسان هود

(١) انظر شروح التلخيص ٥٥/٣ حول تنزيل الاستئناف منزلة الجواب من السؤال .

(٢) انظر ارشاد العقل السليم ٣٥٣/٣ .

وصالح وشعيب عليهم جميعا السلام (١).

ومنه فى كلام الأقبام موقف قوم لوط : {وماكان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون} . (الأعراف : ٨٢) فقولهم : "انهم أناس يتطهرون" استثناء لتعليل الأمر بالاجراج وفيه سخرية وتهكم بلوط عليه السلام ومن معه ، وقد عد العلامة سعد هذا النوع من الاستثناء الذى يبنى على صفة مااستؤنف عنه من أبلغ الاستثناء وعلل ذلك بكونه مشتقلا على بيان السبب الموجب للحكم (٢). ويعد من ذلك خطاب رب العزة لنوح عليه السلام فى موقف يبعث على الاستغراب فجاء الاستثناء مزيجا عن النفس تلك الغرابة بما فيه من التعليل المبني على صفة مااستؤنف عنه ، قال تعالى : {قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح} . (هود : ٤٦)

فان نفى كونه من أهله يبعث على الاستغراب والتساؤل ، لكونه يعلم أنه ابنه وقلذة كبده فأزيح عنه الاستغراب مجابا عن تساؤله بهذا التعليل المستأنف "انه عمل غير صالح" . وفى ذلك اشعار بالقرابة المعتبرة عند الله وهى قرابة الدين لاقرابة النسب .

ومنه قول شعيب عليه السلام فى تهديد قومه :

{قال ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتبه عذاب

يخزيه ومن هو كاذب} . (هود : ٩٣)

فان جملة "سوف تعلمون" بمنزلة التعليل لما قبلها وقد فصل عن التى

قبلها هنا ، ولهذا نظير فى سورة الأنعام وفى سورة الزمر وصلت بالفاء

استثناءفا ، كقوله تعالى : {قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف

تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لايفلح الظالمون} . (الأنعام : ١٣٥)

(١) انظر سورة هود الآيات ٨٤،٦١،٥٠ .

(٢) انظر المطول ص ٢٦٠ .

وفي التماس السر بين ترك الفاء في الآية السابقة واثباتها في اللاحقة يقول الزمخشري : "فان قلت أى فرق بين ادخال الفاء ونزعها في سوف تعلمون . قلت : ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصول ونزعها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكاتنا وعملت أنت فقال : سوف تعلمون فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف^(١). وكلام الزمخشري كلام وجيه وجميل ولكنه لا يشفى غلة الباحث عن الفروق الدقيقة بين الأساليب وقد ظفر بهذا السر اللطيف البيضاوى عندما تعرض للآيتين : حيث يقول بعد ذكر آية هود "سبق مثله في سورة الأنعام والفاء في فسوف تعلمون ثمة للتصريح بأن الاصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك وحذفها هاهنا لأنه جواب سائل قال ماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل"^(٢). فالكلام في الأنعام بالعذاب وهو ناشئ ومتفرع على اصرارهم على ما هم عليه من الكفر ولذا ذكر معه الفاء الدالة على السببية للاشعار بملازمة المعطوف للمعطوف عليه ، ورغم أن في السؤال المقدر دلالة على مادلت عليه الفاء الا أن في الحذف اختصارا للفظ وتكثيرا للمعنى وتهويلا للعذاب عن طريق تقدير السؤال للاشعار بأنه يسأل عنه ويعتنى به .

وبعد ، فمما سبق ندرك مدى دقة مقاييس علماء البلاغة في استيعاب مسائل هذا الباب وغيره ، ومدى اصابتهم في تقسيماته ورصد أحواله ، اللهم الا في مسألة ترك العطف أو الفصل لكمال الاتصال واشتراطهم ضرورة الموافقة بين الجملتين في الخبرية والانشائية . فهذه المسألة بحاجة الى مراجعة لتستوعب ماورد على خلاف ذلك وهو كثير ، ورحم الله علماءنا الأجلاء وأجزل لهم المثوبة على ما قاموا به من جهد مضمّن وتركوه من تراث

(١) الكشاف ٢/٢٨٩-٢٩٠ .

(٢) حاشية الشهاب ١٣١/٥ .

ثمين لخدمة كتاب الله الجليل يظل نبراسا يضيء الطريق للباحثين في البلاغة
واعجاز القرآن للكشف عن سر الاعجاز خاصة وأسرار بلاغة الكلام بصفة
عامة ومعرفة مراتبه في الجودة والاحسان .

ولعله يمكن أن يوضح مسألة وجوب فصل الجملة المؤكدة بالقول بأن
وجوب الفصل انما هو مشروط بأن يكون المراد به التوكيد لا غير فاذا قصد
الاشارة لأى معنى آخر فيه وأريد التنبيه اليه والدلالة عليه صارت من مقام
الفصل الى مقام الوصل وجيء بالواو للدلالة على ذلك ، وكذلك الجملة
التي هى بمنزلة الجواب لسؤال تضمنته الأولى مثل أكرم زيدا انه حقيق
بالاكرام ، هذا الفصل مشروط بأن يكون المراد الدلالة على هذا المعنى وأنها
جواب لسؤال سائل ، فاذا قلت أكرم زيدا فانه حقيق بالاكرام فقد نقلت
المعنى بهذه الفاء الى معنى آخر وهو ابراز السببية المفهومة من الفاء . وبهذا
التوضيح والشرح لكلام البلاغيين يصير كلام البلاغيين مستقيما ومستوعبا
للجمل المختلفة ، وأنت ترى فى هذا الشرح والتوضيح أن الفيصل فى
وجوب الفصل أو الوصل هو المقام أو السياق وهكذا أرى حل اشكالية
هذه المسألة .

(٢٥٥)

الفصل الثاني

مسائل علم البيان الواردة في خطاب الأنبياء

التشبيه :

قل استعمال الصور البيانية في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم وخصوصا التشبيه اذ هو أقل وسائل التصوير البياني في خطاب الأنبياء ، ومما ورد فيه التشبيه قول هود عليه السلام :

{أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون} . (الشعراء

: ١٢٩)

أى تشبه حالكم حال من يخلد ، ويؤيد التشبيه في الآية قراءة ابى أو قراءة بعض الكوفيين {وتتخذون مصانع كأنكم تخلدون} .

والتشبيه من قبيل تشبيه أمر عقلى بآخر عقلى حيث يشبه نبى الله هود عليه السلام حال قومه في بنائهم بكل ريع آية عبثا واتخاذهم المصانع انهماكا في الدنيا واغترارا بها بحال من يظن البقاء والخلود فيها فتعلق بها تعلقا شديدا وانشغل بالعمل لها انشغالا مابعده انشغال فهى عنده الغاية القصوى واليه المنتهى ، وكأنى بنى الله هود عليه السلام يلفتهم - بهذا التشبيه المصبوغ بالانكار والتوبيخ - الى المصير المنتظر بعد هذه الحياة الدنيا الفانية وهو ماعنه غفلوا فلم يفكروا في الاعداد والعمل له .

و"لعل" في الآية أداة تشبيه ، ذكره السبكى والسيوطى ودلالاتها على التشبيه تضمنية أى مبناهما على التجوز لأن أصل وضعها لغير التشبيه ثم نقلت عن الأصل الى التشبيه^(١). وقد أضفى استعمالها على الكلام نوعا من السخرية بالقوم من شدة تشبهم بالدنيا وتغافلهم عن الآخرة .

ومن التشبيه قوله تعالى في مقام تهويل الطوفان :

{وهى تجرى بهم فى موج كالجبال} . (هود : ٤٢)

فقد شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها ، وفى ذلك تهويل وتفطيع للموقف العصيب الذى خاطب نوح عليه السلام ابنه وطلب منه الركوب مع المؤمنين ، وهو موقف مثير لعاطفة الأبوة الصادقة .

(١) عروس الأفراح من شروح التلخيص ٢/٣٩٢-٣٩٣ ، الاتقان /١

ومن قبيل التشبيه المفيد للمشكلة في المواقف قول نوح عليه السلام
ردا على سخرية قومه : {قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون} .
(هود :)

فالتشبيه في قوله "كما تسخرون" أى نسخر منكم سخرية مثل
سخريتكم في التحقق والوقوع لافي الكيفيات والأحوال اذ ان
السخرية لاتليق بمقام النبوة ، ولعل المراد هو الاستجهاال وأطلق السخرية على
ذلك للمشكلة^(١).

ومن التشبيه البليغ قوله تعالى : {وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس
سراجا} . (نوح : ١٦)

ففى قوله "وجعل الشمس سراجا" تشبيه بليغ حيث شبه الشمس
بالسراج وحذف أداة التشبيه ووجه الشبه ، وجعل السراج مشبها به لكونه
أعرف وأقرب ، فالشمس تزيل ظلمة الليل ويصير أهل الدنيا في ضوئها
وجه الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج
ما يحتاجون الى ابصاره . وهناك دقيقة أخرى في هذا التشبيه هى تلك المناسبة
التي بين الشمس والسراج من حيث كون ضياء السراج قائما بذاته لاطريق
الانعكاس وكذا ضياء الشمس فانه لاينعكس اليها من كوكب آخر^(٢).

(١) ارشاد العقل السليم ٢٠٧/٤ .

(٢) روح المعاني ٩٣/٢٩ م ١٥ .

الاستعارة :

وماورد منها في خطاب الأنبياء قليل كقوله تعالى :

{لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره
انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملائ من قومه انا لنراك فى ضلال
مبين} . (الأعراف : ٥٩-٦٠)

ففى قول القوم : " انا لنراك فى ضلال مبين " استعارة حيث استعير
حرف " فى " الدالة على الظرفية للدلالة على تلبسه بالضلال وتمكن الضلال منه
كتلبس الظرف بالمظروف .

ومثله قول قوم هود عليه السلام لهود : { انا لنراك فى سفاهة } .
(الأعراف : ٦٦)

ومن الاستعارة كلمة " فعميت " فى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه
السلام : {قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده
فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون} . (هود : ٢٨)

حيث شبهت الحججة بالعمياء ، يقول ابن عاشور : ومعنى " فعميت "
فخفيت ، وهو استعارة ، اذ شبهت الحججة التى لم يدركها المخاطبون كالعمياء
فى أنها لم تصل الى عقولهم كما أن الأعمى لا يهتدى للوصول الى مقصده
فلا يصل اليه ، ولما ضمن معنى : الحفاء عدى فعل " عميت " بحرف على تجريدا
للاستعارة (١) .

وواضح أن الاستعارة بهذا التحليل من باب الاستعارة المكنية واليه
ذهب الزمخشري فى قوله : "... أن الحججة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت
عمياء ، لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره ، فمعنى فعميت عليكم البيئة :
فلم تهدكم كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغير هاد" (٢) .

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٢ .

(٢) الكشاف ٢٦٦/٢ ، دار الباز .

ويجوز أن تكون الاستعارة في الآية تمثيلية بأن شبه حال الذى لا يهتدى بالحجة لحنائها عليه بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها فاتبع دليلا أعمى فيها (١).

وقد قيل بأن الاستعارة في "فعميت عليكم" تصريحية من باب القلب من باب قول العرب : "أدخلت القلنسوة في رأسى" ، ورد بأن القلب لا يجوز الا في الضرورة وأن ما في الآية الكريمة لو كان من باب القلب لكان تعدية الفعل "عمى" بعن دون "على" لأنك تقول : عميت عن كذا ، ولا تقول عميت على كذا (٢).

وفي الاستعارة في هذه الآية تعريض بأن القوم غير مهيين لادراكها ، وغير مفتوحى البصائر لرؤيتها وهذا يدل على مدى تल्पف نوح عليه السلام في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم واثارة حساسيتهم لادراك القيم الخفية عليهم والخصائص التى يغفلون عنها فى أمر الرسالة والاختيار لها ، ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولا الى الظواهر السطحية التى يقيسون بها (٣). ومما هو من الاستعارة قول شعيب عليه السلام : {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين} . (الأعراف : ٨٩) . فان كلمة "افتح" بمعنى أظهر وبين ومنه فتح المشكل لبيانه وحله تشبيها له بفتح الباب وازالة الاغلاق حتى يوصل الى ما خلفها (٤) ، والمعنى أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز الحق من الباطل . والاستعارة تبعية أو مكنية .

ومن الاستعارة قوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون بعد ايمانهم : {قالوا انا الى ربنا منقلبون . وما تنتقم منا الا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} . (الأعراف : ١٢٥-١٢٦)

(١) راجع روح المعاني للألوسى ٣٩/١٢ .

(٢) المصدر السابق ، وحاشية الشهاب على البيضاوى ٩١/٥ .

(٣) فى ظلال القرآن ١٨٧٤/٤ بتصرف .

(٤) حاشية الشهاب ١٩٢/٤ .

حيث شبه الصبر بالماء ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الافراغ "أفرغ" على طريقة الاستعارة المكنية ، وفي الآية لطائف أخرى للاستعارة ذكرها ابن عاشور حيث يقول : "ولما كان ذلك الوعيد مما لاتطبيقه النفوس سألوا الله أن يجعل لنفوسهم صبرا قويا يفوق المتعارف فشبه الصبر بماء تشبيه المعقول بالمحسوس ، على طريقة الاستعارة المكنية ، وشبه خلقه في نفوسهم بافراغ الماء من الاناء على طريقة التخيلية ، فان الافراغ صب جميع مافي الاناء ، والمقصود من ذلك الكناية عن قوة الصبر لأن افراغ الاناء يستلزم أنه لم يبق فيه شيء مما حواه ، فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخيلية وكناية" (١).

ومجمل القول أن الآية فيها استعارتان ، الأولى استعارة تبعية تصريحية وذلك اذا قلنا ان المعنى : أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء ، والقريظة "صبرا" أى هب لنا صبرا تاما كثيرا ، الثانية استعارة مكنية اذا قلنا ان المعنى : صب علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون (٢).

ولا يعزبن عنك ماتضفيه الاستعارة هنا من معنى يسفر عن شدة حاجة السحرة المؤمنين بموسى عليه السلام الى الصبر والتحمل تجاه وعيد فرعون الجبار المتعجرف في هذا الموقف العصيب وهي حاجة تشبه الى حد كبير حاجة الظمآن ظمأ شديدا الى الماء ، وقد انقطعت به السبل في مفازة هوجاء لا أثر فيها للماء وقد أسبل عليه القيظ جلبابا غمره ، وبلغ به العطش مبلغه فهو لا يكفيه غرفة بيده أو جرعة بفمه ، فهو يرجو من الله أمطار السماء ليغمره الماء من كل ناحية فيرتوى من ظمئه ويتخلى عن جلباب القيظ فلا يبقى به أثر للعطش أو علامة للقيظ ، وكذلك السحرة طلبوا من الله أن يغمرهم بالصبر من كل ناحية ليربط به على قلوبهم فلا يبقى هنا خوف من فرعون أو قلة تجلد لتكيله .

(١) التحرير والتنوير ٥٦/٩ .

(٢) راجع روح المعاني ٢٨/٩ .

وهكذا نتبين أن الاستعارة في القرآن ليست مجرد توسع في اللغة وإنما هي وفاء لحاجتنا وأقتضاء لأحوال المتكلمين والمخاطبين .

ومن الاستعارة المكنية قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام :
{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ} . (هود : ٣١)

ففي الخزائن استعارة مكنية حيث شبه النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تدخر في الخزائن ورمز الى ذلك بما هو من روادف المشبه به وهو الخزائن (١).

ويمكن أن يقال شبه الخزائن المشتملة على نفائس ما عند صاحبها بنعم الله وآلائه وأفضاله لنفاستها ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه باضافة الخزائن الى الله .

ومن الاستعارة قوله تعالى : {يَا بَتُّ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لِي يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} . (مريم :)

ففي قوله "أهدك صراطا سويا" استعارة مكنية حيث شبه ابراهيم نفسه بهادى الطريق البصير بالثنايا والدروب ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الهداية . وفي قرينة الاستعارة أو التشبيه "صراطا سويا" استعارة تصريحية حيث شبه الاعتقاد الموصل الى الحق والنجاة بالطريق المستقيم المؤدى الى المقصود (٢).

ويمكن أن يقال : المشبه به المذكور وهو هادى من أهدك ، فقد شبه عليه السلام هدايته أباه بدلالته اياه على الطريق المستقيم الموصل الى النجاة وحذف المشبه به وهو الدلالة وأقام المشبه مقامه وهو الهداية ورمز الى المشبه به المحذوف بشيء من لوازمه وهو الطريق السوى الذى أوقع عليه الهداية .

(١) التحرير والتنوير ٥٧/١٢ .

(٢) راجع المرجع السابق ١١٦/١٦ .

ومن الاستعارة المكنية قوله تعالى :

{ويحل عليه عذاب مقيم} . (هود :)

حيث شبه العذاب الأخرى الذى قضى به فى حقهم ، بالدين المؤجل الواجب الحلول وأثبت له الحلول الذى هو من لوازمه تحيلا للتشبيه المضمرة فى النفس^(١)، ولكون المقام مقام تأكيد وتهويل جىء بالاستعارة لاثارة المشاعر والوجدان وذلك عن طريق اظهار حالة الدائن النفسية القلقة فى انتظار حلول موعد قضاء الدين المؤجل والمؤكد حلوله لاحالة وهو صفر اليدين لا يستطيع دفع ما عليه .

ومنها قوله تعالى : {ثم اقضوا الى ولا تنظرون} . (يونس :)

والمعنى أدوا الى ذلك الأمر الذى تريدون ولا تهملون ، والقضاء من قضاء الدين ، أى أدائه فقد شبه ايصال ضررهم اليه بالدين الواجب الأداء مبالغة فى عدم المبالاة والتحدى واظهارا لشدة توكله على ربه وامعانا فى تجريد آلهتهم من ضرر أو نفع^(٢).

وقد يقال شبه قضاء الدين الذى حل أجله بايصال الضرر الذى حل وقته وحذف المشبه به - ايصال الضرر وأدائه - ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو تعلق الى باقضوا ولو كانت اقضوا من القضاء لقال اقضوا لى فلما قال الى دل على أن اقضوا بمعنى أوصلوا أو أدوا الى .

ومن الاستعارة التصريحية قوله تعالى : {يرسل السماء عليكم مدرارا} .

(نوح :)

حيث استعير الارسال للايصال والاعطاء وعدى بـ"عليكم" اشعارا بأن

الايصال من علو .

(١) راجع حاشية زاده ٤٣/٣ .

(٢) راجع روح المعاني ١٥٨/١١ م ٦ .

ومنها قوله تعالى : {واتبعوا من لم يزدده ماله وولده الا خسارا} . (نوح :)

فالخسار مستعار لحصول الشر من وسائل شأنها أن تجلب الخير ، كخسارة التاجر من حيث أراد الربح^(١).

ومنها قوله تعالى : {والله أنبتكم من الأرض نباتا} أى أنشأكم منها ، فاستعير الانبات للانشاء لكونه أدل على الحدوث والتكون من الأرض لكونه محسوسا ، وقد تكرر احساسه ، وهم وان لم ينكروا الحدوث جعلوا بانكار البعث كمن أنكره ففي الكلام استعارة مصرحة تبعية^(٢).
ومن الاستعارة قوله تعالى :

{ويؤخركم الى أجل مسمى ...} . (نوح :)

أى الى أجل محدود معين ، فاستعيرت التسمية للتعين بجامع عدم الاختلاط فى كل فكما أن التسمية تميز بين الأفراد من جنس واحد فانها فى الآجال أيضا تمنع الاختلاط بين أصحاب الآجال^(٣).

ومنها قوله تعالى : {رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الافرارا} . (نوح :)

ففى قوله "لم يزدهم دعائى الافرارا" استعارة تصريرية ، حيث استعير الفرار لقوة الاعراض بجامع الامتناع فى كل^(٤).

ومنها قوله تعالى : {أبلغكم رسالات ربي ...} . (الأعراف : ٦٢)
فقد استعير التبليغ الذى هو جعل الشئ واصلا الى المكان المقصود للاعلام بالأمر المقصود علمه ، بجامع النقل فى كل ، فكأن المعلم بالأمر المقصود علمه ينقل هذا الأمر من مكان الى مكان كما يجعل المبلغ الشئ بالغا الى المكان المقصود^(٥).

(١) راجع التحرير والتنوير ٢٩/٢٠٧ .

(٢) روح المعانى ٢٩/٩٣ م ١٥ .

(٣) راجع التحرير والتنوير ٢٩/١٩٠ .

(٤) راجع المرجع السابق ٢٩/١٩٤ .

(٥) السابق ٨/١٩٣ .

الاستعارة التمثيلية :

ومن قبيل الاستعارة التمثيلية قوله تعالى حكاية عن هود :
 {أنى توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي
 على صراط مستقيم} . (هود : ٥٦)

فقد مثلت سيطرة الله على العباد وتمكنه منهم وتصريفه لهم
 وخضوعهم جميعا لارادته بصورة من يأخذ بالنواصي في هيئة متمكنة
 لا يفلت منها شيء ، يقول ابن عاشور :

"والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكن ، تشبيهاً بهيئة امسك الانسان من
 ناصيته حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتا ، وانما كان تمثيلا لأن
 دواب كثيرة لانواصي لها فلا يلتئم الأخذ بالناصية مع عموم "مامن دابة"
 ولكنه لما صار مثلا صار بمنزلة : مامن دابة الا هو متصرف فيها . والمقصود
 أنه المالك القاهر لجميع ما يدب على الأرض"^(١).

وقد اقتضى المقام ابراز المعنى في هذه الصورة لأن المقام مقام تحد بين
 نبي الله هود عليه السلام وقومه الكفرة المعاندين ، فكون الله مالكا لكل
 يقتضى ألا يفوته أحد منهم وكونه قاهرا لهم يقتضى ألا يعجزه أحد منهم ،
 وتمثل هذا المعنى بهذه الصورة في أذهان قوم هود العتاة من شأنه أن يحدث
 هيبة ورهبة في نفوسهم وهم المعتدون بالهتهم وقوتهم .
 ومنها قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام :

..... {قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ...} .
 (هود : ٩٢)

"واتخذتموه وراءكم ظهريا" فيه استعارة تمثيلية حيث مثلت عدم
 استجابتهم وطاعتهم لله وتعظيمهم اياه بالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعباً به
 ولا يكثرث به .

المجاز العقلي :

(١) التجوز في النسبة الاسنادية :

ويكثر في مقام دعوة الرسل أقوامهم ، وقد جاء في قول صالح عليه السلام : {يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية} . (الأعراف : ٧٢)

فقد أسند المجيء الى البينة وهى في الحقيقة لاجيء وانما يجيء بها الرسول ، ففي هذا الاسناد تجوز . ولعل اسناد المجيء الى البينة فيه اشارة الى أنها لوضوحها وشدة نصوعها لاحتاج الى من يأتي بها ويسوقها الى القوم فهى تجيء بنفسها حجة باهرة بلا واسطة .

ومنه قول شعيب عليه السلام : {والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين} . (الأعراف : ٨٥)

وفى اسناد المجيء الى البينة دلالة على أنها ملزمة ، لأنها واضحة وجلية وهى من الجلاء والظهور بحيث تعلن عن نفسها بنفسها .
ونجد مجاز الاسناد يكثر في مقام الانذار بالعذاب كقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام :

{لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره . انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} . (الأعراف : ٥٩)

وقوله : {ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم} . (هود :

٢٦)

وقوله تعالى : {قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى من معك

وأمم ستمتعهم ثم يمسه من عذاب أليم} . (هود : ٤٨)

وقوله تعالى : {إنا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم} . (نوح :)

فقد وصف اليوم في الآيتين الأوليين بعظيم وأليم على طريقة المجاز الاسنادى ، فوصفه بعظيم لبيان عظم مايقع فيه ووصفه بأليم لوقوع الألم فيه . ويرى الزمخشري أن الأليم في الحقيقة هو العذاب ونظر بنهارك صائم وجد جده^(١) . على أن الألوسى يرى أن المؤلم في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى ، ونزل الظرف منزلة الفاعل نفسه لكثرة وقوع الفعل فيه فجعل كأنه وقع الفعل منه ، كما يرى أن الوصف لو انسحب على العذاب كان أيضا من قبيل الاسناد المجازى ووجه التجوز حينئذ أنه جعل وصف الشيء لقوة تلبسه به كأنه عينه فأسند اليه مايسند الى الفاعل ثم نظر على الوجهين بنفس مانظر بهما الزمخشري فيما سبق ، ثم ذكر مقالة من يرى في وصف العذاب بالايلام حقيقة عرفية^(٢) .

ويمكن النظر الى الآية على أن "الأليم" فيها بمعنى مؤلم أى أنه اسم مفعول أصله مألوم والكفار هم المألومون في ذلك اليوم ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا لتصوير اليوم ذاته بأنه يحمل بالألم شاعر به فما بال من فيه^(٣) .

وعلى رأى الزمخشري الألوسى في مجازية اسناد وصف العذاب بالأليم تكون الآيتان الأخيرتان من قبيل الاسناد المجازى ، وعند من يرى في وصف العذاب بالايلام حقيقة عرفية تخرجان من مسائل هذا الباب . ومما هو من قبيل المجاز الاسنادى قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام :

(١) راجع الكشاف ٢/٢٦٥ .
 (٢) راجع روح المعانى ١٢/٣٦ م ٦٠ .
 (٣) راجع في ظلال القرآن ١٢/١٨٧١ .

{واتقوا الذى أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} . (الشعراء : ١٣٣-١٣٥)
وقوله : {ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} .
(الأحقاف :)

ومنه قوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام : {ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم} . (الشعراء : ١٥٦)
ومنه قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام :
{والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط} . (هود : ٨٤)

ففى وصف اليوم بالاحاطة أسناد مجازى ، يقول أبو السعود : "ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة ما لا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما شتمل عليه منه كما اذا أحاط بنعيمه" (١).
على أن التجوز فيما سبق يساعد على هز النفوس واثارة مشاعر الهلع والفرع فيها فيساعدنا ذلك على مراجعة نفسها واعمال عقلها فيما يدعوها اليه فلعلها ترعوى عن غيرها وتستجيب للرسول الكرام فى دعوتهم الى النجاة.
وفى مواقف الأقسام نجد المجاز الاسنادى يؤدى دورا مهما من ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم صالح عليه السلام : {واننا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب} . (هود : ٦٢)

حيث أسند اسم الفاعل "مريب" الى ضمير الشك ، والحقيقة أن الشك لا يريب وانما هو سبب فى الريبة ، وفى هذا الاسناد دلالة على شدة تمكن الشك من نفوسهم ومدى وقوعهم فى الحيرة والتردد كما يصور فى الوقت ذاته مدى اتصاف القوم بالمرآوة والتحايل عن طريق الإيهام الى انصافهم

في رفض دعوة صالح عليه السلام ، وانهم فكروا فيها مليا وقلبوها على بساط العقل والبحث ، فانتهى بهم الأمر الى شك فظيع أطبق على أركان نفوسهم فحال بينهم وبين الاستجابة وبذلك يكونون قد اثبتوا لأنفسهم صفة التعقل في رفضهم ودفعوا عنها تهمة اتباع الهوى أو الطيش . كما يدل التعبير في الوقت نفسه على مدى الحيرة والقلق الذي يعيشون فيه .

ومن مواقف الأقوام التي استعمل فيها الاسناد المجازي موقف قوم نوح في التكذيب يقول تعالى : {أنا لتراك في ضلال مبين} . (الأعراف : ٦٠) حيث أسند اسم الفاعل "مبين" الى ضمير الضلال للاشعار بأن ضلاله في تمكن منه وظهر لكل ذي عينين لأنه من الظهور والوضوح بحيث يبين عن نفسه .

ومن المجاز الاسنادى قوله تعالى :

{قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلاتسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين} . (هود : ٤٦)

حيث أسند العمل الى ضمير الابن "انه عمل غير صالح" فجعلت ذاته عملا غير صالح امعانا في ذمه ، وتلويحا الى أن نجاة من نجا من أهله انما هي لصلاح عمله لالقربته منك ، وأن القرابة المعول عليها في هذه المسائل هي قرابة الدين لاقرباة النسب .

وأصل التعبير في غير القرآن أن يقال : انه ذو عمل غير صالح ثم جعل نفس العمل لأنه أبلغ في الدلالة على المقصود كقول الخنساء : "فانما هي اقبال وادبار" (١).

هذا على رأى عبد القاهر فقط الذى يمد المجاز العقلى الى النسبة بين المتبدأ والخير ولا يقصرها على النسبة بين الفعل وما فى معناه وبين ملابسه (٢).

(١) الكشاف ٢/٢٧٣ ، ارشاد العقل السليم ٣/٥٠ .

(٢) راجع دلائل الاعجاز ص ٣٠٠-٣٠٢ .

ففى قول الخنساء الناقة جعلت لكثرة ماتقبل وتدبر ولغلبة ذلك عليها
واتصاله بها والخاصة فيها كأنها تجسدت فصارت هى الاقبال والادبار مبالغة
فيه ، وعلى هذا النحو يجعل العمل غير الصالح لكثرة وقوعه من ابن نوح
واصراره عليه ولزومه اياه واستمراره عليه صار لذلك كأنه تجسدت ذاته
فصارت معنى هو عمل غير صالح مبالغة فيه .
ومن المجاز الاسنادى قول نوح عليه السلام فى موقف الشكوى الى
الله :

{فلم يزدهم دعائى الا فرارا} . (نوح :)

حيث أسند الزيادة الى الدعاء الذى هو سبب على حد الاسناد فى
سرتنى رؤيتك (١).

وفى ذلك اشعار بأن الفرار منه لم يكن لعيب فى نفسه وانما هو بسبب
دعوته اياهم الى التوحيد وفيه بيان لمدى ثقل الدعوة عليهم ونفورهم منها .
ومنه فى مقام الدعوة قول نوح عليه السلام :

{ولا أقول للذى تزدرى أعينكم} . (هود : ٣١)

حيث أسند الازدراء الى الأعين مجازا للمبالغة فى رأى من حيث انه
اسناد الى الحاسة التى لا يتصور منها تعيب أحد فكأن من لا يدرك ذلك يدركه
وللتنبية على أنهم استحققروهم بادية الرؤية وبما عاينوا من رثاثة حالهم
وقلة منالهم دون تأمل وتدبر فى معانيهم وكمالاتهم (٢).

على أن صياغة ركنى الاسناد فى التجوز الاسنادى فيما سبق يلحظ فيه
كثرة اسناد الصفة المشبهة بالفعل - وخاصة اسم الفاعل - الى ضمير غير
ما هو له ، كقوله تعالى :

{انا لنراك فى ضلال مبين} . {انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم} ، {واننا

لفى شك مما تدعوننا اليه مريب} ، {وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط} .
(هود : ٨٤) وهكذا .

(١) روح المعانى ١٥/٢٩/٨٨ .

(٢) روح المعانى ٦/١٢/٤٣ .

ويأتى بعد ذلك اسناد الفعل الى غير ماهو له كقوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام : {قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية} .
وقول شعيب عليه السلام : {قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان} .

وقلما نجد اسناد المصدر الى غير ماهو له كما فى قوله تعالى :
{قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح} .

التجوز فى النسبة الاضافية :

وجاء منه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام :
{يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}
(الأعراف : ٥٩)

وقوله : {ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم} . (هود :
(٢٦)

وقوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام :
{واتقوا الذى أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون . انى أخاف عليكم عذاب
يوم عظيم} . (الشعراء : ١٣٣-١٣٥)

وقوله تعالى حكاية عن شعيب : {انى أخاف عليكم عذاب يوم محيط} .
ففى اضافة العذاب الى اليوم فى الآيات السابقة تجوز ، والحقيقة أن
اليوم ظرف لوقوع العذاب فيه والأصل "عذابا فى يوم" ، وفى هذا التجوز
من التهويل وتربية المهابة مالا يخفى .

التجوز فى النسبة الايقاعية :

وجاء منه قوله تعالى : {ياأبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا} .

ففى نهيه أباه عن عبادة الشيطان تجوز لأن المعبود فى الحقيقة هى الأصنام ، وعدل عن الحقيقة الى المجاز لأن عبادته للأصنام عبادة للشيطان اذ هو الذى يسولها له ويغريه بها^(١)، وفى ذلك تنفير للأب عن عبادة الشيطان لما استقر فى الأذهان من قبح صورته التى تنفر القلوب عنه .
ومنه قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام : {ولاتفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها} . (الأعراف : ٨٥)

فان كلمة "اصلاحها" من اضافة المصدر الى مفعوله ، فالتجوز فيه فى النسبة الايقاعية لأن اصلاح ما فى الأرض اصلاح لها^(٢).
ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام وقومه :
{وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين .
فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين} . (يونس : ٨٤-٨٦)
ففى قولهم "لاتجعلنا فتنة" تجوز فى النسبة الايقاعية حيث عدى الفعل "تجعلنا" الى ضميرهم المخبر عنه بفتنة تعدية على طريقة المجاز العقلى^(٣).
أى لاتجعلنا سبب فتنة أو موضع فتنة للقوم الظالمين ، وسر العدول الى التجوز يكمن فى شدة شعورهم بالخوف من الفتنة الذى يشخصها فى نفوسهم هذا الخوف فصاغه تعبيرهم مشخصا كذلك .
ومنه قوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام :
{ولاتطيعوا أمر المسرفين} . (الشعراء : ١٥١)

(١) راجع ارشاد العقل السلم ٥٨٥/٣ .

(٢) راجع : حاشية الشهاب ٨٨/٤ ، روح المعاني ٤م/٨ ، ص ١٧٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٣/١١ مع تصرف .

حيث أوقع الطاعة على أمر المسرفين ، والتركيب الحقيقى فيها هو "ولاتطيعوا المسرفين فى أمرهم فاعتبرهم مطيعين للأمر ذاته تجوزا وفى ذلك دلالة على شدة غفلتهم وعدم اعمالهم لعقولهم فى انقيادهم للمسرفين حيث اصبحوا أداة طيعة يحركهم الأمر الذى هو مجرد سبب ، وفى ذلك اثارة لمكامن التفكير فيهم وحثا على استقلال الرأى واعمال الفكر وتحكيم العقل .

التجوز فى النسب الانشائية :

من ذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون :

{وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب} . (غافر : ٣٦)
ففى النسبة الانشائية "ابن لى صرحا" مجاز عقلى حيث أسند فعل البناء
الى هامان وهو سبب أمر وليس بفاعل حقيقى .. وقد وقع التجوز فى الأمر
بالبناء والأمر انشاء .

ونظيره فى الموضوع ذاته قوله : {فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل
لى صرحا ...} . (القصص : ٣٨)

ومن ذلك قول قوم شعيب عليه السلام فى موقف الاستهزاء والتهكم
به :

{قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى
أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد} . (هود : ٨٧)

حيث أسند الأمر الى ضمير الصلاة تجوزا للهزاء والتهكم به فقد كانوا
يرون صلاته من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين ، وخصوا الصلاة من بين
أحواله لأنها أشهرها حيث كان عليه السلام كثير الصلاة معروفا بينهم بذلك
وقد كانت موضع ضحكهم وسخريتهم^(١).

وقد وقع التجوز فى جملة استفهامية والاستفهام انشاء .

(١) راجع ارشاد العقل السليم ٨٠/٣ .

المجاز المرسل :

ولم يخل خطاب الأنبياء من المجاز المرسل أسلوبا من أساليب البيان والتصوير ففي مجال الدعوة والانذار نجد قول هود عليه السلام {قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب} . (الأعراف : ٧١)

حيث استعمل صيغة المضى في معنى الاستقبال اشعارا بتحقق وقوعه ، وتكون العلاقة عندئذ اعتبار ماسيكون ، هذا على رأى الجمهور في تفسير الرجس بالعذاب ، وقد فسر البعض الرجس بالسخط وفسر الغضب بالعذاب وعندئذ يكون المجاز واقعا في الغضب بعلاقة السببية لأن العذاب أثر للغضب^(١). وفي وقوع المجاز في الفعل "وقع" اشعار بعدم الرجوع فيه أو مدافع له كما ان المجاز في الغضب يشعر بفضاعة العذاب وفداحة الجرم الذى جعل العذاب مصحوبا بغضب من من شأنه الرحمة والاحسان ، وهذا ما يوحى به "من ربكم" .

ومما كانت العلاقة فيه السببية قول نوح في مجال تحدى قومه وآلهتهم المزعومة :

{ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت} . (يونس : ٧١)

فاقامة جملة "فعلى الله توكلت" مقام الجزاء من اطلاق السبب - الذى هو التوكل - على المسبب الذى هو انتفاء الخوف - مجازا مرسلا - اعلاما لهم بعظمة الله وحقارتهم بسبب أنهم أعرضوا عن الآيات وهم يعرفونها بما دل عليه التعبير بالتذكير فدل ذلك على عنادهم بالباطل ، والمبطل لا يخشى أمره لأن الباطل لاثبات له^(٢). وهذا يوحى بحقارة آلهتهم وتجردها من أى نفع أو ضرر مع الاعتداد بقدرته ربه وكماله المطلق وسلطانه القاهر وأن له العزة كلها وحده .

(١) راجع التحرير والتنوير ٢١٠/٨ .

(٢) نظم الدرر ١٦٣/٩ .

ومما كانت العلاقة فيه الكلية قول نوح عليه السلام في شكواه الى الله اعراض قومه :

{وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ...} . (نوح : ٧)

حيث أطلقت كلمة "أصابعهم" مرادا بها أناملها أو أطرافها التي هي جزء من الأصابع بعلاقة الكلية على سبيل المجاز . وفي ايثار الجعل على الادخال دلالة على فرط كراحتهم للدعوة واضطجارهم بصاحبها . وفي ايثار "الأصابع" بدل "الأنامل" دلالة على فرط كراحتهم للدعوة واضطجارهم بصاحبها ، واعراضهم عن دوعته اعراضا لأمل معه في قبولها حيث وضعوا كل الأصابع مبالغة في أن لاينفذ الى مسامعهم حرف مما يدعوهم به نبيهم نوح عليه السلام .

ومما كانت العلاقة فيه المحلية قول هود عليه السلام في مقام الدعوة عن طريق الترغيب :

{وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا} . (هود ٥٢)

حيث أطلق السماء على المطر مجازا مرسلا ، لأن المطر ينزل من السماء وفي جعل السماء نفسها مطرا كثير الدر مبالغة في اثاره عواطف الرغبة فيهم بعد أن حبس عنهم المطر زمنا طويلا وعانوا من القحط والجذب شدة حتى أوشكوا على الهلاك ، فأمرهم نبي الله هود بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول المطر الغزير الذى ينفع العباد والبلاد .

الكناية :(١) الكناية عن الموصوف :

ومنها قوله تعالى : {قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلاتسألنى ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين} .
فقد كنى بالجهل عن الذنب لتجنب مواجهة نوح عليه السلام بذنبه ،
ويؤيد ذلك جواب نوح عليه السلام : {قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والاتغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين} . وفى هذه الكناية ملاطفة واکرام .

(٢) الكناية عن الصفة :

ومنها قوله تعالى : {واصنع الفلك بأعيننا} فالأعين هنا كناية عن الرعاية والحفظ . يقول ابن عاشور : " والمراد الكناية بالمعنى المجازى عن لازمه وهو الحفظ من الخلل فى الصنع " (١) .
ومنها قوله تعالى : {واتخذتموه وراءكم ظهرياً} فالمراد بالظهري الكناية عن النسيان .

ومنها قوله تعالى : {ولأقول لكم عندى خزائن الله} فان الآية كناية عن الغنى الذى هو مناط التفاضل عند قوم نوح عليه السلام حيث نفوا عنه وعن أتباعه أى فضل عليهم لخلو أيديهم من حظوظ الدنيا ومتاعها ، وفى الكناية سخرية بالقوم وتزليلهم منزلة من اتهمه بادعاء أخذ نواصى الغنى .
ومنها قول نوح عليه السلام فى مقام التحدى :

{ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله} . (يونس : ٧١)

فالمقام مصدر ميمى للقيام وقد استعمل هنا فى معنى شأن المرء وحاله ، من قبيل الكناية لأن مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته وفيهما مظاهر أحواله (٢) .

(١) التحرير والتنوير ٦٦/١٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٧/١١ .

ومنها قول نوح عليه السلام في مقام الدعوة :
{أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا
ولعلكم ترحمون} . (الأعراف : ٦٣)
والكناية واقعة في قوله "أوعجبتم" لأن العجب هنا كناية عن الإنكار ،
اشعاراً بأن إنكارهم كان مصحوباً بالعجب إذ استحالوا أن يكون البشر
رسولاً من عند الله لما تركز في نفوسهم من أن هذه المهمة لا تليق إلا بملك
فادعاء بشر لها مثار عجب واستغراب وإنكار .

التعريض :

ومن شواهد قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام :
 {قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا} . (هود : ٨٧)
 ففي اسناد الأمر الى الصلاة تهكم واستهزاء بنبي الله شعيب عليه
 السلام وأنه لم يصدر فيما يدعوهم اليه من ترك عبادة معبودات الآباء عن
 عقل سليم ورأى سديد ، لأن صلاته في نظرهم ماهى الا نتيجة من نتائج
 الوسوسة وأفاعيل المجانين ، وفي ذلك تعريض بذهاب عقله وركاكة رأيه (١).

ومن التعريض قول نوح عليه السلام :
 {ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت
 أحكم الحاكمين} . (هود : ٤٥)

فان نوحا يعرض بطلب نجاة ابنه من الهلاك حياء من الله ، والاختصار
 على هذه الجمل الثلاث في مقام الدعاء تعريض بالمطلوب لأنه لم يذكره ،
 وذلك ضرب من ضروب التأدب والتردد في الاقدام على المسؤول استغناء
 بعلم المسؤول . كأنه يقول أسألك أم أترك (٢).

ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى وهارون عليهما السلام :
 {انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى} . (طه : ٤٨)
 ففي الآية تعريض لانذاره على التكذيب قبل حصوله منه . وهذا من
 الأسلوب اللين الذى أمرهما الله به ، وفيه تلطيف في الوعيد وتجنب
 مواجهة فرعون (٣).

ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم نوح عليه السلام :
 {مانراك الا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى
 ومانرى لكم علينا من فضل} . (هود : ٢٧)

(١) راجع روح المعاني ج ١٢ ، م ٦ ، ص ١١٧ .

(٢) التحرير والتنوير / ١٠

(٣) المصدر السابق بتصرف ٢٣٠/١٦ .

ففى قولهم "ما نراك الا بشرا مثلنا" .. تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه بدليل قولهم بعد ذلك "وما نرى لكم علينا من فضل" ، وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم (١).

ومنه قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام :
{قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون} . (الأنبياء : ٦٢)
ففى الآية تعريض بضعف عقول المخاطبين ، كما يحمل التعريض السخرية بهم والتبكييت لهم .

ومنه قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام :
{قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أظهر لكم فاثقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى}.

ففى الآية تعريض باستعداده عليه السلام أن يزوجهم بناته فى مقابل تراجعهم عما عزموا عليه ولم يصرح بذلك لأنه عرض هذا العرض ونفسه له كارهة لحسة القوم وعدم كفاءتهم وربما قصد الى اثاره الحياء فيهم ليرعوا عن غيهم .

ومنه قوله تعالى حكاية عن نوح فى مقام الشكوى الى الله ملاقاه من قومه :

{وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا} . (نوح : ٧)

حيث جعلت الدعوة معللة بمغفرة الله لهم لأنها دعوة الى سبب المغفرة وهو الايمان بالله وحده وطاعة أمره على لسان رسوله ، وفى ذلك تعريض بتحقيقهم وتعجب من خلقهم اذ يعرضون عن الدعوة لما فيه نفعهم فكان مقتضى الرشاد أن يسمعوها ويتدبروها (٢).

(١) راجع : المثل السائر ص ٣٩٠ طبعة ١٣٨٣ هـ غير محققة ، الكشاف ٢/٢٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩٦/٢٩ .

ومنه قول نوح في مقام رد شبهات القوم :
{ولأقول للذين تزددى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في
أنفسهم انى اذا لمن الظالمين} . (هود : ٣١)
ففى رفضه حظ مرتبة أتباعه الفقراء وتقصهم حقوقهم لكون ذلك
ظلما لهم ، وهو يربأ بنفسه أن يكون فى عداد الظالمين ، تعريض بأنهم
ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وفى التعريض تجنب مواجهة القوم بما
يكرهون مع تسجيل ذلك عليهم بطريق التعريض .

(٢٨٢)

الخاتمة

الخاتمة

توصلت من خلال دراستي لخطاب الأنبياء في القرآن الكريم الى النتائج التالية :

* أن الأنبياء أو الرسل جميعا دعوا الى الاسلام الذى هو توحيد الله وافراده بجميع أنواع العبادات والقربات ، وقد توحدت أساليبهم فى ذلك وتوحدت أفكارهم الى حد التعبير عنها فى معظم الأحيان فى قالب تعبيرى موحد شكلا ومضمونا ، ولاغرو فى ذلك فكلهم يصدرن عن مصدر واحد ويستضيئون بنور واحد .

* وأن الكفرة المعاندين تتشابه أفكارهم وتتوارد خواطريهم فى رفضهم الدعوة وتكذيب الدعاة وايدائهم ومن معهم من المؤمنين ، وقد توارثوا ذلك خلفا عن سلف ، ولاغرابة فى ذلك فكلهم يستوحون أفكارهم من الشيطان اللعين ، وصدق الله العظيم حيث يقول : {كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون} . (الذاريات : ٥٢-٥٣)

* أن الأنبياء لم يتركوا منفذا من منافذ التأثير على المخاطب الا وسلخوا فيه سواء فى ذلك مايتصل بمخاطبة العقل لاثارة بواعث التفكير السليم المتزن فيه أم مايتصل بالجانب الوجدانى لاثارة العواطف والمشاعر والأحاسيس ترغيبا أو ترهيبا .

* أن القصة لما تتكرر فى القرآن غالبا ماتحمل فى التكرار اضافات جديدة تكشف عن جوانب أخرى من القصة لم تذكر من قبل ، أو تفصل مجملات لم توضح من قبل ، أو تبين مبهمات لم تفسر فيما سبق .

* أن أكثر شواهد التقديم مرتبط بالفاصلة وأن رعايتها مقرون برعاية الأمر المعنوى المرتبط بالتقديم كما لاحظنا فيما يتصل بتقديم مايتعلق بخبر ان عليه ، أن الخبر فى تلك الشواهد بمعنى الفعل ولهذا صح أن يكون له متعلق - كالفعل - كما صح أن يتقدم عليه هذا المتعلق لغرض مرتبط

بالسياق ورعياً للفاصلة التي يساعد تناسقها على أداء المعنى في صورة مؤثرة ، وهذا التقديم المرتبط بالفاصلة يكاد يطرد في تقديم بعض المتعلقات على بعض ، وهو يدور في معظمه في فلك الاهتمام بالمقدم .

* أن مقامات القصر قد اقتضت كثرة مجيئه بالنفى والاستثناء ، وأن القصر في خطاب الأنبياء ، لا يصار إليه الا لتصحيح خطأ وقع فيه المخاطب .

* أن أكثر أدوات الاستفهام ورودا هي الهمزة وأن مرد ذلك الى مرونتها وسهولة التعامل بها لكونها يسأل بها عن كل شيء . كما وجدنا أن الانكار أكثر المعاني الاستفهامية في خطاب الأنبياء ، سواء في كلام الأنبياء أو في كلام الأقوام ، وبعد تتبع هذا النوع من الاستفهام وجد قلة الانكار التوبيخي وكثرة التكذيبي في كلام الأقوام . أما من جانب الرسل فقد وجد قلة التكذيبي وكثرة التوبيخي وهو أمر طبعي جدا ، لأن الرسل أمروا بتبليغ الدعوة وطلب الايمان بها وهم ينهاون أقوامهم عن المساوىء الأخلاقية وتدعونهم الى مكارمها فليس من المعقول أن يأتوا بمثل ما ينهاون الناس عنه وهم قدوة للناس فلا ينبغي أن يصدر منهم أدنى شيء يخدش أخلاقهم .

* أن مقامات الدعوة قد اقتضت كثرة مجيء فعل الأمر وتابعه ، ومرد ذلك الى مقامات الدعوة التي تقتضى المعاودة والاصرار والالحاح لمواجهة عناد الأقوام واصرارهم على الشرك ورفض الدعوة . كما لوحظ قلة النهي لكون الأمر ألين في الخطاب من النهي ، والرسل مأمورون باللين واللطف ، لذلك غلب في خطابهم كثرة استعمال الأمر وقل النهي الذي هو في الأصل مصحوب بالزجر والتحذير والحدة ، لأنه طلب كف يقتضى الامتثال الفوري تخاشيا للمضرة المتوقعة عند عدمه ، فهو أشد على النفس من الأمر الذي هو في الواقع نهى عن ضد المأمور به .

وأخيرا لاحظت دقة مقاييس علماء البلاغة ومطابقتها لما ورد في خطاب الأنبياء من مسائل بلاغية اللهم الا ما كان منهم من ايجاب الفصل لكمال الاتصال ، ووجوب المطابقة بين الجمل المعطوفة في الخبرية والانشائية ، فهما بحاجة الى مراجعة واعادة النظر لتوسيع دائرة القاعدتين لتشمل ماورد على خلافهما في القرآن الكريم أفصح الكلام ومعجزه وهو كثير ، وناهيك بأن ذلك قد ورد أيضا وبكثرة في الكلام الفصيح شعرا ونثرا .

وهناك نتائج أخرى أكثر مما ذكرت وهي مبثوثة في سطور الرسالة لأرى حاجة الى حصرها جميعا هنا وهي مما لاخطئه عين القارىء .. على أنى لاحظت فيما يتصل بمسائل علم البيان قلة الصور البيانية في خطاب الأنبياء ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى طبيعة الدعوة التي تحتاج الى الاقناع العقلي بالتعبير المباشر أولا ليتصرف الانسان بمحض ارادته واختياره حتى يقع الجزاء والعقاب على سلوك حر مختار ، ثم الاقناع العاطفى أو الوجدانى الذى يساعد على ترسيخ الاقتناع لدى العقل ويحشه على العمل بموجب ماقتنع به أو يرهبه مغبة عدم العمل بمقتضى العقل ليعيده الى اعادة التفكير السليم ومعاودة اعمال العقل بشكل سليم ومنتزن ، ليحظى بالفوز والفلاح ويتقى مزالق الردى والهلاك .

ولاحظت أيضا أن خطاب نبى الله موسى عليه السلام أو قصصه ومحاوراته أكثر من غيره من الأنبياء في القرآن الكريم ، ولعل السر في ذلك يرجع أن قصصه أكثر دلالة من غيرها على ماعاناه رسول من قومه ، ايداء وتعنتا وتكبرا وتجبرا وعنادا وكفرا وتكذيبا وتلونا .
هذا ، وبالله التوفيق والحمد لله أولا وآخرا .

(٢٨٦)

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- * الاسلام في عصر العلم ، تأليف المرحوم الأستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوي ، اعداد الأستاذ أحمد عبد السلام الكرداني ، دار الكتب الحديثة .
- * الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تصنيف محمد علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .
- * الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، ابن المنير الاسكندري بحاشية الكشاف ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
- * البحر المحيط في التفسير ، لمحمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، طبعة جديدة بعناية الشيخ زهير جعيد ، المكتبة التجارية ، مصطفى أحمد الباز .
- * بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين عمر بن يعقوب الفيروز ابادي ، تحقيق الأستاذ عبد العليم الطحاوى ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة .
- * بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، تأليف عبد المتعال الصعيدي ، المطبعة النموذجية .
- * البلاغة القرآنية في تفسير الزخشرى وأثرها في الدراسات البلاغية ، للدكتور محمد حسنين أبو موسى ، دار الفكر العربى .
- * التحرير والتنوير ، تأليف سماحة الأستاذ الامام الشيخ محمد طاهر ان عاشور ، الدار التونسية .
- * التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ، دار الكتب العلمية ، طهران الطبعة الثانية .
- تفسير أبى السعود - ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآ الكريم ، تأليف أبى السعود العمادى الحنفى ، تحقيق عبد القادر عطا ، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .

* تفسير ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، للامام الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي ، دار المعارف ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

* تفسير البيضاوي ، أنوار التنزيل ، للقاضي البيضاوي ، بهامش حاشية الشهاب ، دار صادر ، بيروت .

* تفسير الخازن - لباب التأويل في معاني التنزيل ، لعلاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الشهير بالخازن ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

* تفسير الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .

* تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبيد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب المصرية .

* تفسير المنار للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، تأليف السيد محمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، شهاب الدين الخفاجي ، دار صادر ، بيروت .

* حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ، المكتبة الاسلامية ، دار صادر ، بيروت .

* الحوار في القرآن ، تأليف محمد حسين فضل الله ، دار التعارف ، بيروت .

* الحوار في القرآن الكريم - خصائصه التركيبية وصوره البيانية - لمحمد ابراهيم عبد العزيز شادي . مخطوط في الأزهر الشريف .

* الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، تأليف أحمد بن يوسف المعروف بالسمين ، تحقيق أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق .

- * درة التنزيل وغرة التأويل ، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب
العزیز للخطیب الاسکافی ، دار الآفاق الجديدة ، بیروت ١٩٧٩م .
- * دلائل الاعجاز ، تألیف الشیخ الامام أبی بکر عبد القاهر الجرجانی ،
تحقیق محمود محمد شاکر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- * دلالات التراکیب للدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- * روح البیان ، للامام الشیخ اسماعیل حقی البروسوی .
- * روح المعانی فی تفسیر القرآن العظیم والسبع المثانی ، للعلامة أبی
الفضل بهاء الدین السید محمود الألوسی البغدادی ، دار الفكر .
- * شرح الزرقانی علی موطأ الامام مالک ، للامام سیدی محمد الزرقانی
دار الفكر .
- * شروح التلخیص ، دار السرور ، بیروت .
- * صحیح مسلم ، للامام أبی الحسین مسلم بن الحجاج القشیری
النيسابوری ، تحقیق فؤاد عبد الباقي ، دار احیاء التراث العربی .
- * فی ظلال القرآن ، للشهید سید قطب ، دار الشروق ، الطبعة
التاسعة .
- * الکشاف عن حقائق التنزیل وعیون الأقاویل فی وجوه التأویل ،
لأبی القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشری الخوارزمی ، دار المعرفة ،
بیروت .
- * المثل السائر فی أدب الکاتب والشاعر ، لضیاء الدین بن الأثیر ،
تحقیق الدكتور أحمد الحوفی ، والدكتور بدوی طبانة ، مطبعة نهضة مصر
١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .
- * المحرر الوجیز فی تفسیر الکتاب العزیز ، لابن عطية الأندلسی ،
تحقیق المجلس العلمی بفاس .
- * معالم الدعوة فی قصص القرآن الکریم ، تألیف عبد الوهاب بن
لطف الدیلمی ، دار المجتمع ، جدة ، السعودية .

* مغنى اللبيب عن كتب الأعراب ، لعبد الله بن هشام الأنصارى ،
دار الباز ، عباس أحمد الباز .

* ملك التأويل القاطع بذوى الاحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه من
آى التنزيل ، للامام أحمد بن الزبير الثقفى العاصمى الغرناطى ، تحقيق
سعيد الفلاح ، دار الغرب الاسلامى .

* الملل والنحل ، لأبى الفتح محمد بن عبد الكرىم أبى بكر أحمد
الشهرستانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده
بمصر .

* مناهج الجدل فى القرآن الكرىم ، للدكتور زاهر بن عواض الألمعى
الطبعة الثانية .

* من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم "الفاء وثم" ، للدكتور
محمد الأمين الحضرى ، مكتبة وهبة .

* نتائج الفكر فى النحو ، لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله
السهيلى ، تحقيق الدكتور محمد ابراهيم البنا ، دار الرياض .

* نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ، للامام المفسر برهان الدين
أبى الحسن ابراهيم بن عمر البقاعى ، دار الكتاب الاسلامى ، عن دائرة
المعارف العثمانية .

فهرس الموضوعات

الصفحة

أ	شكر وتقدير
ب	المقدمة
الباب الأول : خطاب الأنبياء	
٨٨-٢	<u>الفصل الأول</u> : الدعوة الى التوحيد ومكارم الأخلاق ..
٣	دعوة نوح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق ...
٢٢	دعوة هود عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق ...
٣١	دعوة صالح عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق .
٣٧	دعوة ابراهيم عليه السلام
٥٦	دعوة لوط الى التوحيد ومكارم الأخلاق
٦٥	دعوة يوسف عليه السلام الى التوحيد
٧٠	دعوة شعيب عليه السلام الى التوحيد ومكارم الأخلاق
٧٨	دعوة موسى وهارون الى التوحيد ومكارم الأخلاق
٨١	دعوة عيسى عليه السلام
	دعوة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الى التوحيد
٨٦	ومكارم الأخلاق
١٦٦-٨٩	<u>الفصل الثاني</u> : مواقف الأقسام من دعوة الأنبياء
٩٠	مواقف قوم نوح عليه السلام
١١٦	مواقف قوم هود عليه السلام
١٢٤	مواقف قوم صالح عليه السلام
١٣١	مواقف قوم ابراهيم عليه السلام
١٣٦	مواقف قوم لوط عليه السلام
١٤١	مواقف قوم شعيب عليه السلام
١٤٦	مواقف فرعون وبنى اسرائيل من دعوة موسى عليه السلام

الصفحة

الباب الثاني : الخصائص التركيبية والصور البيانية

الفصل الأول : مسائل علم المعاني الواردة في خطاب

٢٥٤-١٦٨ الأنبياء
١٦٩ مقامات التقديم
١٨١ مقامات الایجاز
١٩٦ مقامات القصر
٢٠٧ مقامات الاستفهام
٢١٩ مقامات الأمر
٢٢٦ مقامات النهی
٢٢٩ مقامات الفصل والوصل

الفصل الثاني : مسائل علم البيان الواردة في خطاب

٢٨١-٢٥٥ الأنبياء
٢٥٦ التشبيه
٢٥٨ الاستعارة
٢٦٤ الاستعارة التمثيلية
٢٦٥ المجاز العقلي
٢٦٥ التجوز في النسبة الاسنادية
٢٧١ التجوز في النسبة الاضافية
٢٧٢ التجوز في النسبة الايقاعية
٢٧٤ التجوز في النسب الانشائية
٢٧٥ المجاز المرسل
٢٧٧ الكناية
٢٧٩ التعريض

الصفحة	
٢٨٥-٢٨٢ الخاتمة
٢٩٠-٢٨٧ المصادر والمراجع
٢٩٣-٢٩١ فهرس الموضوعات